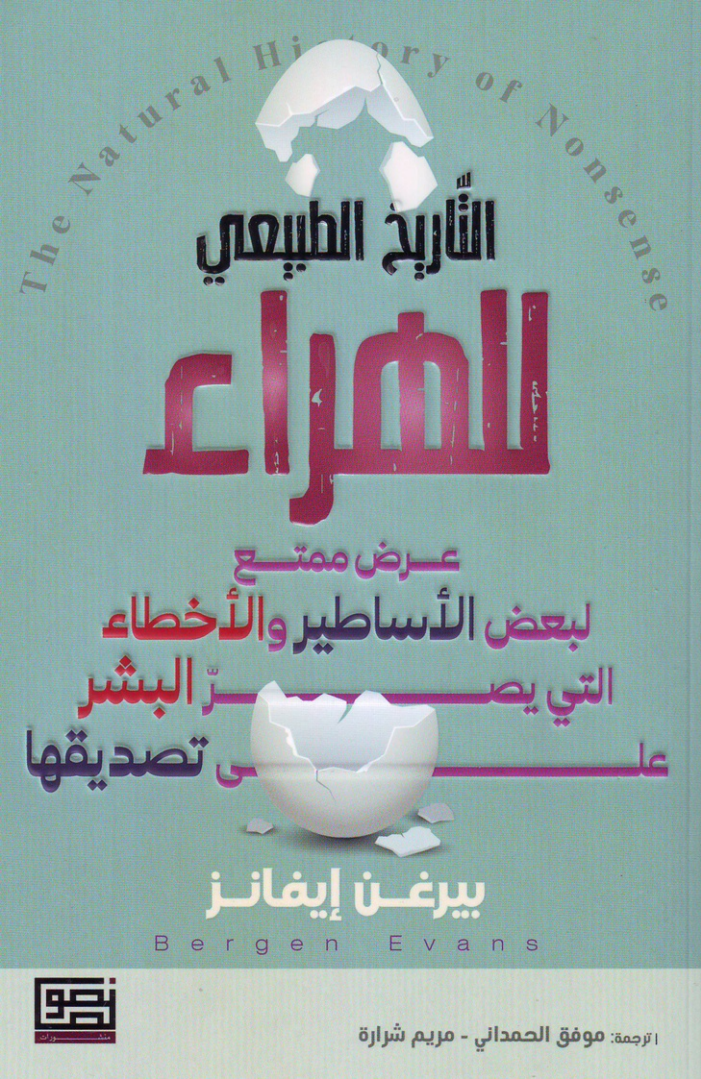

The Natural History of Nonsense
التاريخ الطبيعي
للهراء
عرض ممتع
لبعض الأساطير والأخطاء
التي يصرّ البشر
على تصديقها
بيرغن إيفانز
Bergen Evans
ترجمة: موفق الحمداني - مريم شرارة

The Natural History of Nonsense
Bergen Evans

■ اسم الكتاب: التّاريخ الطبيعي للهراء
■ المؤلف: بيرغن إيفانز
■ ترجمة: موفق الحمداني - مريم شرارة
■ تدقيق وتنقيح: أ. عقيل عيسى
■ الطبعة الأولى 2023 ©

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو إستعماله بأي شكلٍ من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منشورات نصوص.

ISBN: 978-9922-8551-5-8

■ الإخراج الفني: TRIGRAPHICS





لبنان-بيروت، شارع الحمصي، بناية ميرا، الطابق الخامس
العراق-بغداد، شارع المتنبي، بناية محمد الياسر، الطابق الأول
+009611 740 495 ; +009647 78 938 980
www.nousous.com nousoubr@outlook.com

The Natural History of Nonsense

التّاريخ الطبيعي للهراء

عــرض ممتــع لبعض الأساطير والأخطاء التي يصـــرّ البشر علـــى تصديقها

بيرغــن إيفانــز

Bergen Evans

نهضة مصر

ترجمة: موفق الحمداني - مريم شرارة

المحتويات

المقدمة 7

الفصل الأول «أفكارٌ ساميةٌ على مستوى واطئ» 9

الفصل الثاني «الطيور في أعشاشها الصغيرة» 27

الفصل الثالث «ذوات الفراء» 39

الفصل الرابع «الطبقات الدنيا البكماء» 57

الفصل الخامس «الذئب، الذئب» 73

الفصل السادس «قبيل الصيرورة» 89

الفصل السابع «أصخ للجنين» 103

الفصل الثامن «تصلبات الرمم» 117

الفصل التاسع «القصة من الداخل» 137

الفصل العاشر «العقل وحدة مستقلة» 153

الفصل الحادي عشر «البشرة ولونها» 173
الفصل الثاني عشر «لا شي يستحق النعيق» 189
الفصل الثالث عشر «المتدلهون والشمس» 207
الفصل الرابع عشر «إليك الهندي المسكين» 221
الفصل الخامس عشر «أقصوصة مغطي الحمام» 243
المراجع 263

حتى وإن ألغينا الماضي من حياتنا إلا أنهُ لم يتهِ منّا بعد، فلا تزال أفكار العصر الحجري تعيشُ جنبًا إلى جنب مع أحدث الاكتشافات العلمية المعاصرة. ولم يخرجْ من ظلمات القرون الوسطى إلا جزء ضئيل من البشرية. ولا زالت الخرافات والأوهام والأساطير تعششُ حتى في العقول النيرة المثقفة.

فهناك بشر يبدون أسوياء العقول ولكنهم يضعون مستقبلهم بين أيدي سحرة ومنجمين. تشق عنان الفضاء طائرات عملاقة جبارة، يحمل قسم من ركابها التعاويذ السحرية لتقيهم المخاطر والأهوال. وهنالك من الفنادق الفخمة التي تفخر بمصاعدها الكهربائية السريعة، وبتقنياتها في كل غرفة، فإنها تأبى أن تضع الرقم (13) على أبواب غرفها كي لا يشعر ساكنوها بالقلق وعدم الارتياح.

لا زالتْ تقاليدُ الشعوبِ تزخر بمخلفات الماضي الوثنية، فمن ذلك احتفالُ المسيحيين بتزيين أشجار الصنوبر في عيد الميلاد وهم لا يعلمون بأن ذلك من مخلفات عبادة الشجر في العصر الحجري الحديث.

وتقوم الجامعات الغربية بصرف الأموال الطائلة على دراسات في قراءة الأفكار. ويجد أحد

الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء أن الحقائق مستعصية الفهم؛ فيقرر «أنَّ كل ما يستعصي على الفهم هو حقيقة ناصعةً». وتنشر الصحف اليومية عن أحدث المبتكرات العلمية وعن اكتشاف القمر والصواريخ والأقمار الصناعية وما إليها مما يبهر الإنسان، ولكن هذه الصحف نفسها تحمل أبوابًا مثل «حظك هذا الأسبوع».

الأرقام البسيطة ما زالت -كما يبدو- تفعل فعل السحر في تفكيرنا، فالسبعة رقم سحري وهو من مخلفات الحضارة البابلية، وكذلك الرقم 12، فنسمع بالبحار السبعة، والعصور السبعة، وطبقات الأرض السبع... إلخ ويؤمن الكثير بأن الطفل الذي يولد بعد سبعة أشهر يعيش، بينما يموت الطفل الذي يولد بعد ثمانية أشهر من الحمل، وهكذا دواليك.

هذا الكتاب هو محاولة بسيطة لدحض هذه الأوهام بصورةٍ عامة وتخليص العقولِ النيرة المثقفة منها، وما ترجمنا في هذا المجال لم يكن سوى النزر اليسير مما يعجُ به العقل البشري من الخرافات والأوهام، ولو شاء أحدٌ أن يستفيض في البحث، لكان عليه أن يقضي العمرَ كلَّه في التأليف ولا ينتهي.

وبعد لقد قضينا في ترجمة هذا الكتاب زمنًا طويلاً، وبذلنا فيه جهدًا لكي نحافظَ على أصالة النص ووضعه بنص عربي يقارب الأصل قدر الإمكان. ونرجو أن يجد فيه القارئ الكريم من المتعة والفائدة ما يبرر جهدنا، وما يشعرنا بأننا قمنا بجهد مهما كان بسيطًا في خدمة القارئ العربي، من أجل فكر أسلم ومنهج عامي صحيح والسلام.

المترجمان

الفصل الأول:

أفكارٌ ساميةٌ على مستوى واطئ

كان علم الحيوان في الماضي خادمًا لعلم الأخلاق، ولم تجرِ حينذاك دراسة الحيوانات لملاحظة خصائصها بل لاكتشاف المواعظ الخُلقية في سلوكها وطبيعتها. وهكذا فقد وضح لنا «إدواردو توبسل Edward Topsell» الأمر في مقدمة كتابه «**تاريخ الوحوش ذوات الأربع**» فقال: بأن الغرضَ من طبعِ كتابه هذا هو دعوة للقراء إلى «التأملات السماوية في مخلوقات الأرض» ولذلك فقد نصح بقراءة كتابه أيام الأحد.

ولقد تنازل كُتّاب هذه المؤلفات عن الدقة العلمية في سبيل المواعظ الخلقية، فكتب السير توماس براون مبررًا ذلك «تحتوي معظم المغالطات على قيم خُلُقية ثمينة، وهي لذلك تبرر الخروج عن الحقيقة». (م 24، ص 180) أمَّا اليوم فالفكر الحديث يضع في موضعَ الشكِّ القيم الخلقية التي تستند إلى المغالطات، بل ويتضمن جوهر الفكر الحديث رفضًا لكل ما ينافي الحقيقة. ولكن الماضي لم يحفل بالحقيقة إلى هذا الحد، وهذا أسبغ أغرب الأشياء على مختلف الحيوانات لكي يجعلها ذات فائدة خلقية.

يروي كتاب فزيولوكس الشهير وصفًا ممتعا للفهد. إنه حيوان أليف صديق لكل الحيوانات عدا التنين؛ اعتاد أن ينام لثلاثة أيام بعد أن يأكل، وعندما يفيق يطلق زفيرًا عطرًا يقود البشر إليه، أمَّا أن الفهد الحقيقي الكاسر لا ينتمي إلى هذا الفهد بأيٍ من الصفات فأمر غير مهم. إذ لم يكن الهدف من وصفه التحدث عن وحش كاسر، بل وضع حقيقة سماوية، فالفهد يرمز إلى المسيح، أما التنين فيرمز للشيطان بينما تمثل الأيام الثلاثة

الهبوط في أعماق جهنم، ويرمز العطر الذي يفوح منه لتعاليم المسيحية، أمَّا فروه البديع فيمثل رداء يوسف الجميل (م 39، ص 75 – 77).

وهكـذا وضـع كل حيوان في خدمة الفضيلة، فـكان الحوت يتعمد أن يبدو كأنه جزيرة وسـط المحيط، وما إن ينزل عليه البحارة الغافلون حتى يغطـس في المـاء غادرًا بهـم فيقودهم إلى الهـلاك. وهو بسـلوكه هذا يرمز لإبليـس الذي يضع الناس في طمأنينة كاذبة ليفتك بهم. وإذا لحق النـاس بالقندس فهو يعض خصيانه ويلقي بها إلى الذين تبعوه، وهو بذلك يقول للبـشر تخلصـوا مـن ثرواتكم لتخلـص أرواحكم (من الجديـر بالذكر أن خصيـان القندس كانت ذات قيمة عظيمة، فهي تؤدي إلى الإجهاض، كما يقول أوجلي، وهي دواء لوجع الأسـنان وعندما تفرم تضفي نكهة بديعة على التبغ) (م 137، ص 174).

بالرغـم مما تبدو عليه هذه الخرافات اليوم مـن طرافة فإن الفكرة التي تنطـوي عليها لا زالت سـائدة إلى اليوم كما كانـت في الأمس. وملخصها مـا سـلوك الحيوانـات إلا عـبرة وانتقادًا للأخـلاق البشريـة. فـلا زالت الحيوانات في نظر الكثير لا تعدو كونها عظات صغيرة ذات فراء. ولا زال البحث جادًا وبشـكل واسع عن نظام غيبي في عادات الحيوانات، فالسيد إرنست تومبسن سيتن – الذي عتين من نفسه شاعرًا للغابات – يقول في كتابه الشائع عن قصص الطبيعة إنَّها تمثل بشكل لا شعوري الجمال الأخاذ للقوانـين الاخلاقيـة التي وضعتهـا الطبيعـة. ولقد ذهـب إلى الحد الذي كتـب فيه كتابًا كامـلاً يحاول أن يثبت فيه أنَّ كافـة الأحياء تطيع الوصايا العـشر، ثـم عرض فيـه حوادث مـن حياة الحيـوان تمثل أخطـار السرقة

والقتل والخداع والتجاوز على نساء الغير وإهمال حكمة الوالدين، ولكنه وجد صعوبة في أن يثبتَ أنَّ علم الحيوان، يسند الوحدانية ويعارض الاختلاس. أما العمل في أيام العطل الدينية واستعمال القسم فقد كانا أكثر بكثير مما يحتمل؛ إذ انسل في نهاية الكتاب دون الإشارة إليهما فكيف يستطيع التحدث عنهما والقندس مثلاً يعمل يجد طول أيام السنة كما أن الحيوانات في الغالب لا تنطق! (م 157).

ولكنه كان يسير في الطريق الصحيح، إذ إنَّ هذا هو ما يريده الجمهور من الحيوانات الآن، أراد ذلك في العصور الوسطى، ومن المدهش حقًا عدم تأليف كتاب جديد إلى الآن في أخلاق الحيوان. لقد تعلمنا الكثير عن الحيوانات في القرون الماضية وبالإمكان الاستفادة من هذه المعلومات في جهد مثل هذا. لنأخذ الطفيليات مثلاً: إنَّنا نعتقد أن الإنسان طفيلي كبير ولكن البشر لا يعرف حتى المبادئ! إنَّ أكثر رجال العصابات قسوة ليعتبر عاطفيًا إذا ما قيس بطير - السكوا Skua - وهو نوع من طيور البجع يخر في الجو صائحًا بضحاياه فيرعبها بحيث تتقيأ في أعالي الجو ثم يلقف هذه الوجبة التي هضمها له الطير الآخر قبل أن تصل الأرض. وما الرجل الذي يعيش على حساب النساء سوى شخص مستقل إذا ما قيس بذكر البونيليا (نوع من الأسماك) الذي يعيش معظم حياته غير الموقرة في داخل الأنثى ملتصقًا بجهازها الإبرازي.

أما الذين يبحثون عن مبررات للاقتصاد الحر في التنافس فيجدونها فعلاً في حياة الحيوان! إذ إن الكلاب قد تأكل وقد لا تأكل الكلاب الأخرى ولكن كل شيء تقريبًا يعيش على أشياء حية أخرى. فالعناكب تأكل

الذبـاب وهنـاك أنـواع من الذباب تأكل العناكب وبيـوض ذبابـة الميفلاي لا تتحرر حتى يتفسـخ جسم الأم يجب خدمة الشباب! يولد صغار الولك (WhelK) بكبسـولة مقفلـة حيـث يـأكل بعضـه البعض الآخـر – تنافس صحيـح – إن الحـشرات تأكل الكثـير من النبات وعندما نفكـر ونتذكر أن هناك من النباتات ما يقتات على الحشرات نشعر بشيء من الراحة.

ولكـن حتى أكثر الفرديين تطرفًا قد يشـعر بشيء من القلق حينما يعلم أن هناك من الحشرات مـا يعيش على النباتات التي تعيش على الحشرات، وإن هناك من الحشرات ما يعيش على الفضلات المتبقية من الحشرات التي اقتاتـت عليهـا النباتات – ولكن عـلى تلك الحشرات الحـذر فهناك أنواع مـن الطيور تجثم منتظـرةً افتراسـها (ص 6). تمثـل دودة الأرض وحدها مجموعـةً من المواد التي تصلح للاسـتعمال في المقـالات الافتتاحية، فعمال دودة الأرض عمي، ولذلك لا يستطيعون الاضراب (نقطة لرأس المال). ولكن محاربي الأرض لا يستطيعون إطعام أنفسهم، وهم لذلك تحت رحمة العـال. (نقطـة للعمال) والملكة تضخمت فأصبحت وكأنها جهاز تناسـلي ضخم (والتي يختبئ خلفها الملك) تبيض سـتين بيضة في الدقيقة الواحدة طـول أيام السـنة (نقطـة للنظام الملكـي). ولكنها مـا إن تتأخـر عن إفراز البيوض حتى يلتهمها المحاربون (نقطة للانقلابات العسكرية).

ولكـن الواعظ الأخلاقي الاعتيـادي، الذي لا يعلم بوجود مثل هـذا الحصـاد الوفير الـذي ينتظره في أي كتـابٍ جامعي لعلم الحيـوان، لا يفتأ يضـع نفسـه، في معظـم الأحيـان، في إطار التعميـمات وهو يـود أن يفكر

بشكل خاص في «عجائب الغرائز» الحيوانية. هذه الخصائص المدهشة التي تذكرنا أكثر من أي شيء آخر بالوحدانية الغنية، وقدرة الحيوانِ على التنبؤ بالمستقبل من أكثر والغرائز، التي يستند إليها الأخلاقيون. وقد يكون هذا التنبؤ كما يراه بعض هؤلاء لا شعوريا تمامًا كتنبؤها بالشتاء القارص المقبل فينشأ لها فراء طويل - مفهوم عام يثبت بطلانه العدد الوفير من الحيوانات التي يقضي عليها برد الشتاء القارس.

ويرى قسم آخر أن هذا التنبؤ قريب من مستوى الشعور، ولذلك يعتقدون أن القندس والسنجاب يخزنا كميات مناسبة من الغذاء لما يتنبأ به من طول الشتاء المقبل، ويرى قسم غير من مضى ذكره - أن هذا التنبؤ في غاية الدقة فيقول: إن التماسيح تضع بيوضها على الحد الذي سيصله النيل عندما يفيض. ويرى آخرون أن تنبؤ الحيوان سحري فتستطيع الغربان أن تتنبأ بالفراق والفواجع كما تكشف الكنوز وتحل جرائم القتل باكتشاف القتلة! وقد يكون ذلك لشعورهم - دون شك - بالموت وهذه «الغريزة» تعم برأيهم كافة الحيوانات.

وهكذا نجد أن اليونايتد برس أرسلت خبرًا من هارتفورد بعد حريق سيرك مفجع في تموز عام 1944 مفاده أن اللبائن التي كانت في السيرك أحست بالحريق قبل حدوثه، ففي الليلة التي سبقت الحريق كانت اللبائن في السيرك كثيرة القلق فقد ملأ - كار كانتوا - (الغوريلا) الليل عويلاً بينما رفض أحد الأسود الاقتراب من طعامه، كما انزوى النمر في قفصه وهو يموء بشكل مؤلم.

وقـد رفض أصحاب السيرك أن يعلقـوا على هـذه «الظاهرة» بشيء إذ كان لديهـم مـا يفكـرون فيـه - ولكـن أحد المتفرجين شرح للمراسـل الصحفي الهام أن «الحيوانات تعرف تمامًا الوقت الذي يقترب فيه موتها». وهكذا نجد لشديد الأسف أن الجريدة التي نشرت هذا الخبر في شيكاغو لم تكلف نفسها مشقة ارسال مراسل صحفي إلى مسالخ شيكاغو الشهيرة للتأكـد من مدى شـعور اللبائن بقرب موتهـا. (م، ص 5) وهكذا نجد أن «الـكل» يؤكـد بأن الحيوانات تعلم بدنو سـاعتها فالذئب يبتعد عن قطيع الذئـاب ليمـوت وحيدًا، كما تقطـع البجعة صمتها الوقـور الهادئ لتغني اغنيـة أخـيرة غاية في العذوبـة، ويوقد أبو الهـول نارًا من الهيكل، وتسـير الفيلـة بجلال نحو مقبرتها السرية والجرد الحقـير هو الوحيد الذي يهرب من موته حينما تغرق السفن!

إن التعريف الدائري[1] «للغريزة»، التي يمتلكها الحيوان، يسـند غالبـًا بالفرضيـة القائلة بأن الحيوان يولد وهو يمتلـك إمكانية البقاء ومؤهلاته مـن معرفـة ومهـارات. فرضية يجـب أن يتضح خطؤهـا لـكل من راقب كلابًـا أو قططًـا حديثة الـولادة. إنها تولد عمياء فلا حاسـة للاتجاه لديها، ولا تستطيع تمييز امها كما لا تستطيع التفريق بين الملعقة والثدي! والحقيقة أن كافة الحيوانات التي تعلو الأسـماك في سـلم التطور، تولد وهي عديمة الامكان تمامًا، فالطيور والخفاش تتعلم الطيران، وألوف الفقمات وكلاب البحـر تقضي نحبهـا غرقًا كل عام إذ تولد وهي لا تسـتطيع العوم، فتقوم

(1) كتعريف الماء بعد الجهد بالماء.

الأمهات بتعليمها السباحة. والبلبل، مثل بقية الطيور، يستطيع أنَّ يغرد بعد أنْ ينمو قليلاً، ولكنه لا يستطيع التغريد الصحيح حتى يسمع البلابل التي هي أكبر منه سنًا وأكثر تمرسًا بالتغريد، وتبني فئران الحقول المسنة أعشاشًا أفضل من الصغيرة منها. ويقول فرانك بك إن الفيل الصغير لا يعرف ماذا يفعل بخرطومه حينما يولد فيتعثر به حتى يعلمه أبواه استعماله.

تولد الحشرات وهي تمتلك كافة الاستجابات الانعكاسية التي تؤهلها للحياة حقًا، ولكن حتى هنا نجد أن مفهوم «الغريزة» بحاجة إلى تعديل وتحوير. إذ تحسن الحشرات سلوكها بالتمرين. فالعناكب الصغيرة تبدأ بنسج خيوط غاية في البدائية تتحسن كلما ازداد تمرينها. وحينما تستأصل غدد إفراز الخيوط لدى هذه العناكب نجد أنها تبدأ بتعلم الصيد والقنص (م 76، م هـ م 25، م 105، م 150).

حتى الأكل الذي يفترض الإنسان أنه «غريزي»، إذا كانت هناك غريزة، أنه على الأقل جزئيًا، قائم على التعلم ففراخ الدجاج الصغيرة لا تستطيع التمييز بين طعامها وأية مادة أخرى، كما لا تعلم ماذا تفعل به حتى تريها الأم. وفي تجربة لأحد علماء النفس ماتت الفراخ الصغيرة من الجوع والأكل متوفر أمامها إذ لم يعلمها أحد كيف تنقر. (م 105، ص، 56).

ولكن الفولكلور يعتقد بأن الحيوان يولد وفي حوزته أنماط من السلوك ومعارف معقدة. نسمع مثلاً أن الحيوانات تولد وهي تمتلك غريزة تمييز اعدائها الطبيعيين. ويقال لنا إن الفراخ تركض رعبًا حينما

يمرُّ ظلُّ طائرةٍ فوقها! بالرغم من عدم رؤيتها للصقر في حياتها، ونسمع قصصًا عن القردة التي تخاف الأفاعي بالرغم من أنها لم تشاهد أفعى في حياتها. ويقال: إن قردًا وُلِدَ في بيتٍ بعيد عن الغابة كان يرتجف رعبًا لرؤية خرطوم ماء مطاطي، ولكن العالم النفسي يركيس وزوجته اللذين لاحظا سلوك القردة بشكل علمي، واللذين رأيا قردة أكثر من أي شخص يعيش الآن يؤكدان أن هذا الحديث هراء ويصران على أن القرد الذي يخاف الأفاعي قد مرت به تجربة سابقة معها. (3 ،20، ص 157).

ومن الأوهام الأخرى الشائعة ما يعتقده البعض من أن الحيوانات التي تعيش متجمعة ليست سوى أمثلة بديعة للتعاون المتبادل، فيقال لنا أن الكثير من الحيوانات تدرك منافع المشاركة مع رفيق تكتنفه الأزمة أو الثأر لمحبوب اعتديَ عليه، فيقول دا كليش أن الدببة «ترحل عشرات الأميال لتثأر لأطفالها» وتهجم قطعان الفقمة بكاملها لتثأر لأحد أفرادها (م 43، ص 170). (وتستطيع أن تتخيل مدى سرور دب قطبي جائع إذا هاجمه قطيع من الفقمات الغاضبة).

والثأر قريب جدًا من قلوب كاتبي قصص الحيوان، وكل واحد منهم ينافس صاحبه في مدى «فروسية» أبطال قصصه، وفي أسفل درجات الأقاصيص تنحدر مواضيع الحقد الشخصي مثل أسطورة «هنري ولیامسن» عن قرده «تشا كاما» الذي أورد الخنزير الوحشي «فان در ونتر» حتفه لأنه غلبه مرة، وأعلى من ذلك «تام أو شانتر» بطل قصة «ألبرت بيسون تيرهيون»، الذي لم يجازف بحياته فحسب بل بسمعته ليثأر لصديقه،

وأعـلى من ذلك أيضًـا أولئك الذي يفعلـون كل شيء من أجل الحب مثل بطـل قصة «سـيتون»، النائب العظيم لوبو، الذي يموت بقلب كسـير بعد أن انتهت حيـاة حبيبته الذئبة الجميلة بلانكا! ولكن أرفع الحيوانات أمثال «دأب» الـدب و «فـوم» الخنزيـر اللذيـن يوقفان حياتهما للبحـث عن قتلة أميهـما أو الأرنب راكيلـك الذي كافح حتى قتل أرنبًـا تعرض لشرف أمه (حيث نجد مفاهيم أكثر دقة!) (م 160، م 159، م 158).

إنـكار الـذات هذا، يكون أحسـن وقعًا، دون شـك، إذا وجـه ونظم. لذلـك فلا يدهشـنا والحـق يقـــال: إذا وجدنا عددًا كبـيرًا من القصص عـن مجتمعات الحيـوان التي تمتلك حكومـات وقادة بل وحتى جيوشًـا، فيقولـون إن الغربـان وبعـض الحيوانات تضع حراسًـا لتنـذر البقية لدى اقـتراب الخطـر، وإذ يقال إن هؤلاء الحراس يخضعـون للتدريب اليومي، فلا علم لنا إن كانوا يطبقون الخدمة الإلزامية...!! (م 158).

ويعتقـد البعض أن كثـيرًا من الحيوان يمتلك جهاز إشـارات دفاعي، فالقنـدس يـضرب عـلى سـطح المـاء بذيلـه المسـطح ويـدق الأرنب على الأرض برجليـــه الخلفيتين ويـضرب الدراج الهواء بجناحيـه كالطبل... الـخ. ويذهـب البعـض إلى أبعد مـن هذا، فيقولـون: إن بعـض المجاميع تسـتعمل وسـائل خاصة لتبقي حارسـها يقظًـا: فيقول بلني مثـلاً - وقد نقـل عنـه ذلك عدد آخر - إن طيور الكرين تطلب من حراسـها أن يقفوا على رجل واحدة ويمسـكوا بالأخرى حجرًا مرفوعًا عن سطح الماء، فإذا مـا غفا الحارس ارتخت رجله فيسـقط الحجر في الماء محدثًـا صوتًا يوقظه.

ويقول لنا الآخر إن حيوان الأيل يضع حارسًا لا يدع نفسه للراحة إلا إذا تقدم منه أيل آخر وأعطاه ما يقابل كلمة السر لدينا، فيأخذ الحارس الجديد مكانه بشيء من المراسيم العسكرية (م، 5). ويقول البعض إن قردة البابون تذهب أبعد من هذا فتخطط الهجوم وتستعمل الأسلحة والتدريب وتطبق (إذا وثقنا بما تقوله جريدة النيويورك تايمس) كتاب التعليمات العسكرية ولو بشكل غير متكامل! ويقول لنا ألفردس إن قردة البابون حينما تهجم تضع حراسًا للمؤخرة والمقدمة ثم تضع كشافة لحماية الأجنحة، وتقدم الاسعافات الأولية لجرحاها إذا انكسرت، وتتراجع بنظام وهي تحمل جرحاها وقتلاها (م، 5).

إن معطيات هذا الحديث تدلنا على وجود القيادة، والخيال الشعبي كان نشطًا جدًا في تقديم هذه القيادة، ليس ثمة اعتقاد سوقي أكثر رسوخًا من الاعتقاد القائل إن الحيوانات التي تعيش جماعات يسيطر عليها حيوان كبير حكيم. إن الإنسان نفسه حيوان يعيش في جماعة ولكن قادته تعوزهم الحكمة على الأغلب بالرغم من كبرهم في السن، ومع ذلك يعتقد الكثير أن «غرائز» الحيوانات الدنيا تقودها إلى اختيار أحكمها للقيادة دون خطأ، وتقبل قيادته بطاعة تامة، فيقول بلني مثلاً أن المحار له قائد يمتلك قدرة وحدانية على تجنب الخطر ومنعه فإذا قضي عليه تفرقت جماعته أيدي سبأ.

ولكن بالرغم من بلني وكتاباته فليس ثمة اليوم عاطفي يجرؤ على القول بوجود قيادة لدى المحار. ولكن هؤلاء لا يترددون في الحديث عن قادة الحيوانات الأكثر ارتقاء، فالإوز وكلاب البحر والذئاب والماعز

والصرصار النطاط والقردة قسم من الحيوانات التي يقال لنا إنها تخضع لقادة تقدم لها الولاء وتتسلم منها بالمقابل الارشاد والحماية (م 335) ومما يؤسف له، غياب المقادير المشابهة من العلماء الذين درسوا سلوك الحيوان بطريقة موضوعية بعيدة عن التحيز العاطفي، فيقول لنا العالم برادلي إن اللبائن، التي تعيش في جماعات، هي أقل الحيوانات، في الحقيقة، اجتماعية وذكاء وسلوكا أبويًا إذا ما قيست بالقطاع الأعلى من سلم التطوير. أما لوزر، العالم النفسي، فيقول: إن ليس ثمة في عالم الحيوان أي مجتمع صحيح كما نفهمه. إن ما نجده من سلوك جماعي لدى بعض فصائل الحيوان لا يتجاوز الاكتفاء الأناني لا حساسات خاصة، وهذا يعني أنه ليس ثمة سلوك لدى الحيوانات يستهدف معونة فرد آخر لغرض المعونة نفسها، فهذه الحيوانات تسلك سلوكًا متناسقًا ولكنه سلوك أناني في نفس الوقت.

ويقول العالم البايولوجي زوكر من بعدم وجود أي قيادة لدى قردة البابون؛ كما أنه لم يجد أي أثر للتخطيط في هجمات هذه القردة، ثم يرتأ ويقرر إهمال كافة القصص التي تشير إلى وجود عمليات إنقاذ مستهدفة. ويقرر بأن القردة تهرع فعلاً لسماع صرخة رفيق مجروح ولكنها قد تعمد إلى إثخان جراحه كما قد تهرع تساعده أو تهمله. (م 21، م 105 ص 89 – 90 م 209، ص 139).

لا يحتمل أن تؤثر مثل هذه التقارير تأثيرًا كبيرًا على الاعتقاد الشعبي السائد حول وجود التعاون بين الحيوان إذ لا يعود هذا الاعتقاد إلى حقيقة بأيدولوجية أكثر مما يعود إلى سبب أخلاقي صرف. يضفي البشر على

الحيـوان مثلهـم العليا المستحيلة التحقيق، ثم يعذبون أنفسـهم بالخجل، يُقرُعونها بشـعور مـن الخطيئة لاعتقادهم بتفوق الحيـوان عليهم. وهكذا نجـد ان الكثير من العقول تـردد بشيء من اتهامِ الذات بالإثم صدى قول فيبر الشهير «إن الحيوان يقوم بأعماله المنزليـة بشرف».

وقبل خمسـين عامًا كانت البيوت الأميركيـة تعلق على حيطانها صورة مـن الفـولاذ المنحـوت، تمثـل حصانًا يقاتـل ببطولـة قطيعًا مـن الذئاب، وتقـف خلفـه فرس جميلة ومهـر صغير وقد اتسـعت حدقاتهـما، ولكنهما ينظـران بثقـة تامـة إلى الفحـل المدافع عـن حياتيهما - مثال لـرب البيت يحتذى، دون شك. ولكن الشعور بالإثم الذي يكتنف الزوج المهمل وهو ينظـر إلى مثل هذه الصورة لا مـبرر حقيقي له، إذ إن المجهود الجبار الذي تبذلـه فحول مختلف فصائـل المخلوقـات ذات الحافر للدفاع عن قطعانها المسـتضعفة ليس إلا أسـطورة نبيلة! ولا سـيما الخيول، كما يبدو، ففحولها تهرع هاربة لدى أية إشـارة يظهر فيها الخطر! يقول «ألي»، في كتابه، الحياة الاجتماعية للحيـوان، إن ذكور الخيل تهرب من وجه الخطر تاركة وراءها الإناث ثم تعود إليها بعد ذهاب الخطر! ثم يستنتج في نهاية كتابه أن ذكور دودة الأرضة، هي الحيوانات الوحيدة التي تقوم بواجباتها المنزلية بشـكل مشرف، ولكن... من يعلق في غرفة اسـتقباله صورة لدودة الأرضة وهي تقوم بواجباتها المنزلية؟ (م 9 ص 260 - 261).

وإذا محصنـا ودققنـا في حيـاة القـادة في الأسـاطير للفصائل الأخرى من الحيوان... فإننا سـوف لا نجد صورة أكثـر بهاء مما مضى الحديث عنه

فتتأخر الثيران إلى الخلف حينما تهاجم الذئاب القطيع بحيث تكشف أنفسها للخطر وتصبح أول الضحايا... ولكن لا اختيار لها في الموضوع إذ أنها لا تستطيع الركض بسرعة بقية القطيع فتتأخر عنه.

لربما لا يوجد من يستطيع إخراج القائد الفحل، الحكيم المسن، من علم الحيوان الشعبي لسبب تافه مثل كون علماء الطبيعة لم يستطيعوا حتى الآن تشخيصه من بين صفوف الحيوان! إن استمرار وجوده كأسطورة تسنده أسطورة أكبر ألا وهي تفوق ذكور الإنسان على إناثه! نعم إننا نضحك ونستمرئ الفكاهات عن المرأة المتفوقة المسيطرة على زوجها ولكن لبُّ الفكاهة يكمن في أننا «نعلم» أن الرجل هو الأقوى والأحكم.

هكذا يقول علم الحيوان الشعبي. ولكن علم الحيوان بشكله العلمي لا يحمل مثل هذه المفاهيم. وفي الحقيقة، إذا أحصينا فصائل الحيوان وحددنا المسيطر منها ذكورًا أو إناثًا وجدنا أن الإناث هي المسيطرة في أغلب الأحيان، إننا نجد أن ذكور اللبائن وبعض أنواع الطيور هي المسيطرة فعلاً، ولكن بين الأسماك والزواحف نجد الذكور تخضع لمختلف أنواع الإهانات، فإناث فرس البحر وإناث ضفادع شيلي تضع بيوضها داخل الذكر وتجعله يعاني مشاكل الحمل، كما أن معظم فصائل السمك التي تعنى بصغارها، يقوم فيها الذكر بهذه المهمة. (م 5، م 20، م 126).

أمَّا في عالم الحشرات (وهي أكثر الحيوانات عددًا على سطح البسيطة إن كنت لا تعلم) فإن الحالة تدعو للقلق فعلاً، ففي حياة النمل والنحل والدبابير نجد «الذكور ليست سوى حادثة في حياة الإناث» حسب تعبير

العـالم هويلـر في كتابه الحيـاة الاجتماعية لدى الحـشرات، فإناث العناكب تكفي جوعها الناجم عن النشاط الجنسي بأن تلتهم أزواجها، ولدى أنواع أخـرى من الحـشرات نجد أن التلقيـح الذاتي قـد وجـه إلى الذكور لطمة يعتـبر الافتراس بالقياس إليها مديحًا، إذ لا حاجـة للإناث بالذكور إلا في فترات قصيرة كل سلسلة من الأجيال! (م، 192).

مثـل هـذه الأمور يمكـن صرف النظر عنهـا لأنها «فلتـات في الطبيعة طبعًـا». ولكن ما يقلق فعـلاً هو نتائج البحـوث البيولوجية التي أجريت في علم الأجنة (علم دراسة الجنين وتطوره قبل الولادة) علاوة على نتائج الإحصائيات البشرية التي تراكمت مؤخرًا. إن هذه النتائج ترينا بوضوح مـؤلم لا يقبل الشـك والجـدل أن ذكور البـشر في الواقع أضعف بيولوجيا من الإناث. إن نسـبة عالية جدًا من حالات الإجهاض يكون الجنين فيها ذكـرًا بالرغـم من أن عـدد الذكور الذين يموتون خلال السـنة الأولى من حياتهـم يزيـد على الإناث بمقـدار الثلث، وهكذا يسـتمر الحال في زيادة نسـبة وفيات الذكـور على وفيات الإناث في جميع مراحـل الحياة البشرية. وعندمـا يبلغ الذكور والإناث مرحلة النضج تكون الإناث أكثر عددًا من الذكور حتى تصل النسبة في مرحلة الشيخوخة أنثيين لكل ذكر (م 154).

ولحـد الآن لا نعلـم المسـببات، وربما كان الأمر يعـود إلى حقيقة زيادة جينـات (حاملات الصفات الوراثية) الإناث على الذكور، وهذا يعني أن الذكور اناث ناقصة التكوين. وإن كان الأمر كذلك فهذا دون شك قلب للفرضية القديمة التي تقول: إن الإناث ذكور ناقصة التكوين!

إن الضربة التي وجهتها هذه البحوث لاعتزاز الرجل بنفسه لم تكن لتؤثر كثيرًا لو لم تسندها ضربة أخرى وجهتها بحوث تختلف عما سبق ذكره ولأسطورة أخرى لها نفس القدسية وتلك هي «عاطفة الامومة».

إن الكثير من الفقريات تظهر -دون شك- تعلقًا كبيرًا بصغارها ولكن ما نقضته البحوث هو «غريزية» هذا السلوك أو ثباته وعدم تغيره. ولاسيما الاعتقاد القائل: إن الأمومة لدى الحيوان تتميز بنفس الخصائص الانفعالية لدى الإنسان!

إننا نعلم، طبعًا، أن لكل قاعدة شواذ حتى ولو كانت القاعدة بيولوجية وذات قدسية كبيرة. فصيادو الكنغر يعلمون أن الأم كثيرًا ما تلقي بأطفالها من الكيس الذي تحتفظ فيه عندما تهرب من خطر محدق، ومشهور عن إناث الخنازير أنها تفترس صغارها، ولكن مثل هذا «الشذوذ» حينما لا يحكم عليه بأنه غير طبيعي فإنه يصرف على أساس أنه عاطفة متدفقة، ويرى البعض الآخر فيه أبعد من ذلك فيقول: إنه عمل نبيل أو ضرورة بطولية (م 43؛ م 209، م 105).

يقول سيتن إن إحدى إناث الثعلب قدمت لابنها الصغير طعامًا مسموما حينما وقع في مصيدة لأن الموت خير من الحياة في الأسر، وتؤكد جريدة شيكاغو سن لقرائها بأن اللبوة في حديقة الحيوان تأكل أشبالها لكيلا يشبوا في الأسر والعبودية، وبعد أسبوعين كتبت مجلة لايف عن لبوة افترست أحد اشبالها معلقة على الموضوع بأنه عمل كان يتصف بالرحمة وقد قامت به اللبوة وعيناها مغرور قتان بالدموع، إذ اكتشفت وجود نقص في أحد أشدائها.

وبالرغم ما تبدو عليه هذه التعليلات من الاعوجاج حينما تصرف على سلوك اللبائن فإنها تبدو أكثر اعوجاجًا حينما تطبق على الحيوانات الأوطأ من اللبائن. إن إناث السمك تلتهم بيوضها بكثرة ولكن حتى مجلة لايف لا تستطيع أن تنكر بأنَّ سبب ذلك هو إعجابها بطعم الكافيار والبطارخ بدلاً من إصرار الأم الحنون على ألَّا يصبح صغارها مسقوفًا لذيذًا أو فرجة للعالمين في جرار السمك، وإذا نظرنا أسفل من ذلك في سلم التطور يصبح الموضوع على جانب كبير من السخف، إذ حتى الأساطير الشعبية ترى أن انكار الذات محصور على الفقريات.

ولا يمكن أنْ تروى القصص عن صرصار أو مردان يضحي بنفسه من أجل أطفاله. ولكن هناك قاصُّون حاولوا اكتشاف حبِّ الأم في هذه الأعماق!

ويشيرون بذلك إلى بعض الخنافس والعناكب التي تحضر أمورًا معقدة بانتظار صغارها ولكنهم يهملون الحقيقة الأخرى وهي أن هذه الحشرات تموت قبل أن تفقس البيوض وبذلك يكون سلوكها موجهًا لغرض أناني. فمن المعروف علميًا أن النمل يلعق بيوضه بعناية ويهرع بها بفزع إذا ما الخطب دهم، لكن بيوض الحشرات تفرز عصيرًا لذيذًا والنمل يعني بيوض حشرة طفيلية «Lomechusa Strumosa» لنفس السبب وحينما تنمو هذه الحشرة تفترس بيوض النمل ذاته وتسطو على طعامه (م 192).

الفصل الثاني:

الطيور في أعشاشها الصغيرة

إن العاطفي الذي تفل عزيمته عادات الحشرات قد يجدد إيمانه بقدسية الفضائل البيتية عن طريق تأمل حياة الطيور السعيدة، بشرط عدم تأمل هذه الحياة بعمق.

إذ بين الطيور يجد العاطفي ضالته المنشودة، فكثيرًا ما بطنت الطيور أعشاشها بالريش الناعم المنتزع من صدورها حتى أصبح العش مرادفًا لمسكن الحب، وجمال البيوض الصغيرة، والفراخ الضعيفة الصغيرة والأم الحنون، كل هذا جعل من العشِّ مثالاً للحياة العائلية الهانئة ووحيًا لإلهام البشر في كل مكان وزمان.

ولا سيما حنان الأم. إن الزوج قد يعاونها بفروسية لكن للأم القدح المعلى دون شك، فالصبر الذي يتطلبه الجلوس على البيض حتى يفقس وعملها الدؤوب في ملء المناقير المفتوحة أمامها باستمرار، والشجاعة التي تبديها في الذود عن عشها السعيد تجعلها تتصدر قائمة الحيوانات التي تبدي الأمومة، وهي تستحق هذا الشرف بالتأكيد، ولكن البحثَ العلمي وضع علامة استفهام كبيرة حول أي تفسير انفعالي لسلوك إناث الطيور.

فيدلّنا البحث العلمي على أن هذه الطيور لا تجلسُ بصبرٍ جميل على البيوض وهي تنتظر الحدث المبارك، بل لتحصل على شعور مهدئ بأن تلصق صدرها على سطح ناعم بارد نوعًا ما، إذ يتكون نتيجة لإفرازات الهورمونات التي تحدث للدجاجة حين موسم «التكريك» في جلد صدرها، التهاب ذو درجة واطئة يبدو أنه غير مريح، وهذا الألم أو

عـلى الأصح الرغبة في التخلص من الألم يكون الدافع الأسـاسي لجلوس الدجاجـة عـلى البيض، وفي تلـك الفصائل مـن الطيور التـي يجلس فيها الذكر على البيوض أيضًا نجد أنه يعاني من المشكلة نفسها، وهكذا نجد أنَّ تدافع الذكر مع الأنثى من أجل الجلوس على البيوض لدى بعض فصائل الطيور ليس عملاً فروسـيًا كما تصوره الأسـاطير، بـل تدافعًا على تخفيف آلام التهاب بسط!

وازديـاد حرارة الصدر لدى الدجاجة يعطي البيوض الدرجة اللازمة مـن الحرارة للتفريـخ، وإذا أردت التأكد من ذلك فمـا عليك إلا أن تضع صدر الدجاجة في موسـم التفريخ في إناء مـاء بارد لفترة قصيرة حتى تجد أن رغبتهـا في الجلوس على البيض تختفي مؤقتًا، وإذا رفعت درجة حرارة البيـوض بحيث تصبح مسـاوية لدرجة حـرارة صدر الأم تجـد أنها تترك البيوض!

وكل مـن عمـل في تربية الطيـور يعلم أنها لا تتعلـق ببيضها، ولا مانع لديهـا مـن الجلوس على بيوض مـن خزف أو حتى عـلى مقابض الأبواب الكروية الشـكل. ويجدر القول: إن الدجاج يلقي من عشه البيضة الغريبة ان وجـدت بـين بيوضـه حيث يفـسر العاطفي ذلـك على أسـاس الولاء للعائلة.

ولكن الأسـتاذ جوهان لوزر يرى أن السـبب في القـاء البيضة الغريبة لا يعـود إلى كونهـا غريبة عنه بـل لأنها لا تسـاوي بقيـة البيوض حجمًا مما يعرقل تجانس السطح الذي تجلس عليه. لذلك فقد عمد الأستاذ جوهان

لـوزر إلى رفـع أربعـة من خمس بيضـات لدجاجـة ووضع أربـع بيضات متجانسـة من نوع آخر مع بيضة الدجاجة المتبقيـة، حيث القت الدجاجة الأم بيضتهـا هـي خـارج العـش! ولذلك نجـد أن الدجاجة قـد تفقس بيوض البـط كمجموعـة أو بيوض الدراج... إلـخ ولكنها لا تجلس على مجموعة غير متجانسة من البيوض. (م 105، ص 37).

أمـا عدالـة الطيـور في إطعـام فراخهـا فقـد ثبت أيضًـا أنها اسـتجابة أوتوماتيكية وليسـت نتيجة لحكمة الأم وإنكار الذات. إذ يبدو أن الطيور تسـتجيب لسـبب كيميائي أو فيزيولوجي لأصوات زقزقة الفراخ ومنظر المنقـــار المفتـوح بلونـه الصارخ مـن الداخـــل وبتحديـده الواضح على الجوانـب ولقـد اكتشـف العلـماء أن الفـرخ إذا أغلق منقاره، فـإن الأم لا تحـاول إطعامـه أو فتح منقـاره كـما أن الملاحظات تشـير إلى أن الأم تقوم بإطعام فراخ طيور من نوع آخر في عشٍ آخر غير عشها فيما إذا قدم هؤلاء الفراخ منقارًا مفتوحًا وزقزقة مناسبة (م 105، ص 114).

واسـتجابة الأم في إطعام الصغار تتناسـب تناسـبًا طرديًـا مع الضجة التي يفتعلها الفرخ الصغير.

وقد شـاهد ملاحظو حيـاة الطيور الترتيـب الصارم الـذي تتبعه الأم في إطعـام صغارهـا. فوجـد الأخلاقيـون في ذلـك رفضًـا للمناضلة بين صغـــار البشر إذ تولد الانقسـام بينهـم، ولكن لوزر يؤكد أن الطيور لا تعلم ما هو عدد فراخها ولا تعلم ما أطعم منها وما لم يطعم. ولكن عدالة الأم في الإطعـام أمـر لا مفر منه. ويشرح لوزر الأمـر كما يلي: تقترب الأم

مـن العُشِّ عادة من جهة معينة، وأول فرخ يقابلها يحظى بالطعام، بالرغم مـن أن كل الفـراخ تفتح مناقيرها بتوسـل محموم، والـذي حظي بالطعام يتوجب عليه أن يتخلى لا عن حكمة - بل لأن الضغط من الجانبين يجبره على ذلك - فيرفع مؤخرته على حافة العشِّ فيحتل مكانه فرخ آخر يصبح أول مـن يلاقـي الأم والطعـام... وهكـذا الذي أطعـم أولاً في آخر الخط الدائـري المتحـرك باتجاه الطعام. نظام بديع حقـًا، وبالرغم من أن أسسـه تعتمـد عـلى العادة والطمع والمدافعـة والرغبة بالإبراز فإنـه ربما كان أكثر عملية من الشعور الأبوي بالعدالة (م 105 ص 118).

وهـؤلاء الذين يجدون التفسـيرات الميكانيكية للعالم منفرة سـيقولون -دون شـك- إذا كان الأسـتاذ لـوزر محقًـا في تفسـيراته فإنه قد اسـتنزف الكون وعذوبته وجعل مجموع الأشياء ميتـًا لا روح فيه.

ولكن هؤلاء البشر ينسـون (أو عـلى الأكثر لا يرغبون بالاعتراف) أنَّ الكثـير من مجموع الأشـياء هـو في الواقع قـاسٍ وقبيـح إذا قيسَ بمقياس العذوبـة والجمال الذي يسـتعملونه. وهكـذا فإن التفسـيرات الميكانيكية لأشياء تقلل من قبح وقساوة الكون كما تقلل من جماله وعذوبته.

وهكذا إذا كان الأسـتاذ لوزر قد دمر أسطورة جميلة عن الحب الأبوي بتفسـيره هـذا فإنـه قد دمر في الوقت نفسـه أسـطورة قبيحة عـن طـيـر الكوكـو (Cuckoo) الـذي يرمـي صغـار الطيـور التـي يعيـش معها من أعشاشها. (يضع طير الكوكو بيوضه في أعشاش طيور أخرى فتقوم تلك الطيور بتربية صغار الكوكو).

إن الأخلاقيين منذ قرون وللآن يهزهم إنكار الجميل الفظيع الذي يبديه صغار الكوكو، فكيف يجازي أي طفل متبنى أبويه بالتبني بأن يلقي أطفالهم من العش، ولأخس الأغراض الأنانية ألا وهو الاستئثار بعطفِ الأبوين وعنايتهم دون إخوته بالتبني؟ ولكن لوزر يرينا بأن الأمر ليس كما ترويه الأساطير، فإن الطير يرمي فعلاً إخوته بالتبني (العصافير) خارج العشِّ، ولكن سبب ذلك ليس سوء نية من جانبه بل استجابةً لحالةٍ جلدية طارئة.

فيقول لوزر: إن طير الكوكو الصغير يولد أعمى وعاريًا تمامًا، ويمتلك خلال الأيام الأولى من ولادته متسلمات جلدية على ظهره وجانبيه بنسبة تفوق كثيرًا مثيلاتها لدى بقية الطيور، ولمس هذه المتسلمات يؤدي إلى استجابة عنيفة لديه كما لو وخز بإبر محمية، فيقوس ظهره ويحرث في العش محاولاً الابتعاد عما يلمسه، وبما أن فراخ الكوكو أكبر حجمًا من فراخ العصافير فهي التي تكون في الوسط. وبحركتها هذه تبعد أشقاءها إلى الخارج نحو حافة العش حتى تسقط وراءه! وهكذا نجد أن الكوكو المسكين لم يخطط مسبقًا لمثل هذا الأمر وبالرغم مما يبدو في نتائج هذا الأمر من إنكار للجميل فالكوكو غير مسؤول عنه ولا يمكن استعمال هذا الأمر ضده. (م 105 ص 128).

ونكران الكوكو للجميل يبدو منفرًا للناس لأنهم يعتقدون أن العش هو مسكن يسوده الرخاء والسعادة والانسجام لولا حوادث شاذة كالتي ورد ذكرها.

وهناك خطآن فاضحان في هـذا الاعتقاد، فبالرغم من قصص الصغار والأفلام المتحركة، فإن الأعشـاش ليست مسـاكن بل هي أمكنة للتفريخ ومهود، إذ تعيش الطيور عادة على بعد غير قليل عن عشـها، وفي شـجرة أخرى حتى في أثناء موسـم التفريـخ، وهكذا فإنَّ الرجال الذين يعاركون زوجاتهم لا يحتاجون أن يطأطئوا رؤوسهم خجلاً لدى مقارنتهم لحياتهم بحيـاة الطيور فلدى الطيور ترتيب للنقر خاص وصفه شـليدر آب؛ وهو نظـام هرمي الترتيب سـداه القوة ولحمته العنف، في قمتـه أقوى الطيور وفي قاعدته أضعفها. (م 9 ص 176 – 184).

إن الجمهـور يعتقـد أنَّ للطيور مواهب غيبية خاصـة. وبالرغم من أن الخرافات حول البوم والغربان قد تلاشت نوعًا ما على الأقل بين المثقفين، فـإن الخرافات حـول الطيور الأخرى لا تزال سـائدة فالكثـير من الناس يعتقـد أنّ الطيـور مـا هي إلا بارومـترات حيـة، وبأفعالها تسـتطيع التنبؤ الجوي، وأشـمل من هذا الاعتقاد السـائد بأن الطيور المهاجرة تقودها في طيرانهـا غريزة غيبية عجيبة، ولكن العـالم كاورد يؤكد لنا بأن تنبؤ الطيور بالأحـوال الجوية ينقصه عدا الكثير من المعلومات الأخرى طيران مجاميع من الطيور في أحوال جوية تؤدي إلى هلاكها. (م 40، ص 84).

أمّا الاعتقاد السائد حول الحاسة الغريبة التي تجد فيها الطيور المهاجرة طريقها فكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن هناك الكثير مما ينقض هـذا الاعتقاد، وقليل يسـنده، فليس هناك من الحقائق المعروفة حول هذا الموضـوع إلا القليـل، ولكن المعلومـات والحقائق التي بـدأت تتجمع في

الآونة الأخيرة عن طريق البحث العلمي الشاق الطويل تشير إلى أن هجرة الطيور تقودها معالم خاصة من الخصائص الجغرافية. حتى اعتقد ستفانس أن الطيور تهاجر بناء على ذكرياتها من الخط البحري - البري (الخط الساحلي القطبي). وقد لاحظ كاورد نفس الشيء بالنسبة لطيور (السنونو). وعلاوة على ذلك فإننا نجد أن الطيور الصغيرة التي تضِلُّ طريقها أكثر بكثير مما هو معتقد. (م 150 ص 84، م 174، م 40، ص 365).

للطيور بدون شك قوة تستحق الذكر لتعيين الاتجاه ولكن ليس ثمة دليل يثبت أن هذه القوة تختلف اختلافًا نوعيًا عما هو موجود لدى بقية الحيوانات الأخرى. فالحمام الزاجل يشار اليه على أنه دليل قاطع لا يقبل المناقشة على غريزة تعيين الاتجاه الغيبية لدى الطيور كافة «فالكل» يعلم أنك تستطيع أن تأخذ حمامة زاجلة في قفص مقفل لمئات الأميال بل ألوفها ثم تطلقها من عقالها لتطير وتدور في الجو دورتين أو ثلاث ثم تعود إلى بيتها. وهي تطير فوق أراضٍ لم ترها من قبل.

ويعرف هذا «الجميع» عدا مدرّبي الحمام الزاجل، إن هؤلاء الذين يقضون حياتهم وهم يدربون الحمام الزاجل يؤكدون بأن هذه الطيور يجب أن تعلم أن تطير إلى أقفاصها بأطلاقها من مسافات قصيرة تبدأ بما لا يزيد على العشرة أقدام، وبتكرار هذه العملية وزيادة المسافات وإطعامها لدى كل عودة (وتقترف هذه الطيور عددًا كبيرًا من الأخطاء)، كما يؤكدون بأنك إذا أخذت الطيور هذه بعيدًا عن أي جزء مرئي من معالم الطريق

فمن الواجب ألَّا تتوقع عودتها مما يؤكد أقوال العلماء في أن الطيور تقودها ذاكـرة بصريـة؛ كما هو الحـال في معظـم الحيوانات الأخرى، هذا وتشـير الدراسـات إلى أن هـذه الذاكرة القوية تختلف بين أفـراد النوع الواحد كما أمكن إنتاج أفراد ذوي ذاكرة قوية بتحسين النسل.

ولعل جهاز الإشارات لجيش المشاة الأمريكي هو أكبر منظمة في العالم لتدريـب وانتـاج الحمام الزاجـل؛ وهذه الدائرة لا تأمـل برجوع أي حمامة من حمامها الزاجل على مسـافة تزيد على الخمسة والعشرين ميلاً. هذا بعد تدريب دقيق ومضن. (م 150 ص 81؛ م 273، ص 14؛ م 224 ص 1).

أمـا النحـل والدبور فهي لا تترك خليتها بعيـدًا إلا بعد أن تدور حول هـذه الخليـة مـرات (م 192). وهنـاك رابطـة أخـرى غيبيـة بـين الطيور والعـالم الغيبي بالنسـبة للجمهور فهم يعتقـدون أن الديكة تصيح بانتظام زمـــــنـي دقيـق. فقسـم يعتقد انها تصبح كل سـاعة وقسـم يعتقد أنها تصبح كل عشرين دقيقة وقسم يعتقد أنها تتبع اختلافات الزمن في المناطق المختلفـة. مـع أنَّ الكثير مـن البشر لا يعرف بوجـود اختلافات زمنية بين مدينـة وأخرى. وهكذا نجد أن للديكة إمكانيات ومعلومات أوسـع من تلك التي لدى البشر!

ويعتقد البعض أن الطاووس يخجل خجلاً فظيعًا من رجليه القبيحتين فهـو ينزل ذيله الجميل انكسـارًا ومذلة حين رؤيتهـا إن الواقعة صحيحة ولكـن التعليـل ملـون حتـمًا» بالرغبـة القديمـة في اسـتخلاص القوانين الخلقيـة من سـلوك الحيـوان، إن الطـاووس يجب عليه أن يرفع رأسـه إلى

أعلى لكي ينشر ذيله وحينما ينخفض رأسه إلى أسفل ينخفض ذيله بصورة اوتوماتيكية وهذه الظاهرة تظهر بشكل أقل في الديك الرومي، إما أن نعلل ذلك بالكرامة المجروحة فذلك خيال محض (م 19، ص 212).

ولكن أغرب الأساطير هي التي نسمعها عن النعامة التي تدفن رأسها في الرمال حين اقتراب الخطر. إن هذه الأسطورة قد تخلفت عن أساطير أبي الهول وغيرها الكثير، إن النساء والرجال قد يستطيعون أن يعيشوا بدون ريش النعام ولكن كيف يعيش الواعظون السياسيون والمتنبؤن دون مثال النعام الخرافي...؟

الفصل الثالث:

ذوات الفراء

لو حاولنا تعداد الأخطاء الشائعة عن ذوات الأربع فحسب لملأنا مجلدات ضخمة، إذ أدرك الإنسان منذ فجر التاريخ أن ذوات الأربع تشبهه شبهًا كبيرًا فاجتاحت الأساطير عنها فكره بشكل لا مثيل له، أمّا إذا درسنا مجمل ملاحظاته وانطباعاته التي كونها عن هذه الحيوانات، فسنجد أنها لا تشكل مديحًا لقدرته على الملاحظة الموضوعية.

وقد يعتقد البعض أن الصلة الوثيقة بين حيوان معين والبشر تؤثر في فهمه له فتقل الأوهام عنه. ولكن الأمر ليس كذلك.

هناك القليل من الحيوانات التي تتمتع بصلة مع الإنسان أقوى من صلة الكلاب به، ولكنها بالرغم من ذلك تتمتع بأوفر نصيب من الأوهام والأساطير، ولربما كان ذلك بسبب حاسة الشم القوية لدى الكلاب، إن الإنسان يعتمد بالدرجة الأولى على حاسة الأبصار فلذلك يصعب علينا إدراك ماهية السلوك المعتمد على حاسة الشم بالدرجة الأولى، ولذلك لا تمر أمسية مع عائلة ذات علاقة بالكلاب بأي شكل من الأشكال وإلا ونسمع عن قدرات الكلاب الخارقة.

أمّا إذا بذلت أي مجهود، مهما كان تافهًا لاختبار القصص التي تسرد على مسمعيك، أو إذا أبديت الشك فيها فإنك ستثير الكثير من الجدل والكراهية والنفور.

بناء على هذه الأوهام للكلاب قدرة على التنبؤ بالكوارث، وشعور غريزي باقتراب الموت، حتى لو كان الموت يتعلق بشخص بعيد غاية البعد.

تعـاليها واسـتقلالها وعاداتها في النوم، والتباين الشاسـع بين ما تظهر من الوداعة وما تبطن من الشراسة.

وغالبًا ما تقمصت الشـياطين شـكل القطط، ولكل سـاحرة شـمطاء رفيـق دائم يرضع من ثديها ويطير معها في جولاتها في الليل البهيم ويكره الكثـير مـن البشر القطط. وهو شـعور غامض بالنسـبة للبعض والبعض الآخـر لا يطيـق وجودهـا. ويـدرك وجودهـا في الغرفـة وإن لم يرها، كما يعتقـد البعـض أن القطـط تجلب سـوء الحظ وخاصـة القطط السـود... وهكـذا دواليـك (م 62 ص 149 – 151). وإذا الححـت عليهـم بطلـب تفسـير لمثل هذا الموقف ضد القطط قيل لك أنها «تمتص أنفاس الأطفال» ثـم يبدؤون بـسرد القصص المروعة عـما يدعون، فيما عـدا هذه القصص ليس ثمة دليل واحد يؤيد ذلك، وبالرغم من أن بعض القطط قد جثمت أو نامـت على وجه طفل على سـبيـل الصدفة الأمـر الذي قد يودي بحياة الطفل عن طريق الاختناق فإن هذا التعليل ليس حتى بتشـويه لمثل هـذه الحـوادث، إنه امتـداد لخرافات مصاصي الدماء وما شـابه. هـــذا علاوة على خوف الإنسـان من الحيوانات التي تحتفظ بشيء من استقلالها بالرغم من صغرها، وارادتها في الدفاع عن نفسها لدى أي اعتداء عليها.

وهنالك المعتقدات التي تخص بعض الحيوانات الأليفة لا بد من المرور عليها ولو سريعًا.

يعتقـد النـاس أن الثيران تغضب لرؤيـة اللون الأحمر اعتقادًا راسـخًا يصعـب اقتلاعـه أو حتى مناقشـته، ولكن علـماء النفس أثبتوا بشـكل لا

يدعـو إلى الشـك أن الثيران مصابة بعمى الألـوان. والطريف في الأمر أن مصارعـي الثيـران يعترفون بأنَّ ما يثير الثـور هـو حركة القماش لا لونه (1932 ص 137، م 59 ص 129).

والفئـران حيوانـات بيتية وإن لم تكـن أليفة، مصدر خوف شـامـل، ولموجبـات جيـدة، ولكنها لسـبب مـا لم تصبح مصـدر إلهـام في الأوهام الشـائعة فيما عدا الوهـم في أنها تهجر السـفن الموشِكة على الغرق. فالمعتقد أن الفـأر يمتلـك «حاسـة غريزية» تستشـف الكوارث وتدفعـه إلى طلب النجـاة بدنـاءة وفي الوقت المناسـب، أمَّا مـا يفعله الجرذ فعـلاً فليس مهما بالنسبة للعامة ولكن الفـأر الكنائي يهرب من السفن المشرفة على الغرفة.

ولقـد حاول بعـض المفكرين، الذيـن يعتقدون أن لا بّـد للمعتقدات الشـائعة من جذور في الحقيقة والواقع أنْ يحللوا نشوء هذا المعتقد فقالوا: إن سـبب هروب الفئران من السـفن لا بد أن يكون ناشئًا في الأساس عن تشـقق السـفن القديمة بحيث يتسرب الماء إلى أعشاشِ الفئران ومساكنها فتظهـر الفئران على السـطح، ولكن خـاب فألهم. فالجمهـور لا يريد فأرًا تعيسًـا مهجوم الدار، بل فارًا خسيسًـا يستشـف الغيب، إذ حتى المثاليين من البشر يهجر السفينة حينما يبدو أنها ستغرق. ولكن الفأر الكنائي يهجر السفينة المشرفة على الغرق بالرغم من أنها تبدو صالحة للإبحار... ولكنها ستلقى مصيرًا مفجعًا لا يدل على حدوثه سوى هرب الفأر.

وهـذا المعتقد، هـو خير مثال على ما يمكن أن يؤكـد بثقة تامة لانعدام وسائل إثبات عكسه، إذ لكي نستطيع أن نثبت عكسه علينا أن نعمل على اسـتخلاص ما لا يُحصى من السـفن الغارقة من البحر ثم ندرسـها لنثبت

صلاحيتها للأبحار ثم نبحث في كل منها عن بقايا الفئران التي غرقت فيها إن وجدت.

ولكن بما أن الفرض لا يستحق الجهد المبذول... فأنت تستطيع دون خشية من معارضة أن تصر على أن الفأر يهجر السفن الغارقة... وتستمر في هذا الإصرار.

والمعتقد أن الثعلب ماكر خداع وحكيم فيما يخص مصالحه بشكل يدعو الي الإعجاب، ويصور الثعلب في الأدب الشعبي بأنه متمكن من خداع صياديه، فهو ينفخ نفسه وكأنه قد مات ثم يهرب ويسير عكس اتجاه الماء في السواقي الجارية لكي يحتال على الكلاب التي تقتفي أثره، ويركب ظهور الأغنام لنفس الغرض، ويؤكد لنا أحد الكتاب أن الثعلب يجري على سكة الحديد تمامًا قبل أن يمر القطار لكي يدمر القطار آثار رائحته ولاحتمال دهس القطار للكلاب التي تقتفيه، أمَّا المصدر الذي حصل منه هذا الثعلب على نسخة من جداول مرور القطارات فلا يذكره الكاتب لنا مع الأسف (م 158).

وهذا الكاتب لا يحصر خداع الثعلب على كلاب الصيد ومساعديها (الصيادين)، فهو يخبرنا أن بعض الثعالب تحمل الطعم المسموم الذي يترك لها وتضعه في جحور الحيوانات الأخرى التي أساءت إليها، ولقد كتبت مجلة أمريكية مؤخرًا عن ثعلب تخلص من البراغيث بطريقة مبتكرة. إذ تراجع في بركة ماء وقد أمسك بفمه بقطعة من الصوف، فالبراغيث تخلصًا من الغرق تجمعت كلها في قطعة الصوف.

وما إن غمر الماء الشعب حتى ترك قطعة الصوف تطفو وبذلك افترق عن «معذبيه الصغار».

وهـؤلاء الذيـن لا يسـتطيعون الحصـول على هـذا العدد مـن المجلة، يسـتطيعون أن يجـدوا هذه القصـة في Speculum Mumdi لجون سـوان عـام (1643) (م 179 ص 443) وهـو يقول إنه اسـتقاها من Historica لاو لاوس ماكس عام (1555) واو لاوس لا يخبرنا من أين استقاها!

والذئاب تظهر بشكل أوسع من غيرهـا في الأدب الشعبي، وصورتها عـلى العموم أكثر الحيوانات الغير أليفة تشـويهًا في هـذا الأدب، وفي مخيلة هـذا الأدب تتجمع الذئاب بقطعان تحت قيادة ذئب كبير حكيم أشـهب اللـون عادة، وهي متوحشـة وتأكل لحوم البشر وتتعـاون لنصب الكمائن وشن الهجمات، وحين تريد أن تخفي عددها تسير بصف واحـد يقتفي فيه كل ذئـب موقع مخلب الذي قبلـه وهي تحب لحم البشر حبًا جمـًا وخاصة لحم العرائس، وتحاصر القرى وتهاجم المدن التي تزيد نفوسها عن مليون نسـمة، وتهاجـم القطعات العسـكرية وتعتلي القطـارات السريعة، ولعل مسـافري القطب قـد تفوقـوا عليها بامتطاء متن الجـو، ولكنها مع ذلك تتجمـع لـدى رؤية الطائـرة ثم تركض وتقفـز تحتهـا. (م 32؛ م 248 ص 521؛ م 174 ص 178).

وهناك خصائـص أخرى «معروفة»: فهي تعـوي في أوقات معينة من الليل وتشـع عيونها ضوءًا يجعلها ترى في الظلام الدامس، وبعضها يتبنى صغار البشر وخاصة تلك التي في الهند!! (أنظر فصل خمسة)

هـذه هي صـورة الذئب في الأدب الشـعبي اليـوم، ولعلنا نجد بعض الراحة في أن هذه الصورة أقل إرعابًا مما كانت عليه في الماضي، إذ إن نظرة واحدة منها كانت تفقد الانسان نطقه، كما كانت تتمثل بزي الآدميين لكي تباغت ضحاياهـا ولكن الزمن خفض هذه الأوهام، وبقي منها ما يرعب على أي حال.

لعل أعنف صدمة يتلقاها قارئ المجلات تظهر في اكتشافه أن الذئاب لا تتجمـع بقطعـان، إنه مسـتعد الاعتراف بـأن الكثير مـن القصص عن الذئـاب مختلق ولكن من لم يسـمع «بقطعان الذئاب؟» لعله من الأسـهل القـول: بأن الخراف لا تتجمـع بقطعـان. إن ستفانسـن الذي رأى ألوف الذئاب في حالتها الطبيعية يؤكد أنه لم ير في حياته قطيعا من الذئاب، بمعنى أنـه لم يـر مجموعة من الذئاب تزيد عن الأب والأم وصغارها، ولقد سّـلى نفسـه لعدد من السـنين بتعقب كل الأخبار عن قطعان الذئاب التي سمع بهـا ولم يتحقـق أي منها، وهو مقتنـع تمـام الاقتنـاع أن «قطعان الذئاب» خطأ شـائع، ويشـاركه في هذا الاقتناع الدكتور نلسن رئيس مكتب المسح البيولوجـي في الولايات المتحدة، الذي شـاركه في هـذا البحث. (م 174 ص 164، م 175 ص 334).

وكذلـك الأمـر في كل القصـص التـي تـروي مهاجمة الذئـاب للبشر صغارهـم وكبارهـم، عرائسـهم وعرسـانهم ومدعويهـم، صياديهـم وجنودهـم... إلـخ. ليـس هناك حـادث مسـجل واحد أكيد عـلى أن أي إنسـان قد تعرض لهجوم ذئب أو قد تم افتراسـه، ولقد قام مكتب المسـح

البيولوجي في الولايات المتحدة بالبحث في كل خبر نشر أو وصل إليه عن إنسان قتلته الذئاب في الولايات المتحدة وكندا ولقد توصل إلى النتيجة التالية «دون أي استثناء ثبت إنها مختلفة»، إن الذئاب مثل بقية الحيوانات المشابهة لها كثيرة الفضول فعلاً، ولكنها غاية في الحذر، ولقد كتب السيد اكسل نيلسون Axel Neilsen وهو تاجر فراء قضى 15 سنة في شمالي كندا وكانت له تجارب واسعة مع الذئاب حول قصة نشرتها مجلة التايم. فيقول: «طوال خبرتي، ومن خلال محادثاتي مع الهنود الحمر، مع العلم أني أتكلم لغتهم بطلاقة، لم أكتشف ذئبًا واحدًا يفوق في خطره أي ثور اعتيادي أو أنثى خنزير مهتاجة أو ذكر وز غاضب» (م 300).

أمّا أسطورة عواء الذئاب حسب توقيت الساعة، فلا تصمد أمام الاختبار العلمي أكثر من سابقتها. تدل الملاحظات في حديقتي حيوان سنسناتي وبروكفيلد على عدم وجود أي انتظام في عواء الذئاب، ولكن قد لا تعتبر الملاحظات هذه صحيحة، على أساس أنَّ الذئاب تعوي مع دقات الساعة في حالتها العامي الطبيعية فقط.

يعتقد العامة أنَّ أعين الحيوانات التي تلتمع مثل أعين القطط والذئاب، تضيء في الليل، وقد يكون هذا صدى لنظرية الإشعاع الإغريقية القديمة والتي قالت: بأن العيون ترسل ضياء بشكل خيوط رفيعة تلمس الاشياء المرئية فتحدث الرؤية، ولكن الاحتمال الأكبر إن هذا خطأ مستمد من رؤية بريق أعين الحيوانات في الظلام، فيعتقدون بأن هذا إشعاع وليس انعكاسًا، ويؤدي انعدام مادة البساط الشفاف

Tapetum في أعين البشر إلى عدم بريقها بالرغم من إننا نسمع أحيانًا عن عيون البشر المضيئة. (م 277، ص 225).

ويؤمن البشر بقدرة الكثير من الحيوانات على الرؤية في الظلام التام بالرغم من عدم وجود حيوان واحد يمتلك مثل هذه القدرة، وتمتلك بعض الحيوانات فعلاً عيونًا تستطيع الرؤية في الظلام النسبي، ولكن معظم الحيوانات تمتلك أعضاء حسية تساعدها في حركتها، فتتمتع كثير من المخلوقات بشعيرات حسية طويلة على شفاهها العليا تساعدها كمجسات، كما يستعين عدد من الحيوانات بذبذبات الهواء والماء.

والخفاش من هذا القبيل، فهي الحيوانات الوحيدة التي تستطيع الطيران في الظلام المطلق. ولكن هذه القدرة ليست ناجمة عن الرؤية بل عن قدرة سمعية خارقة، وهذه حقيقة تلقي ضوءًا على عملية التطور العلمي.

لقد عرف البشر منذ قرون أنَّ الخفاش، إذا أصابه العمى، يستطيع الطيران متجنبًا العقبات الدقيقة التي قد تعترض سبيله، فهو يتجنب حتى الأسلاك الرفيعة المعلقة في طريق طيرانه، ولقد ابتكرت شتى التجارب لتحليل هذه الحقيقة، فقد قام الباحث الايطالي «سبالانزاني» بسد أنوف الخفاش وأفواهها ووجد بأنها تفقد قدرتها هذه، وقد استنتج من ذلك أنها تتمتع بحاسة شم قوية تقودها في تجنب العقبات، أمَّا التجارب الحديثة فقد دلَّت بأن ذلك استنتاج خاطئ. فقد وجد بأن الخفاش يطلق صريرًا رفيعًا باستمرار اثناء طيرانه، وتبلغ ذبذبات هذا الصرير حوالي (50,000) ذبذبة في الثانية وهذا يفوق سمع البشر، كما تطلق هذه

الأصوات بسرعة خمسة وعشرين صريرًا في الثانية الواحدة وقد تصل إلى خمسين صرخة في الثانية لدى الاقتراب من العقبات، وهكذا نجد بأن الخفاش يمتلك جهازًا حسيًا يشبه الرادار، فهو يصيخ لأصداء صريره المتواصل: فإذا كان ثمة عقبة في الطريق فهو يسمع صدى صريره عنها، وهذا مثال رائع على الطريقة التي يساعد فيها التقدم في مجال معين على اكتشاف حقائق في مجال آخر، وهو يدل على تشابك المعرفة فلم يستطع علماء الحيوان فهم هذه الظاهرة حتى تم التقدم في مجال علمي يبدو بعيدًا عن علم الحيوان، ألا وهو حقل الإلكترونيات. وهكذا ظهر لنا بأن «سبالانزاني» عندما أغلق أفواه الخفاش منعها من أطلاق صريرها المتواصل.

ويلي الذئاب، في الأساطير عن الحيوانات الوحشية، الفيلة والقردة فيقال لنا إن الفيلة تتمتع بذاكرة أسطورية، وتروي لنا الأسطورة الكلاسيكية الآتية: يقوم متفرج مغرم بالمزاح وهو يزور السيرك بإعطاء الفيل شيئًا من التبغ أو التمباك بدلاً من قطعة الحلوى أو الفول السوداني الذي يحبه الفيل. وتمضي سنون وسنون على هذا الحادث، وإذا بالفيل يرى في مدينة أخرى ذلك الذي قام بمزحته السمجة، ويكون ذلك الرجل قد نسى كل شيء عنها، وإذا بالفيل يقتلع كل السلاسل التي تقيده، ويقطع كل الحبال التي تربطه، ثم يهجم مرة واحدة على الرجل ويسحق دماغه بلطمة من خرطومه، ثم يعود إلى مكانه بوقار وجلال وقد ثأر لنفسه.

أمَّا إذا شرحت لأحدهم خطأ هذا الاعتقاد مبينًا أن التاريخ لم يسجل حدثًا واحدًا من هذا النوع بدا ردك ضعيفًا متهافتًا بالنسبة له، ولكنه قد

يجد في تصريح فرانك بك، صاحب السيرك الشهير، وزنًا فيصدقه عندما يقول: بأنه لا يعتقد بأن الفيلة تتمتع بذاكرة قوية (م 25).

أمَّا القردة فلم تشكل في هذا العصر مصدرًا للأخطاء الفاحشة، وذلك لأن حدائق الحيوانات قد جعلت منها منظرًا مألوفًا، كما أن «دارون» قلب بنظريته التسلية التي كان يمارسها البشر في التفرج عليها إلى شعور يشابه الضيق وعدم الراحة.

وبالرغم من ذلك لا زالت بعض القصص تدور عن نوع من التنظيم الاجتماعي والتعاطف العائلي فيما بينها، ولكن أبسط الناس اليوم يرفض رفضا باتًا تأكيدات «أوجلبي» بأن القردة تدخن وتقامر وتنفق ما تحصل علية من النقود في دور البغاء كما يرفض قصص «بلتي» عن القردة التي تلعب الشطرنج، ويؤكد لنا اللورد «مونبودو» بأن هناك أصنافًا من القردة تبني البيوت وتستعيد البشر لكي تتمتع بوقت الفراغ في العزف على الفشار، ولكن القرن الثامن عشر اعتبر «مونبودو» «متحمسًا» بينما أخذ القرن التاسع عشر مأخذ الجد تصريح «ستانلي» بأن القردة تحمل المشاعل لدى سفرها ليلاً. (137، ص 515) (م 185، ص 18) (م 161، ص 449).

لقد تدهورت القصص عن القردة حتمًا. فليس لدينا اليوم ما يماثل هذه القصص الذهبية، ولم يتبق منها سوى الرأي القائل بأن القردة تفلي بعضها البعض بحثًا القمل، وإن الغوريلا هو أكثر الوحوش ضراوة.

بالرغم من أن القردة تبدو وكأنها تفلي بعضها الآخر بحثًا عن القمل فهي في الحقيقة تمارس عملية أغرب من عملية التفلية وتدعى عملية

«التجميـل»، وإذا وجدت القردة أثناء عملية التمشـيط هذه تحك لبعضها الآخـر قملـة فالاحتـمال كبير بأنهـا سـتأكل القمل ولكن ذلـك لا يحدث غالبًا، ويشـير «زوكرمن» إلى أنَّ القمل قلّما يوجد في القرد، وإن وجد فإنه يكون قد انتقل إليه من المتفرجين. (م 209، ص 86) (م 210، ص 86).

أمَّا عـن الغوريلا فمن الطبيعي أن ينتشر هذا الرأي، فهناك من الناس مـن رأى غوريـلا في حياته، ولكـن معظم النـاس رأوا الأفـلام المتحركة وصفحـات الإعلانات والصـور الكاريكاتورية التي تؤكـد بأن الغوريلا حيـوان ضارٍ -يعلـو فمه الزبد- يحمـل في يمناه عذراء قـد أغمي عليها، وفي يسراه خنجرًا يقطر دمًا، كما يرسم أحيانًا وهو يدوس بأقدامه البيوت فيسحقها بساكنيها.

وقد يجد عالم النفس في ذلك شيئًا مثيرًا، إذ اختار البشر أقرب الحيوانات أليهـم ليرمز لقيمة القسـوة والعنف، ولكن سـيجد عـالم الحيوان في ذلك تشـويهًا كبيرًا للحقيقـة، الغوريلا في الواقع حيـوان ضخم يفوق البشر في قوته عدة مرات، يصل وزنه إلى خمسمئة رطل أحيانًا، ويبلغ عرض صدره خمسًـا وخمسـين بوصـة وطول ذراعيـه، من أقـصى أصبع لأقـصى أصبع، ثمـانية أقدام؛ إنه يسـتطيع أن يشم بندقية كما نكسر عود ثقاب، ويستطيع أن يقتل رجلاً بلطمة واحدة من يده.

ولكـن بالرغـم من قدراته الكامنـة هذه فهو لا يطلب شـيئًا من البشر سـوى أن يدعـوه بسـلام، إنه في حالتـه الطبيعيـة، حيـوان عائلي صرف. إنه نباتي ومحبٌّ للسـلام ضمـن الحدود المعقولة، ولا يقاتل حتى يسـتثار.

وحتى عندما يهاجم يحاول الهرب وإن لم يستطيع ذلك فهو يحاول أن يخيف مهاجميه. إنَّه ليس حيوانًا أليفًا، ويصبح أقل ألفة عندما يكبر ويزداد حكمة، شأنه شأن مثيله الانسان، ولكنه لا يهاجم البشر، وإن أي إنسان هاجمه الغوريلا يكون قد أنفق الكثير من الجهد في استثارة الحيوان، وعندما يقنص الغوريلا وهو طفل رضيع يكون شكله مثيرًا للشفقة لأنه عديم المقدرة تمامًا، ولكنه حين يكبر يصبح مستقلاً فرديًا وأقوى من أن يسيطر عليه ويرعاه أحد، فيوضع لذلك وراء القضبان، وهو لا يحب ذلك مطلقًا، ويوضع الإنسان وراء القضبان أحيانًا ولكنه لا يحب ذلك أيضًا، ويفعل غالبًا ما يفعله الغوريلا فهما يدوران داخل القفص متجهمي الوجوه، يكرهون حراسهم كما يكرهون هؤلاء الذين يتفرجون عليهم.

إن هذا التمجيد للقوة العاتية - إذ أن الخوف المبالغُ فيه هو شكل من أشكال التمجيد - يعتبر اتجاهًا جديدًا في علم الحيوان الشعبي، ولربما كان ذلك انعكاسًا عن تنامي عبادة القوة الضارية. إذ إن كل عصر يحاول أن يوسع مفاهيمه لكي تشمل الأفكار المختلفة عن الحيوان. وهؤلاء الذي رأوا في السماء رمزًا لمجد الآلهة لم يروا سببًا يعتق المخلوقات الأرضية من هذا الأمر. ولقد وجد هؤلاء الذين يؤمنون بحكمة الطبيعة براهينهم فيما أطلقوا عليه اسم الغرائز، أما القرن الثامن عشر الذي مجد العقل فوجد الطبيعة عاقلة منظمة، بينما فضل القرن التاسع عشر أن يتأمل في «قانون الغاب» و «البقاء للأصلح». وثمة توضيحٌ طريف لهذه الظاهرة في مثال الفئران التي تدعى «لمنج»، وهي فئران صغيرة تقطن سلسلة الجبال الوسطى في السويد والترويج، ويعتقد أنها «تهبط إلى السفوح في

أعـداد هائلة وهي تعدو بخط مسـتقيم حتى تصل البحر ثم ترمي نفسـها فيه لتغرق».

أمـا التحليـل الذي يعطـي لهذه الظاهـرة فهو «بقايا من سـلوك كانت تمارسه الفئران هذه عندما كان بحر البلطيق والبحر الشمالي جـافًا فكانت تسيطر عليها غريزة مستبدة تدفعها إلى الهجرة في هذا السبيل، وبينما كانت هذه الغريزة مهمة في العصور الماضية للبقاء فقد أصبحت الآن مميتة». (م 328، جزء 13 ص 905).

أمَّا «اللمنج»، فلا يفعل أي شيء من هـذا القبيل. (م 56، ص 213، 216) وما هبوط الفئران من الجبال إلى السفوح إلا نتـاج لتكاثرها بشكل يؤدي إلى هجرة بعضها بحثًا عن الطعام، وهذه الحركة هي حركة فردية عشـوائية غير منتظمة وتطول لسـنين عديدة، وتسـتطيع هذه المخلوقات السـباحة، فتعبر الغدران والجداول الصغيرة وقد يصل بعضها إلى البحر فيسـبح فيه إلى أبعد مما يسـتطيع ثم يغرق. أما مسـيرة الموت المخيفة وهذه الغريرة القاتلة فما هي إنتاج لتشـاؤم العصر الحديث، إنها نتاج للبحث عـن أدلة «للجيل الضائع» في مخلوقـات الطبيعة ونتاج للبحث عن أدلـة «للجمع الضائع» في مخلوقات الطبيعة ونتـاج إلا نتاج للبحث عن إثبات لغريزة الموت.

إنَّ مثـل هـذا الخطـأ لا يمكـن أن يعتبر خطأً فاحشًـا سـوقيًا فهو خطأ المثقفين. والاحتمال كبير بأن رجل الشارع لم يسمع بهذا مطلقًا ولكن مثل هذه الأسـاطير تظهـر في المجلات الأدبية الرفيعة التـي تركع أمامها كرمز للحياة. (م، 253؛ م 254، م 255).

كان «توسل» يعرف عما يتحدث «فالتأملات السماوية عن المخلوقات الأرضية» قاعدة ناجحة. وهكذا نجد من المجلات ما تصطرع في صفحاتها الحرب الضارية بين المخلب والناب كتعبير عن مبدأ التنافس، بينما نجد مجلات أخرى تعبر عن جمال الطبيعة وحكمتها، ويقوم غيرها بالبحث عن فئران تدفعها غريزة الموت إلى لقاء حتفها.

الفصل الرابع:

الطبقات الدنيا البكماء

لقد استحوذت الحيات والأفاعي على خيال البشر دائمًا واعتبرت، (في القِدم) هذه المخلوقات عناصر ورسلاً إلهية تفعل الشر عادة، وتؤدي العقاب. أما في العصور الوسطى، فقد نسي البشر قربها من الآلهة ولكنهم كانوا «يعلمون» أنها ترضع من البقر ليلاً (والأمر جلي لمن يلاحظ كما يقول توبسل) كانت لديها القوة أن تعيد ربط أوصالها بعد أن تقتطع. وهي تبتلع صغارها لدى الخطر، ثم تستفرغها عندما يزول وتحمل لسعها في ذيلها.

ولقد أضاف عصرنا النير هذا، لهذه المعتقدات القديمة، معتقدات جديدة فنسب للحيات نظرة مغناطيسية تشل ضحيتها فلا تستطيع حراكًا، والحيات نفسها، ولا سيما الكوبرا يمكن «سحرها» بالموسيقى، وفيما عدا الموسيقى كدفاع ضد الأفاعي والحيات، لا توجد وسيلة أفضل من حبل مصنوع من شعر ذيل الخيول. إذ حالما تحصر الأفاعي في دائرة من هذا الحبل لا تستطيع الخروج من هذه الحلقة المغلقة. وبالرغم من أن الأفاعي تعتبر مرادفة للخيانة والغدر فلديها قيمها الأخلاقية الخاصة، فالحية ذات الأجراس تنذر أعداءها بشهامة وفروسية قبل أن تهاجمهم، أما الحيات ذات الأجراس التي تشاطر كلاب البراري مساكنها فهي تمتنع بشهامة عن عضِّ مضيفها. كما يعتقد أن بعض أنواع الأفاعي تسافر أميالاً ومسافات شاسعة للثأر لزوج مقتول. والكثير منها يلدغُ نفسه بأنيابه السامة مفضلاً الموت على العار، ليس ثمة من هذه المعتقدات القديمة والحديثة ما له أساس في الحقيقة والواقع، فأفاعي الحليب استمدت اسمها من أسطورة Topsell توبسل، واستحقاقها لهذا الاسم

أو جدارتها به لم يكن جليًا إلا لتوسل وحده، فالحية لا تمتلك الشفاه المتحركة، ولا القدرة على خلق الامتصاص اللذين لا تتم الرضاعة بدونهما. ولذلك يستحيل على هذه الحيات الرضاعة من البقر؛ حتى لو وجدت البقرة الصبور التي تتحمل أنيابها الحادة. أمَّا الحية الزجاجية (وهي في الواقع سحليةٌ عديمةُ الأرجلِ) فهي تستطيع فعلاً أن تسقط جزءًا من ذيلها شأنها شأن السحالي، ولكن لم ير، حتى الآن، أي شخص سحلية تعيد إلصاق ذيلها. وتقوم بعض أنواع الأسماك بحمل صغارها في أفواهها، ولكن «أفعى الطوق» (Ring-necked snake) لا تفعل ذلك رغمًا عن المعتقد الشائع، كما أنها لا تضع ذيلها في فمها ولا تدحرج نفسها كالعجلة بالرغم من اسمها. (م 132، ص 2 - 3) (م 132، ص 7، ص 31).

أمَّا هؤلاء الذين يعتقدون أنَّ الأفاعي تلسع[1] فينقسمون إلى قسمين: قسم يعتقد أن الحية «تلسع» بلسانها المشقوق، وقسم يعتقد أنها «تلسع» بمؤخرتها كالنحل.

وينتمي شكسبير للجماعة الأولى فهو يشير إلى لسع الأفاعي إثني عشرة مرة كما يشير إلى اللسان المشقوق بالتخصص مرتين، أما ملتن فقد أسند النهاية الأخرى؛ فهو يؤكد أن الذيل هو موضع اللسع. ويتفق مع ملتن جوسر والإنجيل، وكذلك ألوف من الناس الذين يعيشون اليوم، فلقد أجريت في جامعة أمريكية دراسة كشفت أن ما يزيد على نصف التلاميذ

(1) تفرق هنا بين لسع Sting ولدغ Snake bite. (المترجمان)

يعتقدون أن الحيات تلسع، ولقد انقسم هؤلاء بالتساوي بين النهايتين. (م163، م35، م124).

وتتأصل فكرة شل الأفاعي لضحاياها في نفوس البشر بشكل أعمق؛ ولكن لم يلاحظ مثل هذا الأمر في حدائق الحيوانات حيث تطعم بعض الأفاعي الضخمة بفرائس حية، فالوجبة المسكينة الصبورة تنتظر في القفص أيامًا قبل أن يقرر الأفعى ابتلاعها، وخلال تلك الفترة يبدو أن الآكل والمأكول لا يشعر نهائيًا بوجود الآخر. (م 126، م 20، ص 52).

لا يمكن أن يعتبر أي تمثيل للهند في الوقت الحاضر «واقعيًا» إلا إذا احتوى على صورة ساحر الحيات وهو يراقصها على أنغام نايه. ولكن الحقائق تقول عكس ذلك. فقد قام ديتمارس بدراسة طريفة توصل بنيجتها إلى أن الموسيقى كموسيقى لا تهم الحيات مطلقًا، بل على العكس من ذلك يبدو أنها تستجيب بانزعاج شديد لبعض النغمات شأنها في ذلك شأن الكلاب، ويعتقد بعض العلماء أنَّ اهتزاز الكوبرا هو نتيجة لحركة جسم المدرب واهتزازه. (م49 م23 ص79 م149 ص265).

ويبدو أن معظم الحيوانات تكره الموسيقى، فلقد قدم تومي درورسي وجوقته الموسيقية خدمة من أجل تقدم العلم عندما اقاموا حفلاً خاصًا للقردة في حديقة حيوانات فيلاديلفيا وعزفوا فيه. ولقد وجد علماء الحديقة أن استجابة القردة كانت سلبية قطعًا، وتقدم مدينة (سنسناتي) حفلات الأوبرا الصيفية في حديقة الحيوانات ويبدو أن أصوات مغني ومغنيات الأوبرا تدفع كلاب البحر والفقمات إلى أطلاق

صيحـات متقطعة، ولم يقرر إلى الآن فيما إذا كانت صيحات إعجاب أو استياء.

أمـا أخلاقيـات الأفاعي فـلا تصمد أمـــام البحث العلمـي أكثر من جمالياتها، ففروسـية ذات الأجراس معتقد لا أسـاس لـه، وعلماء الحيوان ليسوا مقتنعين أن الغرض من الصوت الذي تطلقه هو الانذار، وقد اعتقد دارون مثلاً أن أطلاق هذا الصوت وسيلة للجذب الجنسي، والملاحظ أن أيـة اسـتثارة تؤدي بالأفعى إلى أن تطلق هذا الصوت. وطبعًا إذا ربط أي حيـوان بين هذا الصوت والأفعى ذات الاجراس فليس ثمة ما يمنعه من اعتباره إنذارًا، ولكن هذا أمر آخر.

إن الأفاعـي ذات الأجـراس تعيـش أحيانًا في جحـور كلاب البراري ولكن هذا التزامل، كجميع أنواع التعايش الحياتي، لا يمكن اعتباره اتفاقًا تعاقديًا كما يشـيع بين الناس، فالأفعى في هذه الحالة دخيلة، كما يمكن إن نفـترض، ودخيلة غير مرحب بها. ولكن ليس هناك ما يسـتطيع ان يفعله هـذا الجرذ المسـكين وإن لم يلدغ فيفضل نشاطه وسرعة حركته. (م 132، ص 108).

وتحتل السـلاحف والحرباء والضفادع، وهي زواحف أخرى، مقامًا مرموقًا في الأدب الشعبي. فيعتقد الأطفال أن السلحفاة لا تموت إذا قطع رأسها بل تبقى حتى غياب الشمس.

أمـا الحقيقـة فأنها تموت شـأنها شـأن كل الفقريـات في اللحظة التي ينفصـم فيها حبلها الشـوكي. ولعل ذلـك ناتج عن اعتقـاد البعض أن

الحركات الارتكاسية، والتي يحدث قسم منها بعد الممات، مظهر من مظاهر الحياة. وطبيعي أن هذه الأفعال الارتكاسية تتناقص قوة مع برودة المساء.

ولقد أصبحت الحرباء رمزًا للتلون والتشبه بالمحيط وغالبًا ما تعاني الحرباءُ المسكينة الكثير من الإساءات لفشلها في بلوغ توقعات هذه الأسطورة. ويقوم بائعو الحرباوات بتشجيع هذه الاسطورة لكي يشتريها الناس، فيكسبون من الوقت ما يكفي لتأمين السعر في جيوبهم عن طريق التعلل بأن تحول اللون يتطلب شيئًا من الزمن، ويعتبر هؤلاء التجار سخط المشترين عليهم جزاء من ظروفِ العمل ومتاعبه.

والحقيقةُ العملية أنَّ الحرباء تغير لونها فعلاً عندما تنفعل (والبشر مثلها ولكن لدرجة أقل) كما تفعل ذلك عندما تحدث تغيرات مفاجئة في درجة الحرارة والضوء، وقد تشابه تغيرات لونها لون المحيط ولكن ضمن حدود ضيقة (132، ص120).

أمَّا الضفدع المسالم المسكين فلقد كان منذ زمن مصدرًا للخوف والخرافات. ولقد كان المعتقد سابقًا أنه يخفي جوهرة في رأسه، فهو عندما ينط يعبر عن قانون خلقي مفاده أن الفضيلة غالبًا ما تختفي تحت مظهر قبيح، أمّا القانون الخلقي اليوم لمثل هذه الظاهرة فهو يعبر عن حكمة أكثر إيلامًا ألا وهي «ليس ثمةَ جريمة كالقبح».

يعتقد الأطفال في الريف أن الفالول ينجم عن لمس الضفدع. إنَّ جلد الضفدع يفرز مادة تهيج الجلد، وبما أنَّ الفالول يحدث أحيانًا كرد

فعـل ضد بعض أشـكال التهيج الجلـدي فقد يكون ثمة أسـاس لمثل هذا المعتقد، ولكن الاحتمال الأكبر هو أن ذلك استنتاج خاطئ من شكل جلد الضفدع الذي يعطي انطباعـًا بالفالول.

إنَّ ملمسَ الضفدعِ اللزج الذي يشـبه الجثـة يوحي بأن الضفدعَ ميت فعـلاً، ولذلك فـلا يمكن أن يموت وقـد يكون ذلك أساسًـا للعديد من القصـص التـي يسـمعها الإنسـان عـن الضفـادع التي حـررت من بطن الصخـور أو من جوف كتل الباطون المسـلح والتـي يعتقد أنها احتضنت هذه الضفادع لأعوام طويـلة أو حتى لقرون دون غذاء أو هواء. إن شكل هــذه الأسطورة الكلاسـيكي كما تظهر في بعض الصحف إن الحيوان في البدايـة يبـدو وكأنه ميـت فعـلاً، وإذا به ينتعـش، فتعود إليـه الحياة لدى تنفسه، فيبدأ في القفز هاربًا لدهشة الذين حرروه. من المعلوم أن الضفدع لا يمكـن أن يعيـش دون الهـواء وذلك لسـوء حظ مثل هــذه القصص، وحتـى إذا تمتـع الضفـدع بكل ما يريـد من الهـواء والماء والغـذاء فإنه لن يعيش لأكثر من سنين معدودات.

ويحتل الكوسـج والحوت والأخطبوط من الحيوانـات البحرية مكان الصدارة في الأدب الشـعبي. والمعروف أن الحـوت يطلق زفيره من فتحة في ظهـره. وبالرغـم مـن أن ما ينطلق الهواء فحسـب فلقـد اعتقد البعض أن الأسـماك تنطلق مـن هناك أيضًا، ويعـبر عن هذا الزفير عـادة كنافورة مـن الماء لذلك فـإن الفنانين الذين يتمتعون بشيء مـن روح النكتة أو من البساطة يضعون أحيانًا سمكة أو أكثر في فتحة النافورة.

ولربما كان ذلك وسيلة للتعبير عن أن ما يظهر هو ماء كما فعل السير جون هارنجتون عندما صمم مغسلته فوضع في حوض الماء سمكة؛ لا لأن هذا هو موضع السمكة بل ليجعل القارئ يدرك أن هذا موضع الماء.

ويدعي بعض الملحدين أن الحوت ذو بلعوم ضيق، وهذا الرأي مثال مسلٍ على خطأ شائع، يستعمل لدحض خطأ شائع آخر مبنيٌ على خطأ شائع. فالسمكةُ العظيمة التي يقول الإنجيل: إن الله أعدَّها لابتلاع النبي يونس انقلبت بمرور الزمن إلى حوت بالرغم من أنَّ الإنجيل لا يقترف مثل هذا الخطأ في التسمية، وفي الهجوم العقلاني على الإنجيل أصبحت هذه المخلوقة المسكينة هدفًا للسخرية من أناس لا يستطيعون التفريق بين البحر والنهر كما أصبحت وسيلة لدحض (الأرثوذكسية) في التفسير الديني. فقد أصروا على أن النبي يونس لا يمكن أن يكون قد ابتلع لأن بلاعيم الحيتان أضيق من أن تمرر رجلاً، وهكذا تراجع حق المؤمنون واستكانوا بخنوع لهذا الراي، لقد وجدنا أن كتاب «المساعد لدراسة الانجيل» المطبوع في أكسفورد عام 1891 اعترف بضعف إن بلاعيم الحيتان أضيق من أن تمرر رجلاً. ولكن التراجع هذا كان تسرعًا. فلو قام المؤمنون ببحث صغير لاستطاعوا أن يتمسكوا بموقفهم فثمة العديد من الحيتان التي تمتلك بلاعيم على درجة من الاتساع بحيث تستطيع ابتلاع رجل نبيًا كان أو قديسًا أو ملحدًا.

أما الكوسج فهو حيوان مثير من الناحية العلمية، إنه يثير اهتمام علماء التشريح وعلماء الحيوان وعلماء الحيوانات المنقرضة وحتى علماء التغذية،

كل منهم يدرسه من زاوية اختصاصه. ولكن العامة يهمها شيء واحد في الكوسج ـ الكوسجُ سمكٌ مفترس فليس هناك ما يعرف غير هذا ولا ما نحتاج لمعرفته غير هذا. إن الكواسج بالنسبة لهذا الرأي لا تعض السابحين بين حين وآخر كما تعض الكلاب السابلة، بل تعيشُ حياتها باحثةً عن الإنسان لتأكله؛ وهي إن أكلت شيئًا آخر فما ذلك إلا لتستمر في بحثها الكريه هذا، وبما أن الكواسج أكثر بكثير من البشر في المحيط فإن ذلك يفعل فعل السحر في دفعها إلى الجنون في البحث عن ضالتها، فإذا مات أحدهم على ظهر سفينة فالكواسج «تعلم» بطريقة غيبية ثم تتبع السفينة لأيام بصبر جشع. وهكذا يعرف الناس بأن الكوسج هو قاتلُ الأعماق وأي محاولة للتشكيك في هذا الأمر تضع المشكك في صف المجانين.

ولكن بالرغم من كل هذا فإنَّ المشككين كثيرون. إن وطيسَ الجدل لا يزال حاميًا والدلائل لا زالت قليلة وغير قاطعة لإطلاق أي حكم قاطع في الموضوع ولكن سيدهش الكثيرين إذا علموا أن الحالات الحقيقية لأناس هاجمتهم الكواسج أندر من القليل. يقول كتاب تعليمات للطيارين «ليس ثمة خطر على أي طيار لا ينزف دمًا، طاف على سطح الماء من أن تهجم عليه الكواسج». فمن مئات الأنواع من الكواسج ليس ثمة أكثر من ستة أنواع لها الأسنان اللازمة لافتراس البشر. ومن هذه الستة أنواع القليل مما تحدوه الرغبة لمهاجمة البشر؛ ولا تتاح الفرصة لهذه الأنواع التي تحدوها الرغبة لافتراس البشر إلا فيما ندر، وإن أتيحتْ فلا يستفيد منها إلا القليل. (م 109 ص27، م13، م 206).

أما الأخطبوط فيحتل المقام الأول في قصص الرعب عن الأعماق والفضل في ذلك يعود لفكتور هيكو وملحقات جرائد أيام الأحد.

إن الأخطبوط لا شك مخيف المنظر، فجسده اللزج اللين دون عظام ينتفخ ويتقلص بإيقاع، وأطرافه بأقراصها الماصة تتماوج دون انقطاع، ونظرته الباردة تنطلق من عينين واسعتين لا أجفان لها. كل هذا كفيل بأن يجعل فرائص الشجعان ترتعد لمنظره، ولكن الأخطبوط بالرغم من كل هذا حيوان مسالم غير مؤذ بالنسبة للبشر. ويقول بولنجر مدير معرض الحيوانات المائية في حديقة حيوانات لندن «إن الخطر من الأخطبوط نفسي وغير مادي». ويضيف إن الاعتقاد القائل بأن قبضة الأخطبوط لا يمكن الافلات منها هراءً في هراء. فأية قبضة حازمة على رأس حتى أضخمُ النماذج منها كفيلة بأن تجعله يرخي قبضته. ويقول ستفن وليامز أستاذ الحيوانات المائية في جامعة ميامي «إن الفلاح في مزرعته لفي خطر أكبر من أن تهاجمه (قرع) بطيخة إذا قورنت باحتمالات مهاجمة الأخطبوط للسابحين». (م 20، ص 171) وكانت الحشرات، المعدودة من أكثر الأحياء المنظورة عددًا، محتقرة ودون مستوى اهتمام الإنسان الاعتيادي. ولكن علماء الحياة خلال الخمسين أو الستين سنة الماضية غيروا كل هذا.

وبالرغم من ذلك فلا زال رجل الشارع عاجزًا عن أن يسمي أكثر من عشرين حشرة بالمقارنة إلى عشرات الألوف من فصائل الحشرات التي تطير وتزحف عليه وحواليه، وانطباعه العام عنها غاية في الغموض والتقزز، فهي تعض وتلدغ وتطن حواليه وتدخل في طعامه وتلقي بنفسها

حوله وتقرض ثيابه وتلتهم أشجاره المثمرة وتزرع التلف في أسس بناياته، وعلاوة على ذلك فهي تثير اشمئزازه أو تلقي الرعب في نفسه.

ولذلك لا يتمتع سوى القليل من الحشرات بأية قيمة خلقية، فالفراشة تلقي بنفسها في اللهب وبذلك تلقي عبرة وموعظة للشباب المرح أو على الأقل تعطي اكتفاء للمسنين الحقودين. ولكن هذه الحيوانات الحقيرة لم تعط الكثير من الخير فيما عدا النمل والنحل وهنا كأنما الأمر تعويض- نجد الكثير... الكثير من الأساطير.

لقد احتل النحل مقامًا بارزًا في تفكير العامة فاعتبرت مساكن النحل مجتمعات بشرية مصغرة. وأصبح ولاؤهم للملك، إذ يعتبر العامة الملكة ذكرًا عبرة وموعظة لأي شعب متململ غير راضٍ عن مليكه.

لقد كانت النحلةُ في القدم رمزًا دينيًا شائعًا للخلود، ولقد ظهرت في دين المثرية كما ظهرت في عبادة ديانيسوس وكذلك في عبادة أبيس، وأسبغت على الشمع والشهد صفات وخصائص سحرية انتشرت في الكثير من الطقوس الدينية، حتى المسيحية امتصت شيئًا من مفاهيم هذه الديانات القديمة فكان الشهد يعطي للأطفال خلال التعميد كما يجب أن تكون شموع الكنائس من شمع النحل الخالص. (م 192).

وبالرغم من أنَّ النحل لم يعد موضعًا للعبادة فلا زال العسل موضعًا للتشبيه السحري يشيع في كل المجتمعات تقريبًا، فهو عنصر أساسي في العديد من الأدوية المسجلة، وهو يجلب الجمال لهؤلاء الذين يتمتعون بشجاعة كافية لأن يلطخوا وجوههم به (كما تدعي الإعلانات) إن التبغ المشبع بالعسل يصبح أقل إيذاء للحنجرة.

أما النحلُ نفسه فلم تنسج حوله الأساطير قدر ما نسجت حول عسله وقد سردت عن النحل قصص تبالغ في طاقاته في العودة إلى خلاياه. أمَّا نظام خلاياه فقد أسيء وصفه لتقريبه من المجتمع البشري لكي يكون عظة وعبرة للناس.

ويعتقد الناس أن الضرب على طنجرة «يفضل أنْ تكون نحاسية» يجعل النحل يلتزم خلاياه. بالرغم من أنْ مربي النحل يؤكدون أن ذلك مخالف للحقيقة. ويجد صبيان البلدان المختلفة عزاء في الأسطورة القائلة بأن النحلة التي لسعته دفعت بذلك حياتها ثمنًا.

وثمةَ اعتقاد قديم وغريب يقول: بأن نحل العسل يتكون تلقائيًا في جثث الثيران المتفسخة. كما قامت جثث حيوانات أخرى بنفس المهمة أحيانًا، فلقد وجد شمشون الجبار خلية نحل ولغزه المميت في جثة أسد، ولكن جثة الثور هي «الأصلح» - برأي «كالن»، كما شرح فرجيل بدقة تعليماته في كيفية تحضير جثة الثور لهذا الغرض، واستمر الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر حيث أشار «رينور» إلى أن ما يرى في جثث الحيوانات الميتة لم يكن في الواقع نحلاً بل أنواعًا من الذباب تضع بيوضها في الجيف، وهي تشبه نحلَ العسلِ إلى درجةٍ ما.

أمَّا أن تستمر الخرافة لمثل هذا الزمن الطويل حتى تنقضها فيما بعد حقيقة واضحة مثل هذا الوضوح فهو مثالٌ بليغ على الدرجة التي يمكن أنْ تتغلبَ فيها التسلطية العقلية والإرهاب الفكري على الملاحظة الموضوعية البسيطة، فلثلاثة آلاف من السنين كان المعتقد شاملاً، ولم

يلحظ أحد أو على الأصح لم يدر بخلد أحد أن يلاحظ بأن «النحل» الذي يتواجد في الجيف، ليس النحل الذي ينتج العسل، أمَّا في المسيحية فإن المشكلة كانت فوق الملاحظة الموضوعية أو التجربة إذ إن الإنجيل نفسه أيد الأسطورة، ومن يكون على درجة من الذكاء بحيث يبحث هذا الموضوع بشكل علمي، يكون في الوقت نفسه على درجة من الغباء لأن يجادل محاكم التفتيش الدينية وينازعها على حفنة من الذباب الحقير؟

أمَّا النمل فهو خيرُ مثال على التخبط العشوائي والفعالية دون جدوى.

ففعالية النملة الدائمة غير المستهدفة وانعدام كفاءتها تشبه شبهًا بالغًا بعض الأعمال التافهة التي يعتبرها البعض قدرة إدارية كل ذلك جعله مثالاً للطاقة والعمل الكفوء.

أمَّا النملة الحقيقية فهي لا تحمل من الشبه بالنملة التي تسري في الخيال الشعبي إلا أقل من القليل، ولعل الفضل في سوء التقدير هذا يعود إلى جهل الملك سليمان.

وليس ثمة وسيلة أفضل لتحطيم معنويات الكسول من أن يطلب منه أن يقتفي عبرة النملة. فالطاقةُ الجبارة التي يبذلها النمل بالمقارنة إلى النتائج الضئيلة التي يبلغها، ستدفع به حتمًا مرةً ثانية إلى الخمول والكسل، ولو أدرك مدى تعلق النمل بالطفيليات التي تفترسه لاختار أن يكون طفيليًا. ولعل الشيء الوحيد الذي سيدعوه إلى الإعجاب بها هو سرقتها الدائمة وتبذيرها المستمر واحتفالاتها وبذخها وتشتيت مدخراتها، فإذا أردت الخير للكسول حقًا، فلا تطلب منه أن يتعلم من النمل سبيل الحياة.

وليس ثمة شيء «معروف» كجهد النمل طول الصيف في تخزين المؤونة للشتاء ولكن للأسف الشديد ليس لهذا كبير نصيب من الصحة. هناك أنواع من نمل الحصاد تفعل ذلك ولكنها نادرة جدًا. ومعظم أنواع النمل تعيش على طعام لا يمكن أن يخزن، ولكنها لا تحتاج للتخزين على أي حال فهي تنام طول الشتاء. أمَّا نملُ العسل الذي يعيش في تكساس فهو يخزن طعامه بطريقة غريبة، فيعلق بعض أفراده من سقوف أعشاشه بحيث يكون رأسه متدليًا إلى الأسفل يبدؤون بحشوه بالعسل بحيث ينتفخ كالبالونات وهكذا عندما يشح الطعام يبدؤون بحلب جرارهم الحية هاته من محتوياتها. وهذا يبعث الرضا، حتمًا، في قلب الكسول.

وإن ننس فلا ننسى أسطورة انتقلت عبر العصور من إيسوب حق والت دزني، تلك التي تتعلق بالجرادة والنمل. والحقيقة هي عكس الأسطورة تمامًا فالجرادُ هو الذي يجمعُ الغذاء والنمل هو الذي يستجدي غذاءه من الجراد؛ فيقول Faber مؤلف كتاب «الحياة الاجتماعية لدى الحشرات»: إن النمل هو الذي يسرق الغذاء من الجراد العامل الدؤوب، ففي الجو الحار يقوم الجراد بحفر الجذوع من أجل عصير النباتات بينما يزحف النمل الجشع بين سيقانه سارقًا ثمار عمله، يقول فيبر «إن النمل هو المتسول المحترف، أما العامل الشغول فهو الجراد». (م 60، ص 6-8).

الفصل الخامس:

الذئب، الذئب

يمكن اعتبار قصصِ الأطفال الذين ربتهم الحيوانات من الإضافات الممتعة إلى علمِ الحيوان الشعبي، وقد تلت هذه القصص جميع الشعوب وفي جميع العصور، كما ظهرت هذه الأساطير في عصرنا هذا على شكل أوسع وتحت رعاية علمية موقرة لم يعرف لها مثيل في التاريخ.

فقد ربت الحيوانات الكثير من أبطال الأساطير، فاشترك زيوس وطرزان بهذه الرابطة مع الحيوان. والتاريخ مليء بأبطال أقل شأنًا يستمدون شهرتهم من أمهاتهم بالتبني المتوحشات.

ففي إيرلندا الصبي الحمل وفي سالزبورك الفتاة التي تبناها الخنزير، فتغذت على البلوط وقبعت في جحر الخنزير ونالت إعجاب المشاهدين جميعًا، وفي عام 1403 ظهرت المرأة السمكة وقد نبتت عليها حشائش البحر فاستحمت في سواقي إيدام Edam وعاشت بقية حياتها (17 عامًا) في هارلم (هولندا) حيث تعلمت الغزل وإنجاز الأعمال النسائية الصغيرة، ولكنها لم تتقن الهولندية بالرغم من أنها عبدت الصليب؛ ولذلك نالت إعجاب أكثر من أربعين قسًا فشهدوا على صحة قصتها المثيرة. (م، 208 ص، 202) (م 179 ص 368 – 369).

شيء ما يحيط بهذه المخلوقات التعيسة بحيث يندفع رجال الدين لكي يشهدوا لها، فيستند إرنست تومبسون سيتن على شهادة البطريرك ماتيسون في سرد «القصة الحقيقية» حول هاري سريزس الذي تبناه الخلد.

طريفٌ أن تنشأ ألفة غير طبيعية بين الخلد وهاري، ولكن الأطرف أنَّ الخلد نفسه عندما تبنته عائلة هاري مر بتجربة صعبة بسبب المنافسة على كسب عواطف الطفل بين الخلد وأبويه الاصليين. (م، 160).

وهناك لوقا، الذي تبناه قرد في جنوب أفريقيا، حيث رعا قصته الدكتور فولي في مجلة علم النفس الأمريكية كانون الثاني 1940، والبروفسور ر. م. زنج من جامعة دنفر في مجلة الأمريكي الأسبوعية في أيار 18- 1941. وشغف البروفسور المنكر لذاته بصنيعته، هدد لفترة ما بسلب اللورد موبودو شرف كونه أكرم أصدقاء القرود ويختلف لوقا عن الفتاة السمكة بأنه يستطيع التكلم بالهولندية؛ أو على الأقل اللغة الأفريكانية Africeans وهكذا جهز بلهجته الخشنة، التي تتميز بها هذه اللغة، العلماء المتحمسين بتقرير مسهب عن تجربته الطويلة مع القردة، وكلما خفت انتباههم كان يكشف لهم عن ندبة خلفتها رفسة نعامة، أو عن أكله الكثير من الصبار. فهو يستطيع أن يأكل كمية هائلة من الصبار (89 صبيرة في جلسة واحدة). ولقد اعتبر العلماء المتحمسون هذه القابلية شاهدًا أكيدًا على صدق قصته. وفي عام 1937 تحدى مركزه الأول وقيمته النقدية ندولا الصبي القرد كمنافس شديد له، ولكن سرعان ما فضح ندولا في مجلة علم النفس الأمريكية واعتبر حالة مهملة من الشلل أدت إلى ظهور وضعية فقرية تستدعي السير على الأربع. وهكذا احتكر لوقا المجلات العلمية لنفسه مرة أخرى.

ولم يدم ذلك طويلاً؛ إذ بعد سبعة أشهر على فضح ندولا «هوى» لوقا من عليائه حطامًا، فقد ظهر أنه لم يعش مع القردة أبدًا، وإنما كان يقضي

حكمًا في سجن بركرستوب في الوقت الذي قيل فيه إنه كان بين أخوانة القردة.

والمشكلة هي أن الذي ادعى اكتشافه كان شرطياً. وهكذا كان خاضعًا لتهمة التزوير والاحتيال. وتحت استجواب مدير الشرطة، علم أن القصة كانت قد نقلت إليه سماعًا عن رجل متوفى في الأصل. واستنادًا على تقرير مدير الشرطة الرسمي، بدأ سلسلة من الأساتذة بإلقاء كل منهم اللائمة على الآخر، ولم يكن ذلك مجردًا عن الوقار العلمي، فقال بروفسور زنج Zing إن تحقيق الدكتور فولي في قضية لوقا كان محكما عندما كتب، ولكن نشره المتسرع يعود إلى سياسة الدكتور ريموند إيدارت الكريمة المتحررة في جوهانسبرج والذي أشرك الآخرين في أبحاثه في كل مراحل التحقيق العلمي. وهذه المرحلة خاصة كانت مرحلة سابقة لأوانها.

من الواضح أن البروفسور زنج لم يستطع أن يتصل بكل المراسلين حول اكتشاف التزييف الذي أثار كثيرًا من الحماسة. إذ لم يمر عام على إعلانهم التوبة عن الخوض في مثل هذه القصص حتى نشرت القصة مرة أخرى استنادًا على شهادة الدكتور زنج نفسه في مجلة الأمريكي الأسبوعية. وفي عام 1944 اجتاح لوقا مرة ثانية صفحات تلك المجلة دون حاجة لمن يرعى القصة هذه المرة.

أما لوقا الحقيقي فقد وضع في معهد للمتخلفين عقليًا. (م، 64 ص 128-133) (م، 287) (م، 207) (م، 212، م213).

وهكذا تجد أن انسحاب لوقا من عالم المجلات العلمية لم يترك هذه الصحف قاحلة جرداء. فقد ظهرت دائما مناقشات في أعمدة المجلات

حـول طفل أو آخر تبناه حيوان ما. ففي عام 1926 أنقذ صبي من الذئاب قرب ما يوانا التي تبعد 75 ميلاً عن الله أباد، وكان يعوي في الليل ويقتـات على الحشائش ويتمرغ في التراب كما تفعل الكلاب الجرب، وأبدى بعض الغرائـز التي كانت أوطأ من غرائز آبائه المتبنين، ولكن لم توضح لنا طبيعة هذه الغرائز، ولا شك في أن عدم توضيحها شيء من اللياقة والذوق.

وقد كرسـت نيويورك تايمس عمودًا للمشـاكل التي أثارها إنقاذ هذا الصبـي، ومـن رأي هـذه الجريـدة أن قصته كانـت حقيقية واقعيـة، وقد شـك أسـاطين الطب في لندن بالقصة ولكن بعض ضباط الجيش الهندي القدامى أسكتوا هؤلاء الأطباء بإصرارهم على أن تربية الذئاب للصبيات شيء مألـوف في الهند، أمـّا كبلنج الذي وضـع تعابير كـ «أرضعته الذئبة» و «عامتـه الأفعـى» و «نصحه الفيـل» فقد أخذ رأيه من ذلـك طبعًا، فأيّد بحرارة ضباط الجيش القدامى ولكنه شك بأن يكون الصبي كما تم وصفه يمشي على يديه وركبتيه. وظن بدلاً من ذلك أنه سـار على ركبتيه ومرفقيه لأن ذلك معقول أكثر.

وقـد أثارت هذه القصص قلقًا حول إهمال الأمهات الذئاب المتبنيات تعليـم هؤلاء الأطفال دينيًا، ولكن القس ما كاي الذي كان مسـؤولاً من أبرشـية القديس حنا في هالنكتن من أعمال سسـكس؛ والذي أقام في عام 1887 مراسـيم الجنـاز للصبي الذئب الذي أسر في سـيكاندرا قبل ثلاثين حـولاً؛ هذا القس قـام بتخفيف القلق، فبالرغم مـن أنَّ بعض تصرفات هذا الصبي أشـارت لفترة طويلة إلى أنْ الآبـاء الذئاب غير مرغوب فيهم

من الناحية الخلقيـة؛ ولكن ماكلي استطاع أن يؤكد للمهتمين بأن الأسس الخلقية لهذا الصبي لم يمسسـها سـوء. إذ أغمض الصبي عينيه، قبل موته، وأتجـه نحـو السـماء بطريقة عوضت عـن عـدم تدينـه السـابق، ومن بين الرسـائل التي أرسلت إلى المحرر حول قصة صبي ميارانا وجدت رسائل احتجاج على قسوة العلماء في انتزاع هؤلاء الأطفال من أمهاتهم المتبنيات، ولكـن لم تتخـذ أية خطـوات بهذا الشـأن، ولربما كان ذلك بسـبب الجدل القانـوني الذي احتـدم بين جمعية منع القسـوة على الأطفـال، وجمعية منع القسوة على الحيوان. (م، 261، 262، 268، 264، 269).

أمـا قصة متـشردي ميدنابور الذيـن ربتهم الذئـــاب فقد جعلت كل القصص الأخرى أقزامًا بالنسبة لها. فقد ظهرت هذه القصة بصورة كاملة في مجلـة هاربرز في كانـون الثاني في 1941، بالرغم مـن أنها نشرت متفرقة قبل ذلك في صحف أخرى مثل ويستمنسـتر كازيـت، ونيويورك تايمس 1926.

كـما ظهرت واختفت في نـشرات علمية خلال اثنتي عـشر عامًا، ففي سـنة 1939 ملأت صفحات مجلة الامريكي الأسبوعية ووضحت بصور ملونـة، حاولـت هذه المجلـة أن تسـاعد قراءها الذين يجـدون صعوبة في القراءة بنشر الصور، ولكن رعاية مجـلة هاربرز وسمعتها العلمية وشهرة قصاصهـا الجديـد الدكتـور أرنولد جيزيـل رئيس القسـم العلاجي لعلم النفس التكويني في جامعة يل ألقت على هذه القصة مسوح الاحترام، كما أسبغ عليها أسلوب سردها الفريد مقامًا جماليًا نصرًا.

ويمكن تلخيص قصة الدكتور جيزيل كما يلي:

«في خريف 1912 كانت هناك ذئبة هندية ذات أثداء ممتلئة وعيون رقيقة بشكل غير طبيعي، وذات كيان دفأته كيمياء الامومة فتبنت طفلة هندية، وغذتها بالرضاعة». ويؤكد الدكتور جيزيل هنا أن التركيب الكيمائي لحليب الذئاب لا يختلف عن حليب باقي الفقريات. وقد تكيفت الطفلة بشكل ملحوظ لعادات الذئاب وتقاليدها. الأمر الذي لا يعتبر من السهولة بمكان لانعدام «الأثاث والكتب والسجاد والأطباق وآداب المائدة، تمامًا، وقد تغلبت الفتاة على كل هذه الصعوبات وتلاءمت بنجاح مع جميع المتطلبات المتعبة في حياة الذئاب»، «فعاشت دون أثاث وكتب وافترشت الأرض وتناولت طعامها دون ملاعق وسكاكين» و «تجاهلت بلطف انعدام آداب المائدة». ومسحت أردافها على الأرض نظافة، ونمت بينها وبين الذئاب ألفة غامضة أطلق عليها الدكتور جيزيل «روح الرفقة». وكانت تتبعهم في غزواتهم من أجل الطعام، وأصبحت ماهرة في أبعاد الحدأة عن جيف الخنازير وما شابه ذلك وأضافت نغمات عوائها البشري إلى ذلك العواء المرعب الذي تطلقه قطعان الذئاب على النجوم المرتجفة ثلاث مرات في الليلة في العاشرة والواحدة والثالثة ليلاً.

وتكيفها مع ما يدعوه الدكتور جيزيل «الطرق والعادات الذئبية» كان وما فتئ ملحوظًا، فتكيف عمودها الفقري ليلائم سيرها على الأطراف الأربع، وأخذ ضوء غريب ينبثق من عينيها ليلاً، ونمت أنيابها فأصبحت طويلة وحادة كالذئاب وكفت عن التعرق نهائيًا، وأخذت تلهث فيتدلى لسانها كلما سارت في الشمس.

وفي عـام 1919 تبنـت الذئبة نفسـها طفلة أخرى، وبطريقة مأسـاوية غـــير متوقعة، قتلت في عام 1920 فأصبح الطفـلان يتيمين للمرة الثانية فقام برعايتهما القس سـنغ من ميدنابور الذي لم يكشف عن تاريخ حياتهما لسـتة سنوات لكيلا يضير ذلك احتمالات زواجهما في المستقبل، وقد يظن المـرء أن موت الفتـاة الصغيرة وعـادات الكبرى الغريبة كانا كافيين لعدم تشـجيع أي خاطـب متدلـه. ولكـن اهتمام الرجـل (القـس) كان يلمس شغـــاف القلوب حقًا. (م 68، ص 184-189) (م67).

حدث موت الفتـاة الصغيرة في عام 1921 ولكن الفتاة الكبرى والتي أطلق عليها اسـم كمالا عاشـت حتى عام 1929 حيث كيفت نفسـها مرة أخـرى وبالتدريج مع الحياة البشرية، ولكنها اسـتمرت في عوائها الذئبي المعروف في الساعات العاشرة والواحدة والثالثة ليلاً، وقد لوحظت نغمة إنسـانية في صوتها في عـام 1922 عندما نادت السـيدة سـنغ بالكلمة - ما - (نصـف ماما)، وبمرور الزمن استعملت «الحـمام» بالرغم من أن هذه العـادة تعتـبر من منجزاتها المتأخرة، إذ ذكر القس سـنغ في رسـالة إلى بول سـكوايرز عام 1929 بأنها لم تستعمل «الحمام» ومن عباراته الكثيبة يمكننا أن نشك باستمرار أطوارها الغريبة من حيث تنظيف نفسها.

وفي عـام 1927 اسـتطاعت أن تسـمو عن الطـرق والعـادات الذئبية فكانـت تذهب إلى الكنيسـة بانتظام وإيـمان، وقـد أبدت تفوقًـا ملحوظًا عـلى صبي سـيكاندرا الآنف الذكر والـذي كان يقاطع مراسـيم القداس بالصراخ «اللعنة... اللعنة». وتشير هذه الظاهرة كما يقول الدكتور جيزيل إلى ضعف عقلية الصبي.

وفي عام 1927 أصبح سلوكها متماشيًا مع العرف، وعندما تكلمت أعطت الكلمات حقها، الأمر الذي لا نستطيع أن نصف به مؤرخي حياتها بكل انصاف - ولكن لسوء الحظ لم تستمر على ذلك طويلاً فقد سقطت صريعة المرض وتوفيت في الساعة الرابعة صباحًا في 14 تشرين الثاني 1929 (م237).

اعترف الدكتور جيزيل بأن تاريخ حياة الطفلتين المسهب لا يخلو من الخيال وتوارد الاحداث والاستقراء، كما اعترف بأن تقريره عن السنوات الأخيرة التي قضتها الطفلة في الميتم كان مستمدًا من مذكرات احتفظ بها القس سنغ واودعت عنده لنشرها للبروفسور زنج الذي استمر في صداقته للإنسان الوحشي بالرغم من أن زيف لوقا ظهر للعيان.

بينما كان هذا الكتاب العلمي يعد للنشر قام الدكتور جيزيل بتخفيف واسى نفاذ صبر الرأي العام بطبع كتاب عنوانه «الطفل الذئب والطفل الإنسان». ويحتوي على شرح مسهب للحادث مقترن بالصور الفوتوغرافية منها تصوير للأم الذئبة! وحفر خشبي للصورة ريموس ورومولوس الأخوين الاسطوريين اللذين بنيا روما بعدما ربتهما الذئاب. ويعترف جيزيل أنه أضطر لاستعمال هذه الصور لانعدام الصور الملائمة!

إن هذا المجلد لم يضف أية معلومات جديدة ولكنه يحتوي على مناقشة ممتعة عنوانها «هل يمكن ترويض طبائع الذئاب وعاداتها»؟

إن مجلة التايم التي لم يضق صدرها لهذه المشاكل تتبعت قصة أطفال الذئب بحيوية مألوفة وأجابت على السؤال الذي ورد آنفًا بالنفي، وأكد

محـرروا المجلة بـأن «الذئب وحتى القرد الذي ربي في ميتم القس سـنغ لا يستطيع أن يقتبس شخصية الإنسان» (م 302).

إن الحقائـق التي اسـتندت عليها هذه القصص الطويلة (شـأنها شـأن سرد الدكتـور جيزيـل ومجلـة العلـم الأمريكـي ومجلـة كورونيـت ومجلة الأمريكـي الأسـبوعية ومجلـة البيـت - إذ كان للقصـة انتشـار واسـع والحـق يقال)، نقول: إن هذه القصص اسـتمدت من مفكرة القس سـنغ والايضاحات والتعليقات التي أضفاهـا عليها البروفسـور زنج، ونشرها في عدة مقالات علمية.

ولقد كان الدكتو جيزيل متأكدًا من أن «البروفسور زنج قد تحقق عـدة مرات من كون القصة حقيقة فعلاً». ولربما كان للتعبير «تحقق عدة مرات» معطيات لا تنسب إليه دائمًا...

كتعبـير «الذئبي». إذ صرح البروفسـور زنج قبل أشـهر قليلة من نشر القصـة بأنه «لسـوء الحظ لم يسـتطع الاتصـال بالعلماء في الهنـد ليتأكد من صحـة القصـة»، ولكنـه أسرع فأضاف بأنه تحـدث إلى اثنين قد سـافرا في الماضي إلى الهند.

أمـا عندما حمي وطيس النقد الموجه إلى البروفسـور المحترم، فقد أصر بأنـه قضى ثلاث سـنوات وهو يراجع المراسـلات الضخمة مع عدد كبير مـن الناس!!! يبدو أن دراسـته لهذه المراسـلات لم تعطـه الفرصة الكافية لأن يراجـع أطلسًـا ليحدد موقع مدينـة ميدنابور، فاعتقد أنهـا مدينة تقع «في شمال الهند في منطقة مكتظة بالغابات التي تسرح فيها النمور وتمرح»،

ولكن الدكتور جيزيل شك على الأقل بهذه الحقيقة فلجأ إلى أطلس راند مكنيلي الذي حدد موقعها على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من كلكتا.

وقبل نشر المذكرات بزمن يسير بدأ التشكيك والتطاول على القصة يطلان برأسيهما القبيحين ووجد المؤلفون أنفسهم بحاجة إلى اسكات هؤلاء المتشككين الذين لا يتحلون بالمسؤولية، بشكل جازم وقاطع. وهكذا فعندما نشرت المذكرات 1942، ظهر بأنها مجهزة ومصدرة ببطارية من شهادات التأييد، ولكن لسوء حظ الكتاب لم يجد المشككون في هذه الشهادات بغيتهم، فلم يكن بين الذين أدلوا بشهاداتهم من عرف القس سنغ وسافر معه وهو ينشر كلمة الله في أدغال الهند، ولم يقروا بأنهم شاهدوا الأطفال عندما أسروا واستخلصوا من الذئاب، بالرغم من أن البروفسور زنغ صرح بجرأة بالغة «بوجود خمسة أشخاص شهدوا هذا الحادث المثير وشهدوا به». ولكنه لم يشر مطلقًا إلى أن وجود هؤلاء الخمسة أو شهاداتهم لا دليل عليها سوى القس وحده. كما أنه لم يوضح أن السجل كان سجل القس وحده، ولا يتضمن سوى أقوال القس وحده.

ومما يؤسف له أشد الأسف أنه لم يكن بين هؤلاء الخمسة من يدمن على المراسلات الضخمة التي شغلت البروفسور زنج ثلاث سنوات.

وعوضًا عن هؤلاء الشهود الخمسة قدم البروفسور زنج خمسة شهودًا آخرين لرواية القس ثلاثة منهم أساتذة جامعيون، أمَّا الآخرون فهما

مطران وحاكم كان يقطن مدينة ميدنابور. اعترف الأساتذة الثلاثة بأنهم لم يشاهدوا القس سنغ ولا أطفاله ولذلك فإن الشخصيات التي ألقت شهادتهم عليها الضوء كانت شخصياتهم هم وحدهم.

أمَّا الحاكم الذي كان يقطن مدنابور فقد أفاد بأنه يصدق القصة، وتكلم مع أشخاص عديدين شاهدوا كبرى الفتاتين عندما كانت تعيش في الميتم، وهكذا وقع عبء تأييد القصة على المطران والش؛ الذي صرح جازمًا بأنه رأى الفتاة الكبرى بعد مرور أربع سنوات على إنقاذها ولكنه لم يدع أنه تعرف على الذئبة بصورة شخصية، ورغمًا عن ذلك فقد أكد لنا بأنها كانت مسرورة للتجربة التي مرت بها.

وبعد أن فحص الطفلة، توصل إلى أن الذئاب لا تتمتع بروح النكتة و «ليس لها سوى أكل اللحم النيء».

كما أعلن بسرور بأن الوالدين الذئبين لم يعلما القاصرين ما يشين، ولقد شعر بأن هذه الحقيقة ذات صلة وثيقة بمفهوم الخطيئة الأصلية (م208).

وبالرغم من جمال هذه التأملات لم يعتبرها أصحاب المنطق ذات صلة بالموضوع، إن مراسلي البروفسور زنج وقصة البروفسور ويمين الحاكم واستطرادات المطران وتنبؤات الطبيب الذي كان يعالج كمالا على فراش الموت – كل ذلك ممتع للغاية وساحر جدًا، ولكن لا يبرهن على أن الذئاب قد تبنت وربت هذين الطفلين.

إن الدليل الوحيد هو المذكرات اليومية التي تعتمد على ملاحظات القس والتي كانت على وشك الانتهاء كما يخبرنا المؤلف في عام 1933

بالرغم من أن كبرى الفتاتين توفيت عام 1929 والصغرى قبلها بكثير، ولقد فشلت هذه المذكرات في إقناع قرائها بصدق روايتها رغمًا عن الوعود المثيرة بوجود إثبات ضمني في ثناياها، وتدعي المذكرات بأنها سجل يومي يبدأ من اكتشاف الأطفال في الميتم حتى نهاية حياتيهما، ولكن لم تكن في الحقيقة سوى نزر يسير من تبويبات غير منظمة يعوزها التسلسل التاريخي، وتتضمن على الأغلب تأملات في طبيعة هذا الحادث الإلهي، بل ينقض «دليله» الوحيد على صحة دعواه حينما يقول بأنه كان يعلم بأنهما طفلتا ذئبة حتى قبل أن يكتشفهما ليس هنا شك في أن القس ربي طفلة غريبة في الميتم، أنه كان أسوأ مصور فوتوغرافي عاش في زمانه، من المحتمل أنه وجد الأطفال في الغابة وعلى مرأى من الذئاب. ولكن مجلة الهند المصورة الأسبوعية والتي تتمتع بشهرة عالمية تقول إن هذه المنطقة لم تعرف الذئاب مطلقًا.

وعلاوة على ذلك فهناك تناقض واضح بين أحداث القصة كما سردها في بداية المذكرات وتلك التي سردها في نهايتها. وفوق كل هذا يثير ريبتنا وشكوكنا فشله في الحصول على شهادات من أولئك الذين كانوا معه عندما أسر الطفلتين بينما تجشم الكثير من العناء في الحصول على شهادات من أناس لا علاقة لهم بالموضوع إلا بأوهى الصلات!

وحتى لو كان الأطفال يعيشون في بيوت النمل حيث شوهدت بعض الذئاب فليس ذلك برهانًا موضوعيًا على أن هذه الذئاب قد ربت الأطفال فعلاً، لربما هرب الأطفال إلى هذا الكهف خوفًا، أو لربما عاشوا هناك مستقلين عن الذئاب.

والغريب الذي ادعاه القس أن هؤلاء الأطفال كان في استطاعتهم أن يطووا أجسامهم بشكل كرة.

وقد اتخذ هذا كبرهان ناصع على ذئبيتهم السابقة، يتمتع الأطفال عامة بعمود فقري مرن، وهذه الظاهرة ليست غريبة عند الأطفال فقد لوحظت في عشرات من دور الحضانة التي لم تعرف من الذئاب سوى الذئاب الواردة في قصة «ليلى والذئب».

الأمر الذي كان يجب ألَّا يغرب عن بال الدكتور جيزيل وهو الاختصاصي بالأطفال!!! والشيء الذي لا يمكن الدفاع عنه في هذه القصة هو الجهد الذي بذل في جمع الروايات المختلفة لهذه القصة التي تحاول أن تثبت أن الأطفال ربتهم الذئاب لأنهم سلكوا فيما بعد سلوكها، ولكن سلوكهم (كما وصف في هذه القصة) لم يشابه سلوك الذئاب العادية التي تمشي على الأربع أو أي صنف من الذئاب المألوفة، والدكتور جيزيل علامة في هذا الموضوع، بل أشبه ذئابًا خيالية موجودة في القصص فحسب ولا تمت إلى الذئاب الحقيقية إلا بأوهى الصلات، لقد وصفت بأنها تتجمع تركض بقطعان وتعوي حسب توقيت الساعة وينبعث من عيونها ضوء مخيف. ولقد اعتمد هذا الخط أحد الناشرين المعاصرين المشهورين الذي يعتبر هذه القصة دراسة إنسانية ممتعة لا تثمن.

وفي رأي أحد حكماء جامعة ييل وهو من ذوي الرواتب الباهظة أن القصة تشهد من جديد على قوة «الروح الإنسانية». ونادى حكيم آخر

بأن هـذه القصة تفتح لنا الأبواب لدراسـة أحـد مواضيع «علم الاجتماع الأساسية».

وهـذا لا شـك فيـه، ولكن هـذا الحكيم راجـع النص بسرعـة وأنشـأ الأسـاس لأفكاره الجديدة على رمال متحركـة. واقتفى أثره علماء آخرون دون أن يدركوا أن أطفال الذئاب كالآلهة يجب أن يخترعوا إذ لا وجود لهم دون أغراض وأهداف خاصة.

ولقـد كتبـت كتب مدرسـية مـن جديـد لكي تتضمـن هـذه الحقائق «الصحيحة» كما دوّن مجلدان ضخمان عن هذه النصوص، واحتوت معظم المجـلات والصحف المشـهورة على مقـال أو أكثر حول هـذه الأحداث، ولكن لم يتسـاءل أحد وسـط كل هذه الجلبة والضوضاء عن مدى صحة هذه القصص وواقعيتها. (م 257 - 262).

المرء يعجب أحيانًا للسبب الذي يدعو أية ذئبة تحترم نفسها لأن ترغب في تبني إنسان، إذا كان منطق البشر هكذا!!!

الفصل السادس:

قبيل الصيرورة

في صيف عام 1943 ازدادت نسبة الغيابات بين العاملات في المعامل الحربية الأميركية، بدرجة جعلت السلطات تشك في وجود مخطط تخريبي، فاستدعيت دائرة التحقيق الفدرالية (FBI). للنظر في الموضوع، وظهر بعد التحقيق أن ما يدفع النساء إلى الهروب من العمل مخاوف جنسية غريبة.

فبعضهن كان يخشى العقم كنتيجة للعمل في مكائن اللحام أو الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء، وخشي البعض الآخر العمل في المطارق الآلية خوفًا من سرطان الثدي، واخترع البعض مرضًا وهميًا جديدًا سمينه «مبايض الطارقات»، وهربت العشرات من النساء العاملات في آلات الاطفاء المعدة للطائرات عندما انطلقت اشاعة مفادها أن المادة التي تستعمل في هذه الادوات - تتراكلوريد الكاربون - تؤدي إلى الحمل، مثل هذا الرعب يشكل، ولا سيما الحالة الأخيرة، في الواقع وصفًا بليغًا لمدى الجهل السائد في العلوم الحياتية. فلقد لف الجنس بالغموض بدرجة أصبح فيها مرتعًا خصبًا للأوهام والخرافات (م، 303، م 313، م 225).

ويبدو أنَّ الاعتقاد، بإمكانية الاخصاب دون جماع، اعتقادٌ راسخ لدى النساء، الأمر الذي يقود بالتالي لظهور عدد كبير من الأساطير، ولعل أكثر هذه الأساطير انتشارًا، الأسطورة القائلة بأن النساء يحملن بعد الاستحمام في مغاسل سبق للرجال أن استعملوها - دون ضرورة للجماع - وفي بعض الحالات نجد مجال الأسطورة ينتقل إلى الحيوان، فيقتطف لنا الدكتور فشبين من مجلة بوسطن ترافلر حادثة عن فتاة «سيئة

الحظ»، ولدت أخطبوطًا؛ وأخرى من جريدة أوكلاهوما ديموكرات عن ممرضة ماتت «بألم فظيع» عندما لدغتها أفعى كانت تعيش في معدتها. فلقد وضع لها الطبيب نظامًا غذائيًا خاصًا فاضطرت الأفعى إلى لدغ مضيفتها جوعًا، ويقول الدكتور فشبين إن الاعتقاد السائد هو أن بيوض الأفاعي تبتلع لدى شرب الماء من خراطيم المياه في الحدائق. (م 24 ص 57) (م 62 ص 19 – 20).

إن الخيال في مثل هذه الأوهام واضح جدًا، فليس ثمة فكرة أقل منها شيوعًا في الميثولوجيا.

أمَّا الإتجاه الجديد لهذه الأساطير، فيتخذ شكلاً مختلفًا، ألا وهو الطهر والنقاوة. فلقد دخلت الرومانسية هذا الميدان، فجيمس كرود كاتب «نقي» وأشهر قصصه قصة كازان؛ وهي قصة كلب يدفعه حبه لسيدته ولكلبة أنثى إلى حافة الجنون، ولكن نبله يحل المشكلة، إذ يتفرغ في النهاية للكلبة بعد – أن يصاب بالعمى لشعوره بالإثم.

إذ كان عليه أن يحرسها لئلا يحدث لها ذلك، ولعل نبل سيدته يساوي نبل كازان إن لم يفقه. فهي تتنازل عنه لمحبوبته وتكتفي بإنسان فقط. (م 160 ص 358 – 369).

وهناك اعتقادٌ شائع أيضًا مفاده أنَّ النسل يرث صفات من زوج سابق لأمهم (غير أبيهم)، وتنطلق هذه الفكرة الخاطئة من مجال تربية الخيل بشكل خاص ولو أنها تتعدى هذا النطاق إلى البشر أيضًا، ولقد أسبغ عليها البعض صبغةً علمية فدعاها نظرية وأسماها تيلوجني.

إنَّ الفكرة قديمة جدًا وفي القرون الأخيرة اتسمت «بالعملية» بعد أن اعتقد «رومانس» و «داروين» أنها حقيقة فعلاً. ولقد «أكدها إثبات» قدمه اللورد مورتون إلى الجمعية الملكية عام 1920 حيث زاوج فرسًا كستنائية بكوا كا (نوع من الحمير الوحشية) وحصل من هذا الزواج على هجين. وبعد ذلك زاوج نفس الفرس الكستنائية الآنفة الذكر بحصان عربي أسود لثلاث مرات. وفي المرات الثلاث ولدت الفرس أمهارًا ظهرت عليها خطوط الكواكا... وبذلك «ثبت بشكل قاطع» أن خلايا الفرس الجنسية قد تأثرت بالكواكا.

ولقد قام البعض بإعادة تجربة مورتون في أواخر القرن التاسع عشر، فاستعمل فيها حمارًا وحشيًا (لانقراض الكواكا غير عابئ بأهميته العلمية).

والتجربة الثانية لم تفشل في الوصول إلى النتائج التي توصل إليها اللورد مورتون فحسب بل ثبتت خلطها بشكل قاطع. استعملت التجربة الجديدة ثلاثين مهرًا، ولقد ظهر -فيما بعد- أن كل الخيول التي تزاوجت مع الحمار الوحشي لم تظهر على أمهارها علامات الحمار الوحشي فيما بعد؛ بل أن فرسين تزاوجتا تزاوجًا نقيًا (كما أنها لم تر حمارًا وحشيا في حياتها) ظهر في نسلها أمهار تحمل خطوطًا لها شيء من الشبه بخطوط الحمار الوحشي. وهكذا يظهر أن الخطوط التي حملها نسل الفرس التي زاوجها اللورد مورتون، هي علامات طبيعية تظهر في نسل سلالات معينة من الخيول كسلالة الكاتيوار التي يستعملها الهنود الحمر؛ ويظهر أن الحصان الذي استعمله المورد موتون ينتمي إليها بشكل من أشكال القرابة (م 328).

ولعل المنطق يقودنا إلى القول: إننا إذا صحت نظرية التيلوجني هذه، نتوقع أن الأطفال الذين يولدون (بطريقة شرعية) لأبوين يميلون إلى أن يشابهوا آباءهم كلما تقادم العهد على الزواج. والملاحظة المباشرة للأطفال لا تؤيد هذا الاستنتاج.

وبعكس ما يحدث في تربية الحيوان حيث يحصل مربو الحيوان على أحسن النتائج لدى تزاوج حيواناتهم في أطار العائلة، يعتقد الناس أنه إذا استمرت عائلة ما في الزواج فيما بينها، فإن نسل العائلة سينحط في المدى البعيد.

فيقال لنا إذا استمرت عائلة ما بتزويج أبنائها وبناتها لبنات وأولاد الأعمام فسينحط أطفالهم بعد عدد من الأجيال.

أمَّا النتائج المستمدة من البيولوجي فلا تدل على ذلك، فالتزاوج ضمن الإطار العائلي يبرز الصفات الموجودة في العائلة، فقدر تزوج جارلس دارون ابنة خاله وكان الأطفال السبعة الذين انجيتهم رجالاً ونساء يتصفون بمواهب ومنجزات خارقة، أمَّا كليوباترا فكانت نتاج زيجات بين أخ وأخت لستة أجيال، وكلنا نتفق على أنها كانت بالغة الجمال والذكاء، وقد أنجبت شقيقة اللورد بايرون، الشاعر الشهير لبايرون نفسه طفلاً، وقد نشأ الطفل وكان شاذ السلوك وتعيسًا في حياته. ولكن ابنة بايرون، التي أنجبها من زوجته التي لم تكن من أقربائه، لم تختلف في شذوذها وتعاستها عن شقيقها غير الشرعي.

وإذا اتصفت عائلة ما بسمة ضعيفة كامنة – وهناك ملايين العائلات التي تمتلك الصفات الضعيفة الكامنة – فإن الاقتران الداخلي ضمن

العائلة يؤدي إلى ظهور هذه الصفة بشكل نقي. وبالإضافة إلى ذلك فإن الذي يتجرأ على خرق محرم على درجة من القوة كتحريم الزواج بالمحرمات يكون متصفًا بالقلق بالأساس، ولذلك فالجيل الناتج عن هذا الاقتران يرث صفات سيئة بحكم البيئة والوراثة.

يعتقد البشر بوجود عوامل كثيرة تؤثر على الطفل لدى التلقيح؛ منها سن الأبوين، وصحتهما الجسمية والعقلية، وغذاؤهما والجو، بل وحتى حالة العالم بأجمعه.

وهناك اعتقاد شائع بأنه إذا كان الأب ثملاً لدى التلقيح فإن الطفل سيكون ضعيف العقل. أمَّا البرهان الذي يقدمه هؤلاء فهو الأطفال ذوو العقول المتخلفة الذين لا يكفُّ آباؤهم عن السكر. وهذا في رأيهم كاف لدحض أي افتراض قد تعوزه اللياقة، ولكن التفسير المعقول لهذه الظاهرة هو أن الأب مدمن على الخمور لأنه متخلف عقليًا أصلاً ولذلك فإن أطفاله سيرثون ضعف العقل هذا.

ومن المعتقد أن أي حالة تكون موجودة لدى التلقيح تؤثر على الطفل فيما بعد فيتصف الأطفال غير الشرعيين -مثلاً- بشهرة حادة. كما يعتقد أنهم يتصفون بمواهب فنية، وقد أعلن جيمس جراهام عن «سريره السماوي» الشهير في «معبد البكارة» كدواء ناجح للعقم. إذ إن الفراش «محشو بشعر مستمد من ذيول فحول الخيول الإنكليزية الأصيلة والذي جمع بثمن باهظ». وينسب والتر شندي سوء حظ ابنه إلى حادثة جرت له مع زوجته. فقد سألته في اللحظة الحرجة أن يملأ ساعة الحائط،

وكان طلبها على غير علاقة بما كانا يفعلان الأمر الذي أدى بطفله ألَّا يستطيع متابعة أي تسلسل فكري منطقي، ويحدثنا «جتما تشر» عن امرأة استطاعت أن تثبت شرعية أبوّة طفلها بعد موت زوجها على أساس أنه: أولاً – أكل زوجها سمكة ليلة تلقيح الطفل. وثانيًا – أن الماء الذي يستحم فيه طفلها كان زنخًا دائمًا وتنبعث منه رائحة السمك. (م 86) (م 121) (م 164) (م 329).

أمَّا الادعاء القائل بأن للجو لدى التلقيح أثرًا في أخلاق الطفل فقد قدمه الدكتور وليام بيترسون بضجة صاخبة في كتابه «الجو والمصير». تدعى نظرية بترسون أن هنالك احتمالاً كبيرًا بأن يصلح الفرد قائدًا إذا تم تلقيحه في وقت يتصف برداءة الجو وفي الزوابع الناجمة عن الكلف الشمسية. ولقد كان برهانه الوحيد هو أبراهام لنكولن. فيقول: زرع أبراهام لنكولن في أحشاء أمه اللينة عندما كان المطر ينهمر مدرارًا في شتاء قاس مرير، وهذه الحالة أثرت على مزاج لنكولن فأصبح متعبًا باستمرار، متقلب المزاج، ذا حساسيةٍ بالغةٍ للجو والبشر. وإن انسجته كانت «قد تفاعلت إلى الجانب البنائي الحيوي وذات اتجاهات مؤكسدة بشكل عالٍ» الأمر الذي أدى إلى تجاوبه بانسجام الكون، ولقد تبلورت حساسيته العالية لتقلبات الجو في «الاستجابة اللاشعورية الصامتة للجماهير» وزودته هذه المواهب بالقدرة على التنبؤ فاستقطب ثقة البشر الذين عبروا له عن مشاعرهم الصامتة التي تصعب بلورتها. (م 141 ص 156، 157، 169 – 170).

ويتوارد إلى الذهن المتشكك أمران: الأول هو صعوبة تحديد الوقت الذي تم فيه تلقيح لينكولن. يشير مجرى الحوادث الاعتيادية إلى أنه قد تم تلقيحه في النصف الأخير من شهر أيار عام 1808 ولسوء حظ هذه النظرية فإن شهر أيار في ولاية كنتكي يعتبر من الأشهر ذات الجو الخلاب البديع، وهو ليس من أشهر الشتاء حتمًا، أما مذكرات الدكتور بترسون فتشير إلى هطول المطر الغزير في النصف الأول من هذا الشهر في لنكسنجتون والتي تبعد كثيرًا عن كنتكي. وبالرغم من ذلك، فإن القدر قد جعله يختار أسوأ الشهور ليبرهن فيه على غرضه هذا.

وإذا أثر الجو على لنكولن فيمكننا القول: إن جميع المواليد الذين لقحوا في تلك الليلة، وفي تلك المنطقة كانوا خاضعين لنفس هذه العوامل الجوية، ولو فرضنا أن مائة شخص قد ولدوا في نفس الوقت، ولو أن هذا الرقم يمكن أن يعتبر رقمًا قليلاً، فيجب أن يتمتعوا بصفات لنكولن نفسها. ولو فرضنا أن نصفهم فقط عاش في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، فلا بد أن دافعًا مدهشًا قد دفعهم بعيدًا عن الشهرة فأصبحوا نكرات، وإذا جادل البعض في أن لنكولن كان شخصًا خارقًا، وكان للجو لذلك تأثير خارق عليه لذلك استطعنا أن نوافق على الشطر الأول من هذه الإجابة، ولكننا لا نستطيع قبول الشطر الثاني منه، إذ لا يمكن إثباته أو نقضه.

وعندما «يقدم مئات الالوف من الرجال حياتهم في الحروب، فإن الاحصائيات تشير إلى ارتفاع نسبة المواليد الذكور». ولكن هناك شك في

هـذه الاحصائيات، بالرغم من أن الزيادة التي تدعيها ضئيلة لا تستحق الذكر. ومما لا شـك فيه أن هذه النظرية موضع تسـاؤل ولو كانت حقيقة (كما أشـار أحد المنشـورات الحديثة) فأنها «تؤكد على الاعتقاد القائل بأن «الطبيعة» تسـتعمل كل حيلة ووسـيلة لتسـاوي عدد الذكور مع الإناث، ولتنقذ العالم من الاكتظاظ بالنساء».

والذيـن يعتقـدون بوجـود مثـل هـذه الزيـادة خـلال وبعـد الحـرب العالمية الأولى ينسـبونها إلى «سـن الامهـات اللواتي يحملن وهن شـابات وإلى الـولادات البكـر بصورة عامة» وهي ظروف ترفع من نسـبة المواليد الذكـور. وتتحـدث مجلة التايـم عن هذا الاعتقـاد فتنسـبه «للعقول التي يقلقها انتشـار المـوت في عالمنا هذا». ثـم تداور وتصفـه بأنه من «قصص العجائز» ولكنها فجأة تضارب مـا قالته أكبر العجائز سـنًا فتربط ظروف الحرب بولادة توأمين ذكرين لسـوزي، وهي أنثى كنغر في حديقة حيوان فيلادلفيـا، فتقـول أنـــه «رقم قيـاسي في الولايات المتحدة لـولادة التوأم كنغر». (م 288، م 311، م 154).

وإذا كانـت الطبيعة الأم «مهتمة» لحفظ العـــالم من تسـلط النسـاء المرعـب؛ فقد أتيحت لها فرصة ممتازة لتثبت قدرتها عندما قام رجال جزر بتكرين بإفناء أنفسهم عام 1790 تاركين جون أدامس (ذا الاسم المستعار ألكسـاندر سـمت) كفحل الجزيرة الوحيد، وإذا أخذنا بهـذه النظرية فإن كابتـن فولكـر، الذي زار هذه الجزيرة عام 1808، كان ينبغي أن يجد زيادة هائلة في عدد الأطفال الذكور وهم يجلسون على ركبة هذا البحار العجوز

يتعلمون منه شتى الأمور، ولكن لم يلاحظ ذلك الكابتن فولكر؛ ولا السر توماس ستينز الذي زار هذه الجزيرة بعد خمس سنوات من زيارة فولكر. كما لم يلاحظ الكابتن بيبون أي انعدام في التناسب بين الذكور والإناث لسلالة «سمث - بتكرين». (م 165، م 166، م 329).

إن مثل هذه النظريات التي تتعلق بالتلقيح والوارثة ليست مضرة دائمًا بل هي وسائل لإيجاد مواضيع شيقة للحديث. ولكن الأمر ليس كذلك بصدد نظرية تعقيم[1] المجرمين، ففي أمريكا 28 ولاية تمارس قوانين التعقيم لأسباب متعددة، ولقد جرى تعقيم 27000 شخص في الولايات المتحدة منذ سن هذه القوانين (م 153)، وإذا كان هذا خطأ فإنَّه خطأ هائلٌ للغاية، ويجب الاعتراف بوجود مبررات جدِّية كثيرة لاعتباره خطأ.

إن معظمَ الناس الذين يدعون بإلحاح إلى تعقيم غير الصالحين يعنون بذلك غير الصالحين اجتماعيًا، ولكن غير الصالح اجتماعيًا لم يكن بالضرورة غير صالح جسميًا، لنأخذ قضية المرحوم غير المأسوف على شبابه جون دللنجر المجرم الشهير. فهو بالتأكيد لم يعط المجتمع أي مبرر للرغبة في الإكثار من أمثاله، ولكن لو كان قد قبض عليه، ولو كانت ولاية البنوى تمارس قوانين التعقيم، لطالب الناس بإلحاح بتعقيمه باعتباره «غير صالح»، ولكن هذا خطأ جسيم من الناحية البيولوجية، لأن معدن دللنجر كان معدنًا ممتازًا فكان ذكيًا شجاعًا قويًا ذا خيال واسع ومواهب قيادية ممتازة، ولكنه استعمل هذه المواهب ضد المجتمع وقام

(1) يقصد بالتعقيم إجراء عمليات جراحية على الناس لجعلهم عقماً لا ينجبون. المترجمان.

المجتمع بدوره بإزالته من الوجود، ولكن المجتمع تحمل خسارة لا يمكن التعويض عنها. فقد كان ديللنجر ربحًا كامنًا لو استغل بشكل صحيح.

إن مفهوم «غير الصالح» (كما وضح هولدين في دراساته لبعض الحالات في أمريكا) يعني الفقر فقط أو عدم إبداء الاحترام لحكام المحكمة، يشير شاينفلد إلى أن التعقيم بالجملة قد طبق على فتيات إحدى الإصلاحيات في كنساس لأن بعضهن كن يقاومن الحرس (م 82) (م 166)، وإذا كانت المقاومة تثير غضب هؤلاء الذين يمارسون السلطة، فإنها ليست برذيلة حسب دستور الولايات المتحدة، بل على العكس فإن روح المقاومة تدعو إلى الإعجاب، وهناك الكثيرون الذين يؤكدون على قيمة التعقيم، فيقولون بوجود أناس غير صالحين من الناحية الجسمية ويجب التخلص منهم دون تساؤل لخير المجتمع وذلك بإيقاف تكاثرهم، ولكن هنالك من يشك في هذه الدعوة، وهم الذين يخلو حديثهم من تعابير «دون تساؤل» فيطلبون البراهين الناصعة، والجواب الذي يتلقونه دائمًا هو «ضعاف العقول»، وإذا استمر الجدل وشرح لهم مدى غموض مفهوم «التخلف العقلي» وأثير موضوع غير الصالحين جسميًا فعلاً، كالبرص والبكم والمصروعين وذوي الأصابع القصيرة - فإنَّ الصمت يسيطر على المدافعين عن هذه النظرية. يطلب المتطرفون تعقيم هؤلاء مهما كان الأمر ولكن رجل الشارع الذي يتحدث في فراغ أو الذي لا يتردد في استعمال القسوة مع من يخيفه لا يريد «الإساءة إلى المنكوبين» أو القسوة عليهم.

وإذا استطعنا التفرقة بين الصالح وغير الصالح فإن مشكلة الإفناء ليست بالبساطة التي تبدو عليها لرجل الشارع. إذ يكمن الخطأ الأساسي لهذا الرأي في الاعتقاد بأن الذين يظهر فيهم النقص هم الوحيدون الذين يحملون هذا النقص وراثيًا، ولكن الواقع غير ذلك لسوء الحظ، فالصفات الوراثية السيئة متنحية في معظم الأحيان، ولو لم تكن كذلك لانقرضت البشرية، وهذا يعني وجود أفراد يبدون «طبيعيين» ولكنهم يحملون هذه الصفات الكامنة التي لا تظهر إلّا إذا تزوجوا من فتيات «طبيعيات» يحملن مثل هذه الصفات الكامنة أيضًا، فالمشكلة إذن ليست منع غير الطبيعيين من التكاثر بل منع جميع الناس الطبيعيين من ولادة أناس يحتمل أن يكونوا غير طبيعيين.

وتظهر صعوبة تطبيق ذلك بوضوح في كون معظم البرص مولودين لآباء طبيعيين، وكذلك هو الأمر بالنسبة للمتخلفين عقليًا.

وعلى العكس من ذلك فإن غير الطبيعيين يلدون أطفالاً طبيعيين إلا إذا اقترنوا بأزواج غير طبيعيين أيضًا إذ يتطلب الأمر شخصين لولادة غبي واحد، تحتوي كتب علم الاجتماع، التي تدرس في الجامعات على قصة ممتعة عن أحد أبطال الثورة الأميركية، فعندما ماتت زوجته الذكية والمقربة لقلبه انفلت من قيد التعقل وتزوج خادمة حانة، وتستمر الأسطورة فتقول: إن القرآن الأول أنجب ذرية تتمتع بالفضيلة والمقدرة وسمو الفكر، حتى أنهم وقفوا في صف طويل ينتظرون دورهم ليعينوا مطارنة وحكامًا وعمداء كليات ولكن الزواج الثاني أنجب منحرفين

ومعتوهين، والعظة من هذه القصة هي ذرة من الوقاية خير من قنطار علاج. وبالتالي لو عقم الزواج الثاني لتخلص المجتمع من مجمل عالات عليه، ولكن نقطة ضعف هذه القصة واضحة فلو كان أطفال الزوجة الثانية متخلفين عقليًا فإن صفة التخلف العقلي لا بد وأن تكون صفة وراثية متنحية لدى البطل نفسه.

وإذا سلّمنا جدلاً بوجوب تعقيمه فمن كان سينجب المطارنة والحكام والعمداء؟ (م 70، م 55، م 71، م 133، م 153).

ولكي نصل بالتعقيم إلى النتائج المرجوة، فعلينا إفناء كافة الذين يحملون الصفات الوراثية السيئة. وبما أننا لا نستطيع تمييزهم عن غيرهم حتى ينجبوا طفلاً ناقصًا، فعلينا إذن إفناء جميع الذين «يحتمل» أنهم يحملون مثل هذه الصفات، وهذا لا يقتصر على المجرمين والأغبياء البرص وأصحاب النزيف والبكم والصم والمصابين بالتشنج العضلي وغير ذلك من النواقص، بل جميع الذين لا تخلو عوائلهم من غير المرغوب فيهم. – وإذا تركت الفرصة للأقارب ليقرروا ذلك، فإن ذلك سيشمل جميع البشر.

الفصل السابع:

أصخ للجنـين

ما أن يولد مفهوم خاطئ في مخيلة الناس حتى يبدأ بالتوالد فينجب الكثير من الأوهام، وأهم هذه المعتقدات أن هنالك انطباعات تتري على الأم الحامل فتؤثر في الطفل قبل أن يولد، ولقد جرى الاعتقاد مؤخرًا أن للانطباعات المريحة الممتعة أثرًا مفيدًا في الطفل ولذلك فعلى الحامل أن تبقي نفسها في وضع مرح؛ فتنصت إلى الموسيقى الجيدة، وتتردد على متاحف الفنون الجميلة. ويقول «منكن» هناك اعتقاد بأن «الأم الحامل التي تجلس إلى البيانو كل يوم في أثناء حملها ستنجب طفلاً ذا مستقبل موسيقي ممتاز. وهذا جزء لا يتجزأ من مجمل المعتقدات الأمريكية». (م 136 ص 109).

ولكن هذا المعتقد يبدو لنا حديثًا. ويجده معظم الذين يؤمنون بالتأثيرات التي تمارس قبل الولادة على الطفل «تدليلاً». إذ إن التأثيرات هذه هي في رأيهم دائمًا تأثيرات سيئة. فيقول شكسبير في مسرحية «هنري السادس» إذا كانت الحامل في فترة حزن فإن دموعها قد «تغرق الجنين في الرحم». وإذا رأت شيئًا مرعبًا فإن طفلها سيكون وحشًا، أو تظهر فيه صفات تشبه ذلك الوحش المرعب. أما إذا كان وحامها بشيء لا يتوفر فقد يولد الطفل ناقصًا وهكذا دواليك. (م 163، 1623).

وليس هناك شيء يثير الرعب قدر ما تثيره هذه الأوهام، ولذلك فلم يسمح الملك «جاوبايه»، ملك سيام، لأول توأمين ملتصقين ولدا في سيام، بالظهور في الشوارع؛ لأنه اعتقد بأن منظرهما يؤثر تأثيرًا سيئًا على كل النساء الحوامل. كما أن الحكومة الفرنسية رفضت دخولهما إلى فرنسا لنفس السبب (م 76).

ولكـن هـذه المخـاوف لا يعوزها «الدليـل» أو «الإثبات» فإن الأدب الشـعبي يجمع بـين دفتيه قصصًـا لا حصر لها عن النسـاء اللـواتي ارتعين أثنـاء حملهن فولدن مخلوقات عجيبة. ولعل أشهر هذه القصص هي قصة السـيدة «جشوا توفتس» التي عاشـت في «جيلفورد» في ساري. ففي عام 1726 ادعـت بأنهـا ولدت عددًا من الأرانـب كنتيجة لإجفالها من أرنب أثناء حملها، ولقد اثبتت ادعاءها بأن عرضت على الملأ خمسـة عشر أرنبـًا، علاوة على شهادة «جون هاورد»، قابلة المقاطعة، والتي ادعت بأنها كانت موجودة عندما حدثت هذه الولادة الغريبة. ولقد اسـتدعي السيد «سنت أندريـه» الجـراح والمـشرح المرخـص من جلالـة الملـك، وصرح في مقاله الموسوم «سرد قصير لولادة أرانب غريبة في لندن 1727» بأنه ساعد المرأة في ولادة أرنبـين آخرين، ولقد أصبح هذا الأمـر حديث المجتمع إذ يعتبر عجيبًا حقًا حتى لو حدث لأرنب، ولذلك فقد أرسل جورج الأول طبيبه الخـاص «أهلرز» ليبحث الموضوع. ولكن أهلرز حصل على نصف أرنب فقط؛ وانسحب غاضبًا عندما شككت هاورد في قدراته المهنية.

ولذلك فقد أرسـل جراحان آخران للتحقيـق في القضية فأعلنا للملأ بعـد التحقيق بـأن القضية كلها كذبٌ في كذب، ولكـن الجمهور لم يقتنع، فقـد اسـتثارت معجزة جيلفورد خيـال الأوربيين لعدة سـنين، ولهذا فقد صدرتْ عدةُ كتب وعدة مناشـير ما بين مؤيد ومعارض، وحتى صدرت كتب مجلدة يجلد الأرانب للذين يحبون الكتب (م 329 ص 915 – 917). ولم يفـق هـذه القصـة أية قصة أخرى ممـا انتشر بعدهـا، ولكن الولادات الغريبـة هي جزء مـن فضائح كل قريـة معروفة، وفي نهاية القرن التاسـع

عشر بلغ المثقفون درجة من الشك حول الموضوع، ولكن التعبير عن هذا الشك كان في حاجة ماسةً للشجاعةِ الأدبية. إذ إن المجلات الطبية كانت تنوء بالمقالات والشهادات من أطباء أصروا بناء على خبراتهم وملاحظاتهم بأن تأثيرات ما قبل الولادة هي حقيقة لا جدال فيها، ولقد جمع «هافيلوك ألس»، الذي لم يشأ أن يصرف احتمال صحة مثل هذه الأحداث، قائمة طويلة لمثل هذه الشهادات في صفحات مجلة «لأنست» وهي خبر المجلات الطبية البريطانية. ولقد تطرقت هذه الشهادات إلى تشويهات جلدية على الأغلب، ولكن تخللها شيء من الوحوش وقصة ممتعة عن كلبة كسرت رجلها أثناء حملها وإذا يجروها بولد بثلاثة أرجل (م 175، م 294، م 295، م 296، م 297، م 299).

ولقد أعطيت في الماضي أهمية قصوى لوحام النساء حتى أصبح الوحام مرادفًا ودليلاً لا يرقاه الشك على حمل المرأة، واعتقد بأن المرأة إذا توحمت بشيء لا تستطيع أن تناله يولد طفلها ناقصًا. ولهذا فقد جرت بعض البلدان، كسياسة عامة، على إعطاء الحبالى حرية سرقة بعض الأشياء لكيلا يلقوا على المجتمع عبء ولادة أطفال مشوهين، فمن بين القوانين التي سنتها الثورة الفرنسية والتي أبطلها نابليون فيما بعد كان هنالك قانون يسمح للحبالى بالسرقة من مخازن الفواكه والخضروات والمآكل.

ولقد اعتبر الوحام، وخاصة إذا كان فاكهة أو خضروات موسمية غير متوفرة، دليلاً قاطعًا على الحمل. ولقد استعمل «ويستر» هذه الصيغة في تمثيلية «دوقة مالفي» وهكذا اعتبر وحام الدوقة في المشمس شيئًا يشبه

اختبار «أشيم - زوندك» الذي يثبت لأخوتها المتشككين انها حامل. وفي عام1814 ادعت «جوهانا سوث كوت» النبوة، كما ادعت بأنها حامل بالمسيح. ولكي تثبت دعواها التهمت مائة وستين رأسًا من «الأسبرج» في جلسة واحدة. حيث اعترف الناس بأن مثل هذه الرغبة الخارقة لمثل هذه الخضروات الباهظة الثمن لا يمكن أن تسبق إلا ولادة شخص بالغ الأهمية (م 330، م 190، م 329، م 184). أمَّا التنبؤ يجلس الطفل قبل الولادة عن طريق علامات معينة، فهو أمر يؤمن به الملايين ويوسع البعض تنبؤهم هذا إلى فراخ الدجاج، فهم يدعون بأن البيض المستطيل يفقس ديكة، بينما يفقس البيض المكور الدجاج، وقد علق على ذلك السير توماس براون بقوله «تستطيع التجارب دحض مثل هذا الرأي بيسر».

أمَّا بين البشر، فلقد جرى الاعتقاد أن موضع الجنين وحالة الأم الجسمية تدلان على طبيعة الوليد، فقد استفتى «جتماتشر» خمسين امرأة حاملاً في مستشفى جون هوبكنز ووجد بأنهن جميعًا تقريبًا كن يشعرن بأنهن يعرفن جنس أطفالهن قبل الولادة، فقالت بعض الأمهات، إذا رفس الطفل إلى اليمين فسيكون صبيًا، أما إذا رفس إلى اليسار فذلك دليل على أنه بنت، وإذا كانت بطن الأم مرتفعة إلى الأعلى فسيكون الوليد صبيًا، أما إذا كانت البطن متهدلة فسيكون الوليد بنتًا، وإذا تساقط شعر الأم أثناء الحمل فذلك دليل على أن الوليد صبي. وإذا توحمت الأم بالمآكل الحلوة فإن الوليد سيكون بنتًا، أما إذا كان الوحام بمآكل حامضة فإن الوليد سيكون صبيًا. وإذا تخوعت باكرًا في الحمل فإن الوليد سيكون صبيًا، فقد صرّحت إحدى المخضرمات بأن الصبيان يجعلونها تتقيأ كثيرًا.

لقد تداول الناس هذه الأوهام ما يزيد عن ألفين وخمسمئة سنة (2500)، ويعود تحديد جنس الوليد إلى خطأ ظهر عام 500 ق.م. ونشره «بارميدز» في إيلام (م 76).

وغالبًا ما يسمع الإنسان أن الطفل الذي يولد في الشهر السابع من الحمل سيعيش، بينما يموت الطفل الذي يولد في الشهر الثامن من الحمل. ويعود هذا الخطأ إلى أبقراط. كما أشير إليه في العدد الصادر في شباط 1944 من المجلة الطبية البريطانية؛ حيث نشرت بأن هذا الاعتقاد على درجة من الانتشار بحيث توجد ضرورة لدحضه، وإذا استثنينا الحالات التي يكون فيها الجنين أكبر مما يجب أو أنضج مما يجب، حيث يحتمل أن يجرح أثناء الولادة، فإن كل الدلائل تشير بأن الطفل كلما بقي في الرحم فترة أطول ازدادت احتلالات حياته، كما أن الاحصائيات الحياتية التي جمعت في كافة مناطق العالم تنقض هذا الرأي الذي لا يسنده شيء سوى سحرية الرقم سبعة (م 164، م 216، ص 276 م 118، ص 491).

وتشيع مفاهيم أخرى خاطئة حول الجماع والتلقيح، منها أن المرأة المصابة بالعنة مصابة بالعقم ايضًا. ومنها أن الذين يخصون لا يستطيعون انشاء علاقات جنسية ولا يمتلكون الرغبة، ومنها أن النساء لا يحملن أثناء الرضاعة فهن لذلك عاقرات حتى يفطمن طفلهن الرضيع.

ولقد أثبتت البحوث العالمية خطل الرأي الأول، أمَّا الثاني فقد كان موضوعًا لكثير من المزاح عبر القرون، وصيغة لتمثيلية ممتعة في الإنكليزية؛ تلك هي تمثيلية «الزوجة الريفية» تأليف «ويشلري». ولكن مع كل ذلك

لا نصيب لها من الصحة اطلاقًا. فالكثير من المخصيين يتمتعون بقدرة جنسية طبيعية. وإذا كان الاخصاء قد حدث بعد سن البلوغ فلا يؤثر على القدرة الجنسية أو الرغبة إلا قليلاً. (م 204)

ولقد جرى الاعتقاد بأن الأطفال يصرخون وهم في الرحم، ولكن بالرغم من الكثير من الحالات التي تطرقت إليها المجلات الطبية القديمة، فإن هذا الأمر مستحيل من كل ناحية، فلا يستطيع الطفل أن يصرخ إلا أثناء أو بعد الولادة، قد يصاب الجنين بالفواق، كما أن حركة الصدر التي تشبه التنفس قد لوحظت في حالات مبكرة بلغت حوالي الشهر الخامس. ولكن الأصوات تنجم عن مرور تيار من الهواء عبر الحنجرة، وبما أن الجنين مغلف في كيس مليء بالسائل ولذلك فليس ثمة هواء في داخل الرحم فإن هذه الحركة مهما كان مداها لا يمكن أن تنتج صراخًا. (م 284 ص 57، م 73، م 196، م 7).

إن الحديث عن «الطفل في الرحم» حديثٌ بلا معنى، ويعتقد الدكتور «فشبين» بأنه مضيعة للوقت، ولكن «الفرد جونز»، مدرس علم النفس في كلية هنتر، يعتقد أن العمل على تصيير أخلاق الطفل يجب أن يبدأ حالما يتكون جنينًا، فهو ينصح الأم الحامل «أن تتحدث مع طفلها فتخبره ما يجب أن يكون في المستقبل، كما يجب أن تخبره كيف يجب أن يكون صحيح الجسم» (م 221 ص 3).

أما عقم المرأة في أثناء الرضاعة فهو أمر ينقضه الملايين من الأخوة والأخوات الذين لا يتجاوز الفرق بين أعمارهم أو اعمارهن سنة واحدة،

إلا إذا أصرَّ البعض بأن الطفل الأكبر قد تمَّ فطامه خلال ثلاثة أشهر. مهما كان الأمر بالنسبة للبشر فليس ثمة شك بأن الحيوانات تحمل وهي ترضع، فأنثى كلب البحر مثلاً تحمل خلال ثلاثمائة وأربعة وستين يومًا في السنة أو أكثر في بعض الأحيان (م 76، م 148 ص 1).

وبالرغم من هذا، فالاعتقاد بأن البشر يختلفون في هذا السبيل عن الحيوانات أمر شائع فعلاً. وغالبًا ما تستمر الأمهات في إرضاع اطفالهن فترة طويلة لهذا الغرض، فتقوم نساء جزيرة تروبرياند بفطم الأطفال عندما يقول الطفل بوضوح إنه يفضل الأطعمة الصلبة. كما أن نساء الكنغو لا يفطمن أطفالهن قبل أن يبلغوا السنتين أو الثلاث من العمر. ويقول مسافر في جاوا بأنه رأى صبيانًا يلقون سجائرهم عندما يستعدون للرضاعة، ولكنه يعترف بأن الأطفال هناك يبدؤون التدخين مبكرًا (م 108، م 44 ص 224).

وفي المعتقدات الشعبية يلي الجماع، والتلقيح، والحمل، والولادة، والإرضاع، مشكلة الحيض والتي تكتنفها مختلف أنواع الأوهام شأنها شأن كافة فعاليات الأعضاء التناسلية، ولعل معظم هذه الأوهام يتعلق بالمحرمات الدينية القديمة فيعتقد بأن الجماع مع امرأة في أثناء الحيض يؤدي إلى مرض الرجل وإذا حدث الإخصاب فإن الطفل سيكون غبيًا أو مجنونًا. كما يعتقد البعض بأن للحيض أثرًا شريرًا فهو يكسر الزجاج ويفسد الحليب كما يفسد النبيذ ويتلف المخبوزات.

ولقد جرى الاعتقاد في الماضي بأن الحيض هو سبب السفلس والحصبة، أمَّا اليوم فالرعب ينحصر في الجنون. ولقد كان تحريم

الاستحمام أثناء الحيض في الماضي والذي لا يزال سائدًا اليوم في المناطق الريفية من الأسباب التي أعطت المحرمات الصحية اسنادًا جماليًا ولقد قيل إن سبب تخلف أطفال «كاترين دي مدتشي» عقليًا يكمن في أنهم لقحوا أثناء الحيض.

ولقد حاول الكثير، من الذين يعتبرون مراسيم وقواعد كتاب لفيتيكس أطروحةً ومصدرًا وثيقًا للقواعد الصحية العامة، تبرير المحرمات الموسوية على هذا الأساس، أما فرويد فقد اعتقد بأن هذا الوهم ناتج عن الرعب الخرافي من الدم، وأكد أنه يمكن استغلال هذا الخوف لأغراض صحية وجمالية.

وفي تلك الفترة، كانت هنالك مبالغة في تقدير كمية الدم المفقود، فيقول هوتن «لقد جرى الناس على المبالغة في تقدير كمية الدم المفقودة، اعتبروها من خصائص الدورة الشهرية للأنثى البشرية وكأن أثاث اللبائن الأخرى لا تتميز بهذه الظاهرة» فهي عقبة يتحمل عبؤها البشر فقط. وفي الحقيقة لا يتجاوز الدم المفقود أربعة ملاعق طعام (م 90 ص 292، م 154).

ويعتقد الكثير من النساء وبعض الأطباء أن على المرأة الابتعاد عن المثلجات أثناء الحيض، إذ أن ذلك «يجمد» الحيض. إن هذا المعتقد غريب إذ أنه يختلف عن بقية المعتقدات في أنه حديث الأصل إذ لم يتسن للناس الاستمتاع بالمآكل المثلجة إلا في الأزمنة الأخيرة، وبالرغم من هذا يبدو أن الفكرة قديمة فقد كانت المخاوف من «توقف» الحيض منتشرة انتشارًا

واسعًا في التشخيصات في الماضي (م 88 ص 44) (م 127 ص 211 – 220).

أما المخاوف من الأثر السيء للحيض على الموجودات القريبة، فقد شرحها «بلني» بثقته المعتادة فهو يقول: حالما تقترب امرأة في الحيض، يصبح اللبن أو الحليب حامضًا، وتصاب البذور بالعقم، والنباتات بالعطش، كما تسقط الفواكه من الأشجار. وإذا نظرت إلى مرآة كسرتها، أو إلى سكينة حادة ثلمتها، وهي تقتل النحل بنظرة واحدة؛ كما تجعل الحديد والنحاس يصدأ. وفي الفترة التي تلت بلني والتي بلغت ألفين وخمسمائة عام، أضيفت أمور وطرحت أمور أخرى إلى هذه القائمة ولكن الاعتقاد بشكله الأساسي لا زال سائدًا.

فتمنع النساء من الدخول إلى معامل العطور ومخازن النبيذ ومصافي السكر أثناء العادة الشهرية لئلا تتلف هذه المنتجات.

ولقد ادعى بعض «الباحثين» المحدثين وجود أساس لهذه المعتقدات، فلقد ادعوا اكتشاف مادة أطلقوا عليها اسم «مينو توكسين» وقالوا بأنها جزء من تعرق المرأة في فترة حيضها، كما ادعوا بأن هذه المادة سامة إلى درجة بأن أي مقدار مجهري منها يؤدي إلى النتائج التي سردت أعلاه. ولكن لسوء الحظ لم يستطع أي باحث آخر اكتشاف هذه المادة. (م 127)

ولقد حصر معظم العلماء بحوثهم في أثر «هذه السموم» على الموجودات الحية، ولكن ليس ثمة حاجة إلى «سموم غريبة» لتبرير الصحون المهشمة وقطع الكعك التالفة. إن النساء يصبحن سريعات التأثر قبيل وأثناء وبعيد الحيض، وعندما يصبح الرجال سريعي التأثر

هكذا، يجرحون أنفسهم أثناء الحلاقة ويصطدمون بعرباتهم ويخاصمون رؤساءهم ومرؤوسيهم، أما النساء فيهشمن الصحون ويصرخن بأطفالهن ويلجأن إلى البكاء لدى أقل استفزاز، كما يشعرن بالاضطهاد، فيتلف طبخهن بسبب أمزجتهن العصبية وليس في كل هذا أي تدخل غيبي، فالطبخُ يعتمد على تنسيق عدد من الفعاليات الدقيقة بظروفٍ صعبة للغاية وهو خيرُ نموذج لما يفسده أي توتر عصبي.

ويجري الاعتقاد على أن فترة الحيض تبدأ مبكرًا في المناطق الدافئة ومتأخرة في المناطق الباردة، وأنَّه من المستحيل أن تحمل الطفلة حتى تبدأ الحيض، وأنَّ الحيض محصور في البشر وهو يتوافق بشكل غامض سحري مع دوران القمر.

أمَّا بالنسبة للوهم الأول فيشير ستفنسن إلى ان فتيات الأسكمو يبدأن الحيض في نفس العمر الذي تبدأ فيه الاوروبيات، كما وجد مالينوفسكي أنه لا فرق بين فتيات التروبرياند (من المناطق الدافئة) والأمريكيات. (م 108، م 172).

أما الوهم الثاني فقد أثبت بطلانه عشرات من الطفلات التعيسات اللواتي يحلمن قبل الحيض. ولعل أشهر هذه الحالات الطفلة لينامدينا التي حملت قبيل سن الخامسة وولدت طفلاً صحيحًا وهي في سن الخامسة وثمانية أشهر في آذار في 1939 مستشفى الولادة في بير. وهناك الكثير من الحالات المشابهة المسجلة في المستشفيات (م 58، 31، 100، 142، 195، 10، 198).

ولقـد ردد البشر عبر القرون قول «بلني» أن أنثى البشر هي الوحيدة التـي تحيض، ولكن هذا القول مثل معظـم أقواله الأخرى خاطئ تمامًا، فـإن إنـاث كل القردة تحيض بالرغم من أن ذلـك لا يبدو للعيـان، إذ أن إنـاث القردة غالبًا ما تكون حوامـل (م 210). وهذا يلقي ضوءًا جديدًا على مشـكلة الحيـض والحمل، يمكـن اعتبار الحيـض من هـذه الزاوية «ظاهـرة غـير طبيعيـة» لكونها نتاجًـا للحضـارة، وقد يصبـح الحيض ظاهـرة نـادرة في الحالة الطبيعية، ولقـد كان النسـاء في حالتهن الطبيعية حتـى جيلين مضيا، حيـث كان الحيض يدعى بالرحمة بينما تطلق النسـاء اليوم عليه اسم اللعنة.

إذ حملت الملكة آن ما بين عام 1683 و1700 سبعة عشر طفلاً وما كان اختلافها عن بقية نسـاء عصرها إلا في أن أطفالها أما ولدوا ميتين أو ماتوا بعد الولادة بقليل. (م 187).

وليس ثمةَ مر يسند العلاقة بين دوران القمر والعادة الشهرية الاعتيادية سـوى طول فـترة كليهما. وربما كان هـذا خطأً ثقافيًا وليس خطأ سـوقيًا، إذ مـن غـير المحتمل أن تلاحظ المـرأة الاعتيادية التوافق بين طول الشـهر القمـري وطول العادة الشـهرية إلا في حالات نـادرة، وذلك في الحالات التـي تتوافق فيها دورتهـا الشـهرية مع دورة القمر، ولكـن المثقفين بلغوا شـأوا بعيدًا في تأملاتهم في هذا السـبيل. فيقول كرسـن، وهو الماني حالم، بأن العادة الشـهرية هي نتاج لعادة الرجل البدائي في صيد إناثه على ضوء القمـر، فحينما يتبعهن في الغابات على ضوء القمر، يهربن أمامه متهيجات

فينجم عن ذلك حساسية في المهبل تؤدي بالتالي إلى النزيف الذي أصبح فيما بعد حيضًا، هذه هي أحلام المتأملين.

أما مؤخرًا فقد استبدل الأساتذة «كن، وجنكين» التأملات الشعرية بالبحوث الاحصائية. فاستفتوا (10416) امرأة حول تأملات كرسن التي أضاءها القمر. ووجدوا بأن الحيض يحدث في أي يوم من أيام الشهر القمري بغض النظر عن دورة القمر، واستنتجوا من ذلك أنه «لا مبرر اطلاقًا لربط الحيض بدورة القمر». (م 75، م 74).

الفصل الثامن:

تصلبات الرمم

كان أكبر نصر صحفي (خلال الحرب الروسية الفنلندية) هو ذلك الذي يتعلق بالجنود الروس الذين تصلبوا بأوضاع الموت المخيفة والمختلفة فتجمدوا فورًا وهم يسقطون صرعى الموت. ولو لم يكن فهمنا خاطئًا لكل من الروس والموت، لما احتلت مثل هذه القصص هذه المساحة الشاسعة في أعمدة الصحف (م 37، م 241، م 265، م 279، م 301 ص 31).

ويبدو السخف الفاضح في مثل هذه القصص لأي شخص ذبح حتى ولو دجاجة في درجات حرارة دون الصفر. إنَّ جسم الإنسان يحتوي على غالون من الدم تقريبًا، وطالما كان الإنسان فإن درجة حرارة الدم تساوي 98 درجة فهرنهايت، وليس ثمة درجة حرارية معروفة في المختبر أو خارجه يمكن أن تجمد مثل هذه الكمية من الدم على مثل هذه الدرجة من الحرارة في لحظة واحدة، ولكي تتجمد سمكة ذهبية صغيرة يجب أن تهبط درجة الحرارة حواليها إلى 200° درجة مئوية تحت الصفر، ويتطلب الأمر لكي يحدث هذا بضعًا من الثواني مع العلم أن السمكةَ الذهبية أبرد من الروس بكثير في الأساس، ولذلك مهما كانت درجة سوء تغذية هؤلاء البلاشفة، ومهما كانت درجة تمزق ثيابهم عندما اصطدمت بهم طلقات الفنلنديين، كان لديهم من الزمن ما يكفي لأن يسترخوا قبل أن يقعوا فوق الأرض.

إنَّ الخيوطَ التي نسجتْ منها هذه القصص استمدتْ في الأساسِ من خوف الناس من الروس، ومن رعبهم من الموت ومن التصلبِ الرمي

الـذي يهجم، حسـب المعتقـد الشـعبي، على الميت فجـأة. يبـدأ التصلب الرمي الحقيقي استشراءه في الجسم تدريجيًا بعد 3 – 5 ساعات من الموت، ويسـتمر (عـادةً) ما بـين اثنتي عـشر إلى أربع وعشرين سـاعة ثـم يختفي تدريجيًـا حيث يترك الجسـم مرنًا مرة أخرى، وفي حـالات الموت العنيف يحـدث أحيانًا أنَّ تنقبض يد الميت، وتدعى هذه الحالة تشـنج الجثة، الأمر الـذي قد يبرر بعض القصص التي يسـمعها الإنسـان عـن قبضة القتيل. ولكن ذلك لا يحدث في الجسـم كله ولا يحدث في فرق كاملة من الجيش. (م 168، م 112).

إن هـذه الأوهـام التـي تتعلـق بالمـوت هـي حقائـق مقدسـة مخيفة لا يسـتطيع معظم البشر تحليلها بشـكل موضوعي لا انفعـالي ولكن هنالك من القصص مـا نستطيع تحليل بعضه في أكثر من فصل واحد.

لقـد اعتقـد الناس منذ القدم إن روح البـشر تفيض مع «هبوط المد» فتوفي السـير جون فولسـتاف[1] «مع هبوط المد تمامًـا» واجتاح «نـــداء البحر»[2] انوخ آردن ثلاث مائة عام بعد فولستاف. وهكذا طاف باركيز إلى الخلـود، وصرح أحـد الشـخصيات في قصة جـارلز دكينز الشـهيرة ديفـد كوبر فيلـد «إن الناس لا يموتـون على السـاحل إلا عندما يكون المد على وشـك الانحسار ولا يمكن أن يولدوا إلا لدى نهاية الجزر ولا يمكـن أن يولدوا بشـكل صحيح إلا لدى المدّ الـكلي. إن روحه تفيض

(1) فولستاف في مسرحية هنري الخامس، المشهد الثاني ص 13 – 14.

(2) تنيسون: عنوان القصيدة أنوخ آردن ص 901 – 908.

مع المدَّ... وإذا استطاع أن يعيش مع نزول المدَّ فسيبقى حيًا إلى نهاية المدِّ الجديد»[1].

ومن الوسائل الأدبية الأكثر رسوخًا مشكلة «حشرجة الموت». إن المؤلفين المبتدئين ليجدون أنفسهم تائهين دون حشرجة الموت، فيقول ملفيل بحزم كلنا نطلق «حشرجة الموت حينما نسلم الروح».

ولكن بالرغم من ملفيل يموت الكثيرون بلا نأمة، ويعيش الكثيرون بعد أن يطلقوا حشرجة الموت، إذ أن هذه الحشرجة ليست إلا ضربًا من ضروب الشخير أو الغرغرة التي تحدث نظرًا لانعدام السيطرة على التنفس، ولكن أي كاتب سيجد في نفسه من الشجاعة ما يكفي لأن يقول إنَّ بطله أو بطلته ماتت وهي تشخر أو تتغرر؟

ولسبب ما نجد أنَّ الموت غرقًا أصبح بؤرة الكثير من المفاهيم الخاطئة حولَ الموت، ومن هذه المفاهيم إن كل من يموت غرقًا «يرى حياته تمر أمامه» قبل الموت تمامًا وإن كل من يغطس المرة الثالثة يكون قد ذهب إلى الأبد، وهناك اعتقاد غريب آخر ورثناه من القدم خلاصته أن النساء الغارقات يطفن بعد الغرق ظهرهن إلى الأسفل ووجههن إلى الأعلى وأن الرجال الغرقى يولون وجوههم شطر القعر وظهر من شطر السماء.

أمَّا مرور حياة الانسان بكاملها قبل أن يغرق، فاعتقاد راسخ لاستحالة دحضه. إن تعريف الغريق المنطقي هو ذلك الشخص الذي يموت غرقًا فعلاً، ولذلك فنحن لا نستطيع قبول شهادة من ينقذ من الغرق إذ لا

(1) تشارلز دكينز، دفيد كوبر فيلد، فصل 30.

يمكن اعتبـــاره غريقًا، ولكننا إذا أخذنا بإفادة من أنقذ من الغرق، كان ذلك، كل ما لدى البشر من الأسسَ وليس هناك غيره مما يمكن أن يستند إليه، وهكذا نجد بأن هذا الاعتقاد لا يتمتع بأي أساس.

ولقـد أثـيرت هـذه المسـألة قبـل أعـوام مضـت في مجلـة «ملاحظات وأسـئلة» وقد أفاد العديد من الشهود أنهم فقدوا الوعي في الماء ثم أنقذوا وأعيـدت لهم الحيـاة عن طريق التنفـس الاصطناعي ولكنهـم لم يروا أي ملخص بصري لتاريخ حياتهم. (م 274، م 275، م 276).

إن كل من يكسـب لحظات من الشـهرة وبوصتين مـن أعمدة الصحف عـن طريـق إنقاذه مـن الغرق يصرح بأنه كان «سـيغطس للمـرة الثالثة لو لم يهرع بإنقاذه، من قام بإنفاذه في تلك اللحظة المناسـبة، ويتخذ هذا التصريح الشـكل الكلاسـيكي الآتي: (إني كنت أغطس للمرة الثالثة عندما أمسك بي منقذي ولو لم يكن موجودًا لكنت الآن في كفني في القبر». (م 225 ص 17).

إن تعـترف بأقل مـن هذا يعني أنك فعـلاً أقل من هذا طبعًا. سـتزرع الشـك في قلوب قرائك وسـيعتقد كل قارئ بأنك لم تكـن غريقًا فعلاً بل لم تكن سـوى جبان أرعبك هبوط رأسك تحت سطح الماء مرة واحدة، أو أسـوأ من كل هذا أنك لسـت سـوى ضحية تافهة منقذ متحمس، ولكن «المـرة الثالثـة» تفعل فعل السـحر في ضمك إلى قائمة الذيـن أشرفوا على الموت غرقًا.

أمَّا المعتقد الشـائع القائـل بأنَّ الغرقى يطوفون ووجههم إلى الأسـفل بينـما تطوف الغريقـات ووجههـن إلى الأعلى فهي فكرة تنسـب للطبيعة،

أمَّا الحكمة أو اللياقة بسذاجة تجعل من يسمعها لأول مرة لا يستطيع أن يدرك كيف أخذها الناس مأخذ الجد، وهكذا نرى أن مجلة التايم تقتبس من الكابتن كرونين، آمر دائرة المفقودين في مدينة نيويورك تصريحًا حول فتاة كان المعتقد أنها غرقت في النهر الشرقي حيث قال «إن هنالك احتمالاً كبيرًا انهم سيجدون جثتها طافية قريبًا. إن جثث كانون الثاني بدأت تطفو الآن، ولكن الجثث تطفو بشكل أسرع في الربيع، الرجال وجههم إلى الأسفل والنساء وجههن إلى الأعلى» (م 312).

وتنقلب هذه الوضعيات أحيانًا: النساء وجههن إلى الأسفل والرجال وجههم إلى الأعلى، ولكن مهما كانت الوضعية فهذه الفكرة تفترض الأدب أو اللياقة خاصة في الطبيعة، فمنذ أن زرع وردسورث في الفكر الشعبي معادلته حول الطبيعة والإله – الإله هي الطبيعة والطبيعة هي الإله ـ أصبح غير ممكن أن ندرك عدم اللياقة في الطبيعة، وبالرغم من أنَّ هذه النظرية لا تستطيع أن تقدم أي تقسيم في وضع الجسم بين الجنسين يمكن أن يتناسب مع أي مقاييس خلقية، مهما كانت متساهلة بالرغم وذلك فهذا المعتقد يستمر!!!

هناك قصص أخرى خاصة بأنواع أخرى من الموت، فلقد اعتقد الناس قديمًا أنَّ الإنسان الذي يسقط من علو شاهق يموت قبل أن يصل إلى الأرض، يموت بشكل غامض سحري لربما كانت سرعة سقوطه هي التي تقتله.

ولكن اختراع المظلة والرياضة التي أخذ بعض الناس ممارستها حيثُ يؤخرون فتح مظلاتهم عمدًا لألوف الأقدام قضى كل هذا على ذلك الاعتقاد.

ولكـن هنـاك فائدة في مناقشـة هذا الموضـوع بالرغم مـن اختفاء هذا المعتقد، إذ إنه يوضح بشـكل جلي كيف يصبح معتقد ما راسـخًا عندما لا تتوفـر الأدلة القاطعة لإثباته أو لنقضه، فكنَّا نسـمع بشـكل قاطع التأكيد «إنه لم يشـعر بارتطامه بالأرض مطلقًـا! إذ أنـه مات قبل وصوله الأرض بزمـان!» ولكن الذي يـسرد لنا هذا الحديث لم يكـن ليعرف أي شيء عن الموضوع، أمَّا الآن فنحن نعرف تمامًا انه كان مخطئًا حتمًا.

ويوضـح لنـا هـذا المعتقد أيضًا مـدى الصعوبـة التـي كان يعانيها من يحـاول دحـضَ هذا المعتقد لقلـة الأدلة تلك التي تتوفر لدينا بشـكل كبير اليـوم، ولولا اختراع المظلة لكان من المسـتحيل أن نختـبر هذه الفرضية، لأن الذين أكدوها افترضوا إن الارتفاع الذي يجب أن يلقي الإنسان نفسه منه يجب أن يؤدي إلى موته عندما يصل الأرض، ولكن المشـكلة اختبرت بالرغـم من هذا «بشيء مـن العناية». ولقد جمعت خيـوط من الأدلة التي أوحت حتى حينذاك أنَّ المعتقد خاطئ، فيشير أكرمان إلى قصة محزنة لصبي سـقط وهو يصرخ «أسفل ثلاث مرات» فهو كان ينذر أصدقاءه بالابتعاد عـن طريقه وبنفـس الوقت كان يحاول أن يثبت انه كان حيًا عند سـقوطه بالرغـم من قصر المدة». وكانت هنـاك قصة أخرى عن أحد عمال تنظيف شبابيك باريس الذي سقط من عمارة وكان يصرخ «أنني على أحسن حال إلى الآن» عنـدمـا مـر من شـباك الطابـق الثالث... ولكـن المجمع الطبي الفرنسي رفض هذا الدليل (م 240) (م 73 ص 705).

ولقـد تـداول الناس أيـام الحملات عـلى الكحـول معتقـدًا غريبًا ما زال يظهـر أحيانًـا بين الفينة والأخرى. وملخص هـذا المعتقد أن المدمنين

ينفجرون احيانًا انفجارًا ذاتيًا. فنجد أن تاجر المخلفات الشيخ كروك في قصة جارلز دكينز «الدار القفراء» ينفجر ذات يوم بعد حياة يعب فيها الخمر عبًا ولا يترك وراءه من أثر سوى «بقعة محترقة على الأرض وبخار خانق في غرفته وطبقة من الشحم تغطي السقف والحيطان» (م 1).

لا زال الكثير من البشر يؤمن ويؤكد بأن وزن الانسان يتبدل لحظة الممات. ولكن هؤلاء ينقسمون إلى قسمين مختلفين. اولئك الذين يؤمنون بأن الانسان يصبح أخف وزنًا بعد الموت وأولئك الذين يعتقدون انه يصبح أثقل وزنًا.

أما الذين يعتقدون أن الميت أخف من الحي فيبدو انهم يعتقدون أن الروح وزنًا، ولذلك فعندما يفقد الجسم روحه يفقد شيئًا من وزنه. فيدعون الطريقة نفسها، التي يمكن أن تعتبر جزءًا من صيغة هذه المناقشات أن هناك من مات وهو موضوع على الميزان، وقد لوحظ أن وزنه خف فعلاً لدى مفارقته الروح.

ولكن هؤلاء طبعًا لم يعطونا اسم المختبر الغريب الذي أجريت فيه هذه التجربة، أو أي دار تلك التي كانت مجهزة بمثل هذه الموازين الدقيقة، أو أسماء وعناوين هؤلاء الأقارب الذين وضعوا مشكورين فضولهم العلمي والديني فوق اهتمامهم العاطفي براحة قريبهم المحتضر.

ولقد كان في الماضي من اعتقد بأن للروح كتلة أيضًا، فنجد أن الفن المسيحي البدائي غالبًا ما عبر عن الموت ببالون يخرج من فم الميت محتويًا روحًا ذات شكل ما.

أمـا المعتقد الأشـيع فهـو ذلك الذي يتعلـق بالفكرة القائلـة بأن الميت يـزداد وزنًـا بعد المـوت، ولكن الحقيقـة تكمن في إدراكنـا للموضوع، إن جسـم الميت يبدو وكأنه قد ازداد وزنًا إننا نحمل أجسـامنا بسـهولة ويسر تجعلنا لا نشعر بالطاقة المبذولة فعلاً في حمل أجسامنا هذه، ولكن الانسان يشـعر بوطـأة ذلك الـوزن عندما يضطر إلى رفع شـخص آخر في الملمات، فإننا عند ذلك نشعر بثقل 200 ،300 رطلاً، وهي معدل وزن البشر وغالبًا ما ندهش ونعتبر أن ذلك الشـخص قد اتخذ وزنًـا جديدًا، إن الجثة أو أي طرف مقطوع ليصدمنا وزنه عندما نتناوله للمرة الاولى. والشخص الذي يلـوح بيديـه لا يدرك عادة أنه يرمي فيما حواليه ذراعًا تزن 20 رطلاً، وأي فتاة تنط راقصة على أنغام الموسيقى لا تدرك أنها ترمي حواليها ساقين تزن كل منهما 40 رطلاً، إنها تشعر بالرغبة في الرقص وحسب.

أمـا إنَّ الشـعر ينمو بعـد الموت فمعتقـد قبله بلني، وهـو رجل سريع التصديـق، وصموئيـل بتلر، وهو رجل بطيء التصديـق، ومئات الملايين من البشر الذين يتباينون في سرعة تصديقهم والذين عاشوا بينهما.

ومازال هذا المعتقد يطرح كحقيقة تستند بوصف ممتع للغاية لتوابيت فتحـت فوجدت محشـوة بالشـعر كأيـة أريكة من الطـراز القديـم، ولقد كتب الدكتور كالدويل من آيوا في سـجل نيويورك الطبي 1777 عن جثة اسـتخرجت حيث يقول إنه كان موجودًا، فلوحظ أن شـعر الميت ولحيته قد كسرت التابوت وظهرت من بين شقوقه، ويخبرنا كولد وبايل في كتابهما «Anomalies» عـن جثة كانت تحتاج إلى حلاقة في فترات منتظمة، ولكن

معظم الرواة قنعوا بنمو أقل من هذا بكثير. إذ أن نمو الشعر في الجثة معتقد يشبع شيئاً غامضًا في نفسية البشر، لذلك فأي إثبات على العكس لا يترك أي أثر ملحوظ في تحويل اقتناع الناس. (م 73 ص 523، م 238).

أننا نستطيع أن نفترض بشيء من الطمأنينة أن هناك القليل من البشر الذين قاموا بقياس طول شعر الجثث بانتظام، ولذلك فما يزيد عن 99 بالمائة من القصص التي نسمعها هي قصص مسموعة فحسب، أمَّا بالنسبة لهذا الأقل من الواحد بالمائة، فلربما كان هناك تبرير بسيط.

يحدث بعد الموت أن تتقلص الطبقة السفلى من الأدمة في جلد الإنسان، الأمر الذي يجعل الشعر ينتصب، وبالتالي يبدو أطول مما كان عليه في الماضي قليلاً. بنفس الطريقة يجعل تقلص جلد اليدين الأظافر تبدو وكأنها قد نمت، ولقد جادل البعض أنه قد يكون هناك أساس إذا أخذنا بالرأي القائل بأنَّ خلايا الشعر تستمر بوجود مستقل بعد أن يكون الجسد أو الكائن العضوي قد توقف عن الحياة، ولكن وقوف الدورة الدموية ووقوف التنفس، وبالتالي وقوف التغذية لا يعطي أي حياة للشعر بعد ثلاث ساعات على الأكثر، وهذه أقل بكثير من أن ينتج أي نمو ملحوظ.

أمَّا الانتحار فقد كان دائمًا بؤرة لمغالطات كثيرة، فقد عد هروبًا من المرض العضال أو الفقر المدقع أو العار المشين أو الحب المرفوض، ولقد يكون لكل واحد منها أثر، ولكن الانتحار بشكل عام هو الفصل الختامي لدراما نفسية بالغة التعقيد سداها ولحمتها الشعور بالإثم والعداء البالغ

وجوع مريض للشهرة. ويتصف التعبير القانوني «قتل النفس» بالكثير من الحكمة، فالأوراق التي يتركها المنتحرون مليئة عادة بالتعابير الحقودة حيث يكون مغزى معظم هذه القصاصات من الورق «سوف تندمون»، ولقد قال البعض إن الاجهاد في العمل سبب من أسباب الانتحار، ولكن الدراسات العلمية تشير إلى أن الانتحار بين العاطلين أكثر منه بين العاملين.

والصورة الاعتيادية التي ترسم عن المنتحر تتضمن وصفًا لشاب سوداوي ولربما كان شاعرًا أو محبًا لم يبلغ غايته فيشنق نفسه، أو يتناول السم الزعاف في غرفة مظلمة حقيرة في يوم من أيام الخريف الحزينة. أمَّا الاحصائيات فتشير إلى أن الانتحار بين المسنين أشيع منه بين الشباب؛ وأنه بين المصابين بالسمنة أكثر شيوعًا منه بين النحاف؛ وأنه في الربيع أكثر منه شيوعًا في الخريف؛ وأن فيينا «المرحة» وسانديغو «المشمسة» تسجل أعلى نسب للانتحار في العالم (م 53، م 123، م 102).

أمَّا الرأي القائل بأن هؤلاء الذين يهددون بالانتحار لا ينتحرون فعلاً فهو معتقد لا يفوق شيوعه سوى خطأه وخطره، إن كل من يهدد بالانتحار يحمل بذور إمكانية الانتحار، ويندر أن ينتحر من لم يهدد بالانتحار أولاً، أو أن يحاول الانتحار مرة أخرى فيفشل، قال المحقق العدلي المدينة نيويورك أنَّه إذا وجد شخص ما مذبوحًا، فالشرطة تبدأ في البحث عن الجروح السطحية غير المؤذية أولا لتقرر فيما إذا كان في الأمر جريمة أو انتحار، وتطلق على هذه الجروح الطفيفة اصطلاح «علائم التردد» وهي

تلك المحاولات التي يقوم بها المنتحر عندما يستجمع شجاعته للطعنة المينة (م 112).

أمّا القتل فله قصصه الخاصة به والممتعة غاية الإمتاع، فاعتقد الناس في الماضي أن جثة القتيل تنزفُ دمًا بحضور القاتل، ولكن هذا المعتقد قد تلاشى بالرغم من أن هوثرتك استعمل هذه الصيغة بكل جد عام 1860، كما أننا لا السمع اليوم عن رؤوس تنطق بعد أن تفصل عن جسمها إلا فيما ندر، ولكن ما زالت بالرغم من كل ذلك، كثير من الأساطير تعيش، ولعل أشيع هذه الأساطير أن الجريمة ستكتشف يوما ما، ولعل أساس هذه الأسطورة يكمن في المعتقد الذي يتضمن وجود قوة غيبية تحقق العدالة، وتكشف عن المجرمين فلا تدعهم يفلتون، ولكن إذا كانت مثل هذه القوة الغيبية موجودة فعلاً فلا بد انها قد أخذت إجازة في الفترة الأخيرة الماضية. أو على الأقل أخذت إجازة في مدينة شيكاغو حيث تصرح لجنة تحقيق شيكاغو أنَّ بين ما يزيد عن خمسة آلاف جريمة قتل اقترفت ما بين 1925 – 1943 لم يحل سوى أقل من نصفها. ولكن قد يظن أن سجل شيكاغو الشهيرة بالجريمة حالك السواد (م 217، م 306). وبجانب هذا الخطأ خطأٌ آخر، فهناك العديد من المدن في أمريكا ما يفوق شيكاغو في سواد سجلاتها. فهناك العديد من مدن الجنوب التي تسجل أرقامًا أعلى من جرائم شيكاغو ونيويورك في القتل، كما إنها لا تسجل في اكتشاف القتلى أرقامًا أفضل من تلك التي تمتلكها شيكاغو. (م 217، م 306).

ولقد قاد الوهم الشائع، في أنَّ الجير (النورة) المطفي يأكل الجثث فيذيبها، الكثير من القناة إلى حبل المشنقة لأن الجير المطفي في الحقيقة يحفظ الجثة من التلف والتفسخ ويبقيها صالحة ليستفيد منها المحقق العدلي لإثباته، وهكذا فقد اكتشفت ضحايا السيدة بل كينيس، في ولاية أنديانا، الأربع عشرة اللواتي دفن في الجبر المطفي أملاً منها في أن تذوب ولكنها خيبت ظنها فحينما استخرجت كانت محفوظة بحيث بات من السهل التعرف عليها. وأوسكار وايلد الذي أكد بأسلوبه الشعري بأن الجبر المطفي يأكل «اللحم نهارًا والعظام ليلاً» خدم هو نفسه في نقض هذه الفكرة، فعندما استخرجت جثته من الجير المطفي حيث دفنت بعد مرور عامين لوحظ بأن الجثة لا تزال محفوظة خالية من العطب (م 87، م 84).

ولكن القصص البوليسية والصحافة لا تزال تستفيد من الجير المطفي كوسيلة سهلة للتخلص من قرائن الجريمة، وإذا نبش المراسل الصحفي في مخيلته ولم يجد ما يملأ به عمودًا في صفحة الجريمة كان هناك الجير المطفي جاهزًا على الدوام.

وهكذا فإن السيد دوجلاس المراسل في مكتب باريس لجريدة شيكاغو سن عندما جوبه بمعسكر للاعتقال خالي الوفاض في قلعة زمنفيل هجره الألمان لدي انسحابهم. أشار هذا المراسل الهام بأن هذا المعسكر لم يكن سوى «مصنع موت لشهيدات فرنسا البطلات». أمَّا إنْ لم تكنْ هناك أي آثار لهذه البطلات فقد أثار الرعب حول الحادث إذ «لا شك في أنهن دفن في الجير المطفي». (م 223) (م 168).

وهنـاك اعتقاد غريب يتسـم بالحيوية المسـتديمة ويتلخـص بأن أعين القتـلى تحتفظ في شـبكتيها بشيء يشـبه الصورة الفوتغرافيـة للقاتل. ولقد استغلت هذه الفكرة في قصة «القبائلي» وصورت فيما بعد في فيلم «مولد امـة» كـما اسـتغل هـذه الفكرة الشـاعر كبلنـج في قصتـه القصـيرة «نهاية الطريـق» حيـث نرى أنَّ صاحـب هميل يموت لدى رؤيتـه لشيء غامض مرعب ومريع. ولكن الدكتور سـبرتو وهو شـخص عملي في هذه القصة يميـل إلى الاسـتخفاف بالعجائب الغيبية، يقـوم بتصوير عين القتيل لكي يكتشـف سـبب موته وعندما يحمص الرقوق الفتوغرافية يخرج من غرفة التصويـر متهاويًـا، وقد علا وجهه الشـحوب الشـديـد. أمـا ما هو ذلك الـشيء المرعب الذي قتل صاحب هميـل فلا نعلم لأن الدكتور يرفض أن يخبرنـا وبذلك ينقذ مؤلـف القصة إن لم ينقذ قارئها من هـذه الورطة، ولم تبق هـذه الأسـطورة في محيط الأدب فحسب بل تعدته إلى الواقع فيخبرنا الدكتور سـنايدر عن تحقيق اشـترك فيـه حيث قام القائل بإخفاء ملابسـه التـي كان يرتديهـا أثنـاء اقتراف الجريمـة لكيلا يتعرف إليـه الشرطة عن طريق اكتشاف صورته في عين القتيل! (فيلم عين القتيل 1945) (م 168).

هنالـك غـير ذلك من المعتقدات التـي تتعلق بجرائـم القتل والمحاكم والقانـون كالاعتقاد الشـائع بأن الحكم بالإعـدام لا يمكن أن يصدر على متهـم بالقتل إلا لدى اكتشـاف جثة القتيل، وفي هـذه المعتقدات أن المتهم لا يمكن أن يعدم اسـتنادًا على الأدلة المنطقية فحسـب، ومنها أنه إذا قطع حبل المشنقة أثناء تنفيذ حكم الإعدام يطلق سراح المتهم فورًا.

يستمد الخطأ في أول هذه المعتقدات من سوء فهم المصطلح القانوني الروماني (Crpus Delicti) والذي يعني «جسم القضية» أو عناصر الجريمة ففي الحريق المتعمد يمكن أن يكون جسم القضية بيتًا محروقًا تعبقه رائحة تثير الريبة كرائحة النفط، وفي سرقة الخيول يمكن أن يكون جسم القضية اصطبلاً فارغًا. أمَّا في الحليب المغشوش بالماء فيمكن أن يكون سمكه كما قال ثورو، أمَّا في حالة القتل فإن جثة تعلوها علامات العنف وجراح مميتة لا يمكن أن تكون ناجمة عن الانتحار يمكن أن تكون ببساطة جسم القضية، وهذا شيء مريح للمدعي العام إن وجد، ولكنه ليس شيئًا لا مناص منه لا صدار حكم قاطع. ناجمة عن (م 194) (م 18).

والحكم في هذه الحالة لا بد وأن يصدر بناء على الاستدلالات المنطقية، ولقد اصدار معظم أحكام الإعدام في الماضي استنادًا لهذه الاستدلالات المنطقية الرغم من الرأي الشائع الذي يدعي العكس. يقول ويكمور في كتابه القانوني الذي يعتبر مرجعًا في كليات الحقوق، هناك ثلاثة أنواع من الأدلة وهي: شهادة، رؤية العيان والاستدلالات المنطقية.

ولا يمكن لرؤية العيان إن تقدم كأدلة للمحكمة في جريمة قتل، فلو فرضنا أن هناك قاتلاً مجنونًا أصر على جر ضحيته إلى داخل قاعة المحكمة ثم سحب مسدسًا وأطلق عياراته النارية على ضحية أمام هيئة المحلفين والقاضي والشرطة فإن كل هؤلاء سيكونون شهودًا عندما تجري محاكمته وتكون الأدلة التي يقدمونها شهادة فقط، كما يمكن اعتبار الاعتراف شهادة على النفس.

وإذا قارنا بين الأدلة المستمدة عن طريق الشهادات والمستمدة من الاستدلالات المنطقية لوجدنا بأن الأخيرة هي أكثر اقناعًا، هذا على الأقل بالنسبة للحكام وغيرهم ممن مارسوا أعمالاً وضعتهم على احتكاك بشهادات الشهود، إذ أن الأحكام الجائرة التي صدرت على المتهمين كانت أسبابها على الأغلب شهادات الزور وللبروفسور بورشارد من جامعة يل رأي عرضه في كتابه «الحكم على الأبرياء» حيث قام بفحص 65 قضية تتعلق برجال ونساء ظهرت براءتهم بعد الحكم عليهم، يقول البروفسور: إن هذا ليس سوى عينة أو نموذج عشوائي من مئات القضايا التي حكم فيها على الأبرياء. واستنادًا إلى الوثائق التي يقدمها في كتابه هذا نجد أن معظم هؤلاء كانوا ضحايا شهادات الزور، فمن الخمس وستين هؤلاء لم يحكم إلا على أربع بناء على أدلةٍ منطقية. وفي ثماني حالات كان الحكم مستندًا على خليط من شهادات الشهود والاستدلالات المنطقية، أما بالنسبة للثلاث والخمسين حالة الباقية فكان الجميع ضحايا شهادات الزور والتصرف الخاطئ. (م 18).

إن كتابه مرعب ولا شك، ولكنه يثبت بأن الاستدلالات المنطقية تبدو وكأنها جبل شامخ إذا قورنت بالشهادة، ولذلك كان الذي يرعب المتهم ليس المنطق الملتوي بل شهادات الزور، إن الشبكة التي تنسج لاقتناص الأبرياء لا تنسج من المصادفات بل تستمد خيوطها من كذب المدعي العام وغباء هيئة المحلفين وانفعالها وتحيز الحكام.

تستعمل كلمة الاستدلالات المنطقية في الأدبِ الشائع وفي المناقشات حول الموضوعِ وكأنها مرادفةٌ للشكِ والريبة. ولكنها في الحقيقة شك على

درجة من القوة بحيث يستدعي اتخاذ الاجراءات المناسبة. فهيئة المحلفين ببوسطن مثلاً عندما وجدت البروفسور وبستر مذنبًا في جريمة قتل للأسباب التالية:

(أ) إنَّه كان مدينًا للدكتور باركمان.

(ب) إنَّ أسنانَ الدكتور باركمان الاصطناعية وجدت في فرنه.

(ج) بقية الدكتور باركمان لم توجد اطلاقًا في أي مكان.

حكمت هذه الهيئة على ويستر بناء على استدلالات منطقية فحسب ولكننا لا نستطيع أن نقول بأن شكوكها ليست في محلها. وهكذا كان الأمر بالنسبة لهيئة المحلفين الإنكليزية التي أرسلت السير جورج سميث إلى المشنقة لسبب بسيط، كما قال هو إنه كان سيء الحظ بحيث توفيت زوجاته الثلاث غرقًا في حوض الحمام حالما كتبن وصاياهن لمصلحته، وحالما أمن على حياتهن لمصلحته أيضًا. (م 139).

أما أن يُطلقَ سراح كل من يعتلي منصةَ الشنق ثم ينقطع حبل المشنقة به صدفة، فهي فكرة خاطئة استدامت لربما بسبب صيغة القانون القائل بأن لا يعاقب المرء على جريمة مرتين. والذي لا يفهمه العامة في هذا الشأن هو أن الحكم يكون عادة «حكمت المحكمة على فلان... بالشنق حتى الموت». فالمفروض إذن أن يشنق المجرم إلى أن يموت، لا أن تجرب فيه عملية الشنق، واعتلاء منصة المشنقة ليس هو الحكم بل الشنق حتى الموت. ولعل حادثة وليم اسحاق برفس التي وقعت عام 1894 قوت هذا الاعتقاد، فقد وضع على منصة المشنقة ثم انقطع الحبل فيه، وعندما

أراد الجلاد أن يعيد الكرة، تظاهر المتفرجون وهددوا بإيذاء الجلاد ومدير الشرطة وكل من له علاقة بالأمر. لأنهم اعتقدوا بأن إعادة الكرة ليس «عدلاً». عند ذلك أعيد برفرس إلى السجن وخلال الفترة التي مرت لاتخاذ قرار بشأنه؛ ظهرت براءته فأطلق سراحه ودفعت له الدولة خمسة آلاف دولار للتجربة التي مر بها (م 139).

الفصل التاسع:

القصة من الداخل

لقد نتج عن سوء فهم بعض الأمور في التشريح، والصحة والفسلجة (الحالة الفسيولوجية) الكثير من الازعاج والفوضى، ولذلك وجدنا أن نصف من يحاولون الانتحار، عن طريق طعن أنفسهم أو أطلاق النار على افئدتهم من «مارك أنتوني» إلى «هايدكي توجو»، يفشلون – لأنهم يجهلون موضع القلب وبالتالي يصيبون أنفسهم في الرئة أو البطن. ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يعتبر خطأ سوقيًا؛ إذ أنه ناجم عن الجهل المطبق وليس ناجمًا عن استنتاجات خاطئة أو مبالغات شاملة، كما أنها ليست نتاجًا لنظام غيبي. وقد ساند هذه الأمور عدد من الأطباء المرموقين إلى فترة قصيرة خلت. (م 168، م 24 ص 113).

وبالرغم من ذلك فإن معظم هذه الأخطاء من الغرابة بحيث تستحق إلقاء نظرة عجلى عليها.

ولقد كان الشعر لسبب ما مصدرًا للكثير من الأخطاء، فكان المعتقد أنَّ الشَعرَ على الصدر دليل القوةِ والرجولة. – ولربما كان ذلك مستمدًا من تشبيه الرجل المشعرِ بالغوريلا – بالرغم من أن الغوريلا في الواقع يفتقر إلى الشعر في صدره، حيث يكسو الشعر كتفيه وظهره وذراعيه وبطنه وساقيه ولكن لا شعر على صدره. (م 6، م 202).

ويعتقد علماء الحياة اليوم بأن الصلع هو المظهر الفعلي للرجولة في الواقع ولكن هذه الأنباء لم تصل إلى رجل الشارع بعد ولا زوجته (م 83). وحتى تصلها الأنباء، فما على الأصلع المسكين إلا أن يبعثر وقته، وماله،

وصبره، وراحته، بتجريب عشرات الوصفات التي يعلم -مسبقًا- أنَّها لا تجدي فتيلاً.

يطلب منه البعض أن يحلق لحيته باستمرار حلقًا ناعمًا لكيلا يتوزع غذاء بول الشعر فيتوجه كله إلى فروة رأسه، ويطلب منه الآخر أن يقصَّ شعر رأسه قَصًّا قصيرًا ليتركز الغذاء في مساحة أقل. وينصح بعض الحلاقين بحرق الشعر الحلاقة لكي يبقى «السائل الحيوي في مكانه». وهناك من يلومه على تبليل شعره باستمرار لأن ذلك يؤدي إلى تعفن جذوره. ويعتقد البعض الآخر بأن غطاء الرأس كان أضيق مما يجب. ويدعي آخرون بأن الصلع نتيجةً للإخلال بنظام خلقي سماوي يمكن تلخيصه بارتداء غطاء الرأس أثناء الطعام. إن كل هذه الأمور خاطئة حتمًا (باستثناء الأخير الذي لا نستطيع دحضه) ولكنها ليست بغير فائدة، ففيما بينهم يستطيع هؤلاء أن يجعلوا الأصلع المسكين في غاية السعادة عندما يفقد شعره فقدًا تامًا، وعند ذلك فقط يتركون وشأنه.

ومن أشيع المختلقات حول الشعر أن الرعب العنيف يجعل الشعر أبيض بين عشية وضحاها. ولقد وصف «لدفيك بملمانس» في كتابه المسلي «الحرب التي شنتها ضد الولايات المتحدة، حادثة تجمع كل عناصر الأسطورة بشكلها الكلاسيكي المجيد. يقول لنا: إنَّ قاربًا مليئًا بالبحارة وُجِدَ فجأةً وعن طريق المصادفة فوق مساقط شلالات نياغارا الهائلة، ولم يمنعه من الانقلاب عبر الشلال سوى صخرة صغيرة رسا عليها. ففي خلال الليلة التي اكتنفها الضباب عمل الشرطة ورجال الإطفاء ما في

وسعهم لإنقاذ هؤلاء الرجال من موت محقق. بينما كان الزورق يقترب إنشًا بعد إنش من حافة الهاوية، وعندما بدا نورُ الصباح وتمَّ إنقاذ البحارة قبل أنْ يتهاوى الزورق في الأعماق كانت شعور الجميع بيضاء (م 16).

لربما كان لليل دخل في الموضوع، إذ يبدو أن الشَّعر يصبح أبيض في النهار، ولربما كان تأثير الليل في سهولة ضياع قنينة صبغ الشعر تحت الظلامِ الحالك، ولكن تأملاتنا هذه تبدو ضعيفةً أمام الليل الجارف من الحوادث «الحقيقية» التي شرحت أو سردت في المجلات الطبية. يخبرنا «كولد وبايل» عن حطَّاب أفاق من نومه مذعورًا ليجد دبًا أشهب يقف فوق رأسه، وفي لحظة كان الرجل نفسه يتحول إلى أشهب من الرعب. وهناك قصة أخرى عن مقامر وضع كل ما يملك على ورقة واحدة وعندما أفاق وجد نفسه أبيض الشعر حزينًا، ولعل أكثر القصص رعبًا تلك القصص التي تروى عن أناس «انقلب شعرهم إلى أبيض فجأة بعد أن ماتوا». وفي ذلك نجد «أثر حياة طويلة مليئة بالرعب» (178).

ويستديم مثل هذا الوهم شأنه شأنَ إخفاء النعامة رأسها في الرمال لأنه وهم مفيد. إنه قمة الرعب، إنه ينقذنا من وصف لا نهاية له. لا تصف الرعب وتضيع جهدك في نقل المنظر المخيف، فما عليك إلا أن تقول: انقلب شعره أبيضًا بين عشية وضحاها.

ولقد وجد محررو مجلة «التايم» هذه الصيغة مفيدةً للغاية. فهم يؤكدون لنا بأن شعر «أرني بايل» أصبح رماديًا خلال الحملة الإفريقية بينما انقلب شعر مارشال الجو (كننجهام) «رماديًا فضيًا» (ربما كان ذلك

احترامًا لرتبته العسكرية). أما مكدانيل الذي شاهد «سقوط سنغافورة عن قرب» فقد انقلب شعر رأسه إلى «أبيض تقريبًا» بالرغم من أن مجلة التايم تعترفُ بأنه قد اكتسب أكثر من خيطٍ فضي خلال مشاهداته للرعب على ضفاف نهر «يانجتزي». وعندما تقدم الحلفاء نحو نهر الراين كان «بيرلوفال» قابعًا في برلين حيث انتشرت الإشاعة بأن شعره يتحول إلى المشيب بينما كانت ثلاث سنوات في سجن «سنغ» كافية لنفس الغرض بالنسبة لـ «جيمي هانيز».

إن معظمَ هذه القصص تحمل في ثناياها بذرةَ نقضها؛ وعلى الأقل تحليلاً معقولاً لها. وهكذا فإن صورة ماكدانيل التي نشرتها مجلة «التايم»، بشكل يدعونا إلى الإعجاب بصراحتها، كانت ترينا بأنه لا زال يحتفظ - بالكثير من السواد في شعره كذخيرة لتجارب الرعب المقبلة. أما صورة مارشال الجو، كنجهام، التي نشرت على الغلاف، فلم يكن يعلوها من الشيب إلا القليل على الصدغين، وكان عمر بير لوفال واحدًا وستون سنة عندما رويت عنه هذه الإشاعة. أما جيمي هانيز فقد كان يبلغ من العمر سبعًا وستين عامًا، وكل هذه الأعمار عندما يصلُها القديسون يكونون قد اكتسبوا ما يطلق عليه «بهالة من الشعر الأبيض». وإذا كان تحول شعر لوفال نتيجة للرعب الذي يقاسيه حول سلامته الشخصية (كما توحي مقالة التايم) فسيتملك الإنسان العجب لِمَ لمْ يصبح شعره أبيض قبل ثلاث سنوات حينما دبرت ونفذت ثلاث محاولات لاغتياله؟ (م 306، م 315) (م 320، م 316).

وبالرغم من الاهتمام العظيم بالشعر فيمكن أن يعتبر ثانويًا إذا قيسَ بالاهتمام بالطعام، فالعادات والتقاليد والدين والمشتهيات وما يشيع من ألوان الطعام، كلّها تلعبُ دورًا فعالاً بأطلاق النصائح فيما يجب أن يؤكل وما يجب ألّا يؤكل.

ويعتبر رجل الشارع ما يأكله غذاء معقولاً، وأي انحراف عنه لا يتعدى السفسطة أو العمل الكريه. وعندما يقرأ الإنسان -مثلاً- عما يأكله المكسيك من الديدان المقلية، والهنود من الكلاب والقرود، والإفريقيين من الجراد، واليابانيين والكثير من الأوروبيين من الدم المتجمد فهو يتخوع[1] ويشكر الله على ما أنعم به من طعام معقول مقبول. أما في الماضي فقد اعتبرت أعراف الديكة وألسنتها وجبة شهية، كما اعتبر البعض لحم الحمير وجبة أشهى، وأكل غيرهم بتلذذ أجنة الخنازير. ويعتبر رجل الشارع نفسه محظوظاً ويحمد ربه على عدم سماعه بهذه الأشياء.

وإذا نظر الناس إلى غذائهم وجدوا العجب، فثلث البشرية من المسلمين لا يلمسون لحم الخنزير الذي يعتبر وجبة فاخرة لدى الاوروبيين. وإذا أخذنا الحليب من الوجبة الحياتية، فإن شربه عمل لا يتصف بالأخلاق، حتى بين الذين يعتبرون الحليب طعاماً مستساغاً فإن هناك ملايين يفضلون حليب الخيول. ويعتبر الملايين من البشر لحم البقر محرماً، وإن لم يعتبروه كذلك فالكثير منهم يودون أن يستبدلوه بكبدة أو كرشة أو مصران.

(1) الكلمة بغدادية، وتعني «التقيؤ» وقد وجدناها، أقرب الى النص من كلمة «الغثيان».

إن هـذه التحديـدات التـي يفرضهـا الناس على أنفسـهم عـادةً تقللُ مـن أصناف الطعـام الذي يتناولونـه، ومن الناحية العمليـة يقللون حتى مـن هذه الأصناف بما يعتبرونه سـيئاً إذا خُلطَ مـع شيء آخر. فلقد جرى الاعتقـاد في المـاضي أنَّ تنـاولَ القرع والبوظة سـوية يـؤدي إلى الكوليرا، ولربما كان ذلك تعميماً خاطئاً ناتجاً عن هبوط درجة الحرارة لدى الإصابة بهـذا المـرض. وقد اعتقد البعض في الماضي، كما لا يـزال البعض يعتقد أن السمك واللبن، والمخلل، تركيبات خطرة على الصحة.

وهناك شبه إيمان ديني يرى ألا تؤكل النشويات والبروتينات معاً، بالرغم من أن الخبز يحمل البروتين والنشا معاً وكذلك الحليب. (م 177، 182).

وهنـاك أخطـاء وأوهـام تتعلـق بالجهـاز الهضمـي وفعالياتـه، يعتقد البعض بأن السمك مفيد للمفكرين، وإن الجوع المفاجئ يدل على الدودة الوحيدة. وأن الخوف يشفي الفواق وإن الإمساك يسبب التسمم الذاتي.

إن الدماغ يحتوي على الفسـفور وكذلـك لحم السمك، ولكن الفسفور في الدماغ لا يحتاج لأن يزاد باستمرار، وإن كانت ثمة حاجة له فليس هناك دليـل على أن السـمك هو الطعام الوحيـد الذي يؤدي هذا الغرض، ولعل هـذا الاعتقاد يسـتمد جـذوره في كون السـمك غـذاء رجـال الدين وهم الذين كانوا أصحاب الاحتكار لكل العمل الفكري خلال القرون الماضية.

أمَّا الدودة الوحيدة، فالنظرية الشـائعة بشـأنها أنها تـأكل معظم طعام ضحيتهـا بحيث يشـكو مـن الجوع باسـتمرار. أمَّا في الحقيقة فـإن الدودة الوحيـدة تـأكل قليلاً جداً مـن الطعام، وليس لها أعـراض إطلاقاً، ولكن

الناس يشعرون بالتخوع لدى علمهم بوجودها في أحشائهم. إن الجوع الدائم هو من أعراض البول السكري.

أمّا الفواق فهو تشنجات في الحجاب الحاجز تنتج عن عدة أسباب منها سوء الهضم، والغازات في المعدة والأمعاء، ومنها الكحول وأمراض القلب والحمل وذات الجنب، وبعض الأمراض العصبية، والتهاب الحجاب الحاجز نفسه. ولقد قيل بأن الرعب العنيف المفاجئ قد يؤدي إلى الإجهاض. بهذا الشكل يزيل الرعب واحداً من الأسباب الموجبة للفواق فقط. ولكن الأسباب الأخرى لا تستجيب لمثل هذا العلاج. -على الرغم من ذلك- فلهذا الوهم عشاقه وحتى شهيده في شخص «جون مينن» الذي أشعل النار في ثيابه لكي يتخلص من الفواق ولكنه من تخلص من حياته بدلاً من ذلك. (م 329، 184).

ومن المزعج في أمر الفواق أنه يتوقف بعد فترة وجيزة، وعلى المصاب أن يتحمل بعد تخلصه من الفواق لغو الذين أرعبوه لكي يتخلص من الفواق نهائياً.

أمّا التسمم الذاتي فهو أحد الأوهام الحديثة الهائلة. ومفاد هذه النظرية، كما شرحت عبر الأثير، أن الجسم يمتص من الأمعاء المليئة سموماً كان من الواجب أن تطرد خارج الجسم. ولكن الكثير من علماء الفسلجة يتمسكون بالرأي المعاكس تماماً؛ فهم يقولون: بأن احتمال التسمم من الأمعاء الغليظة -هو في الواقع- أكبر عندما يتناول الإنسان الملينات والمسهلات، إذ إنها تحرك محتويات الأمعاء الدقيقة بأسرع مما

يفيد الجسم. وحين ذاك يكون الغذاء ونسبة الماء في القولون أكثر مما يجب فتعطى للبكتريا إمكانية النمو والتكاثر بسرعة أكبر (م 11).

ومن أكثر الأوهام شيوعاً بخصوص الطعام، الاعتقاد بأن لبعض الأغذية خصائص إثارة الرغبة الجنسية. ولكن إذا وضعنا جانباً محاليل الكانثريد التي يجب أن تعتبر مواد أكثر إيلاماً منها إثارة للإحساسات الجنسية، فهناك شكٌ بوجود أي أثر من هذا القبيل. تعتبر الكحوليات من الأمور المهيجة جنسياً؛ ولكنها في الواقع ذات فعالية عكسية فهي تقلل الطاقة الجنسية فسلجياً، ولكنها تقلل التخوف من النتائج، أو تقلل من الحذر (م 77، ص 123).

وبالرغم من هذا فقد اعتبر الكثير من المأكولات مهيجات طبيعية. ففي الماضي كان البصل مفضلاً أما اليوم فلا يعتبر أحد البصل من المهيجات الجنسية. وفي العصر الاليزابثي نسبت هذه القوة لعدد هائل من الأغذية؛ بحيث يشك الإنسان أن كل ما كانت تدعو الحاجة إليه في ذلك العصر الخصب، والجائع في الوقت نفسه، هو وجبة غنية، وقد اعتبرت البطاطس والتبغ وما شاكل ذلك من المثيرات للجنس. أمّا المشمش المجفف (القيسي)، فقد كان له القدح المعلى بحيث وزع مجاناً في دور البغاء. وفي العصر الحديث يتبع الناس وصفة كازنوفا التي تتخلص بتناول المحار، ولكن هناك من يضع ثقته في البيض النيء (م 319).

وهناك رأي آخر مفاده أن لنترات البوتاسيوم فعالية معاكسة فهو مهدئ. وهكذا فهو يدخل سراً في غذاء طلبة الكليات والمدارس

الثانويـة والسجون حيث يعتقد أن الدوافع الجنسية تفوق في طاقتها مجال التحكم. ومن المعقول أن نؤكد أنه ليس ثمة مدرسة داخلية في الغرب لا يرسخ فيها هذا الوهم. ولكن بالنسبة للمخيمات الكشفية والسجون وما شاكلها والإجهاد الجسمي يصل درجة تنتفي فيها أية حاجة للمهدئات. وأمـا إذا دس ملـح نـترات البوتاسـيوم فعـلاً في طعـام طلبـة المـدارس الداخليـة فإن المزاج الطاغي لدى الطلبة ينفـي حتماً صحة هذه المؤثرات المنسوبة إليها.

إن الاعتقـاد بتأثير المهيجات يمكن أن يسـتند إلى الرغبة اللاشـعورية لتحقيـق النـوازع المحرمة دون ضرورة تحمل مسـؤوليتها الخلقية. وهناك التزام مشـابه لهذا المفهوم بالنسبة لكل العقاقير. وتقوم الصحافة بتضخيم هـذه الأمور فتعمد إلى الإثارة وتعميم الأوهـام والمبالغات. ولقد أدمنت الصحـف والمجلات قبـل بضع سـنين عـلى الحشـيش (كموضوع للنشر طبعـاً). وهكذا فقد باعوا مجلاتهـم بنشرهم أحلام عن فتيـات الثانويات اللـواتي يطلقـن لأنفسـهن العنـان في حفـلات حمراء صاخبـة وهن تحت تأثير الحشـيش. ولقد اعتبر بائعو الحشيش سبباً لنصف التحلل الخلقي في أمريكا. كتبت مجلة المختار مقالاً تشير فيـه إلى أن حوادث القتل والانتحار والسرقات والسـطو تحت تأثير الحشـيش لا يمكن أخذها لكثرتها إلا على سبيل التقدير (278، 211، 290) (247، 239).

ولربـما أهتم محررو مجلة المختار وقراؤها بتقدير معين وذلك هو تقدير الدكتور «سـنايدر»؛ المدير الطبي القانوني لشرطة ولاية مشـغن؛ إذ يقول:

خـلال مـدة خدمته كان عدد الحوادث التي من هــذا القبيل صفراً. ولقد اجريت دراسـة واسـعة حول هـذا الموضـوع، قامت بها لجنـة خاصة من أطباء مدينـة نيويورك، فتوصلت إلى نفس النتائـج. ولكن العدالة تقتضي أن نشـير إلى أنَّ مجلة رابطة الأطباء الامريكية كتبت مقالاً افتتاحياً هاجمت فيـه النتائج التي توصلت إليها هذه اللجنة. مثل هذا الجدل يوضح لنا أن النتائـج في هذا الموضوع ليسـت قطعية بالشـكل الـذي توحي به مقالات الجرائد والمجلات (م 117، م 168).

وهنـاك عـدد من الأوهـام التـي تتعلـق بعقاقير أخـرى يدمـن عليها الجمهـور أقــل فاعلية مما مـضى ذكره. يعتقـد مثلاً بأن الشـاي أصح من القهـوة بالرغـم مـن أن كليهما يحتوي على نفس النسـبة مـن المنبهات، كما يعتقد بأن التدخين يقلل التوتر وان الكحول منبه.

إنَّ التبـغ يعمـل كمنبـه أولاً ثم يخفـض الفعالية الجسـمية، ومن نتائج التدخين عدد من الأمور، منهـا سرعة الانزعاج والقلق والنسيان والأرق وألم الرأس والتعب والانحطاط العام فيؤدي حتى تدخين سـيجارتين إلى خفض قدرة التنبه بشـكل يمكن قياسـه كما يؤدي إلى زيادة بينـة بالتشـنج (م 93، 122، 176).

أما الأثر الآني للكحول فهو التنبيه، ولكن أثره العام مسـكّنٌ في الواقع. حيث تنخفض فعالية الجهاز العصبي مما يؤدي إلى الدوار، ويبدو عليـه أثر التنبيه إذ أن من فعاليات الكحول منع أجزاء معينة من الجهاز العصبي عن العمل مما يؤدي إلى انطلاق الإنسان وتحرره من القيود الاجتماعية (م 77).

ولكن يجب أن نضيف بأن الكحول لم تكن بتلك الدرجة من الضرر التي يود بعض الناس أن يجعلونا نعتقد بها. ففي رأي الأطباء أن أمراض الإدمان على الكحول المزمن ليست سوى «اضطرابات غذائية في الأساس». وهم يعترفون بأن هنالك إصابات عالية بتشمع الكبد بين المدمنين على الخمور، ولكنهم يقولون: إن هناك عدداً هائلاً من المصابين بتشمع الكبد ممن لم يلمسوا الخمرة في حياتهم. ويضيفون إنه ليس لديهم دليل على المسببات الفعلية التشمع الكبد حتى الآن. ويقول هؤلاء الأطباء بأن الكحول ضارة للمصابين بالقرحة المعوية ولكنهم لا يعتقدون بأن الكحول هي المسبب الفعلي للقرحة. كما وجدوا بأن تصلبَّ الشرايين والسرطان أندر وجوداً بين المدمنين على الكحول منه بين البشر عامة في نفس السن. ولربما كان رابيله محقاً حينما قال «السكيرون المسنون أكثر من الأطباء المسنين». (م 77، 49، 48).

ويعتقد بعض السكيرين القدامى بأن طول عمرهم يرجع إلى كثرة الكحول في دمهم بحيث أصبحوا ذوي مناعة ضد العدوى. من المعتقد أن المشروبات الروحية من المعقمات وإنَّ الدم يمتصها بكل طاقتها، ولكن كلا المعتقدين وهم باطل. فالكحول لا يمكن أن تشرب كما لا يمكن أن يمتصها الدم بأي قوة أو تركيز تكفي لقتل الجراثيم (م 62، 78).

وبشكل تسوده الفوضى الفكرية يكمن هذا المفهوم وراء الرأي القائل بأن الويسكي مفيد كدواء للدغات الأفاعي. ولكن العكس هو الصحيح إذ أنَّ الويسكي يزيد من ضربات القلب، وبالتالي يزيد سرعة دوران الدم

وذلك يؤدي إلى سرعة انتشار السم في الجسم. كما يعتقد البعض، كامتداد لهذا المفهوم الخاطئ، أن وجود الكحول في الدم هو ترياق لأي سم فنقرأ في مجلة النيويورك أنَّ رجلاً لدغته عنكبوت الأرملة السوداء القاتلة ولكنه كان «لحسن الحظ مدمناً على الخمور فقذف كل ما في جوفه من السم الذي يقتل حتماً من لا يمس الخمور»(م 77، 255).

ويتسم الاعتقاد القائل بان قليلا من الزيت الذي يتناوله الانسان قبل أن يبدأ بتناول المشروبات يمنع السكر. وقد استمد بلوتارك هذا الرأي من كلوديوس، طبيبه الخاص. ولقد كان الزيت في تلك الأيام زيت اللوز المر، أما اليوم فهو زيت الزيتون أو الزيوت المعدنية، وهناك من ينصح باستعمال الزبدة.

وهناك نظرية حديثة تقول بأن الزيت ينتشر على جدار المعدة بطبقة خفيفة تمنع امتصاص الكحول - وإذا كان ذلك صحيحاً فإن أي زيت يتناوله الإنسان مع أي وجبة يجب أن يؤدي إلى نفس النتيجة. وهذا مما يمنع عملية الهضم تماماً أما النظرية القديمة فقد قالت بأن الزيت يشكل طبقة على الكحول. وبذلك يمنع تبخر الكحول إلى الدماغ (م 24، 77، 136).

ويحتل الجهاز التنفسي مقاماً ثالثاً بعد الجهازين التناسلي والهضمي. وتتجمع معظم الأوهام حول الرشح الذي يعتقد رجل الشارع أنه يتسبب عن التعرض للبرد. أمَّا الاختصاصيون فيعتقدون أن الرشح ناجم عن «فيروس» بالإضافة إلى فعالية عوامل مختلفة منها البرد. وهذا يعني أن الرشح يسببه ما يسبب البرد (م 61).

أمَّا ما يعتقد أنه يسبب المناعة ضد الرشح كالنوم في الهواء الطلق والاستحمام بالماء البارد إلخ. فلا يكون مناعة ضد الرشح مطلقاً. ففي دراسة أجراها معهد (كالوب) ظهر بأنَّ الفلاحين يصابون بالرشح بنسبة تزيد عن مجموعة مشابهة. ولقد كان من خصائص وباء الإنفلونزا أن نسبةَ الوفيات الناشئة عنه كانت عاليةً جداً بين الشباب ذوي الصحةِ الممتازة.

أمَّا الحمامات الباردة فهي مدعاة للفخر أكثر مما هي مدعاة للصحة. إنها منعشة للذين يمارسونها ولكنها متعبة لهؤلاء الذين يضطرون لسماع الذين يمارسونها وهم يفتخرون بذلك. وتشترك الحمامات الباردة والساخنة في أنها تنظف الجسم. ولكنها فيما عدا ذلك لا تفيد مطلقاً بأي شكل آخر. والذين ماتوا في الحمام أكثر من الذين ماتوا لأنهم لم يدخلوها.

ومن أكثر المغالطات إيلاماً بالنسبة لهؤلاء الذين يعانون من الأمراض التنفسية الرأي القائل بأن الجو الجاف يخفف الإصابة بالمرض، فيذهب ألوف المصابين بالسل إلى الصحراء لكي يشفوا من مرضهم.

ولكن مثل هذه الآمال مصيرها الفشل المحتوم، فإن الهواء في البيت الاعتيادي عادة أكثر جفافاً من أيّ صحراء. ولكن الأمر ليس بمهم مطلقاً فإن أجسامنا تتمتع بأجهزة تبقي نسبة الرطوبة في الهواء الداخل إلى الرئة ثابتة وهي تقارب نقطة التركيز. وإذا كان تبديل الجو مفيداً فالتبديل هو في الواقع في البيئة ككل، وهي التي تجعل تبديل عادات المريض أسهل (م 114).

أما العلاج الذي ينصح به المصابون بالرشح فهو عقيم بقدر ما هو متعدد. ينصح البعض بتناول الويسكي، والبعض الآخر عصير الليمون، وينصح البعض بخليط من الاثنين. ويتمتع «القلو» بالغموض وانعدام المعنى؛ ولهذا يلقي الملايين بمئات الأطنان من بيكربونات الصودا في أجوافهم. ولكن لحسن حظ أصحاب هاته الأجواف، ليس هناك كمية من البيكربونات التي تكفي لأن تجعل الجسم قلوياً. ولقد آمن البعض بالعسل والصنوبر ولربما كان ذلك بسبب الإيماء إلى الحياة في الخلاء (م 61، 30).

ولقد قام صانعو مواد التجميل بتعزيز الاعتقاد القائل بأننا نتنفس من خلال بشرتنا. ولو كنا نفعل ذلك لاختنقنا باستعمال منتجاتهم، إننا نأخذ فعلاً قليلاً من الأوكسجين عبر البشرة. كما أننا نفرز فعلاً قليلاً من ثاني أكسيد الكاربون ولكن الكمية قليلة بحيث يمكن إهمالها. ومثل هذا التنفس لا يعدو سمك الجلد نفسه، وهناك قصص عن أناس اختنقوا لأن جلودهم طليت بالورنيش ولكن المئات والألوف قد طلو أنفسهم بالزيت خلال الحرب. وهناك المئات من السباحين عبر المسافات ممن قام بذلك دون أية نتائج مميتة. ولقد شاع رأي قائل بأنك إذا أمسكت بتنفسك فإن المسامات الجلدية ستنغلق. وإذا كانت هناك نحلة تريد أن تلدغك فسوف لا تستطيع لانسداد المسامات، وبعد محاولات عديدة فاشلة سوف تذهب مشمئزة (م 178، 183).

هناك شيء ما يتعلق بخرافات الناس هذه يجعل أي شخص يذهب مشمئزاً.

الفصل العاشر:

العقل وحدة مستقلة

كـون «العقل وحدة مستقلة» فرضية أساسية شائعة في علم النفس. ويعتقد علماء النفس أن العقل هو النتاج النهائي لوظائف عديدة من أفعال ارتكاسية وانفعالات ورغبات وذاكرة تكيفها جميعاً الظروف الاجتماعية. أمَّا بالنسبة لرجل الشارع، فالعقلُ عضو خفي يدير ويوجه الجسم كما يدير الرُّبَّان السفينة. ويتبنى رجل الشارع فرضية أخرى مفادها أنَّ العقل صفة مقصورة على الإنسان لا يمكن تغيرها؛ على وأن (الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير) ويعتقد كثيرون بقدرة هذه القوة البشرية على الاتصال بالعقول الأخرى، وبالقوى الغيبية عن طرق روحية أنها تدير الجسم لصالح الجسم؛ وهي نفسها تخضع لتأثير ميتافيزيقي.

بكلمة أخرى، «العقل» هو «الروح» فهذه الأخطاء الشائعة في علم النفس إذن ناجمة عن هذه المعادلة بين العقل والروح. العقل مفهوم حديث والروح مفهوم قديم؛ ففي الحين الذي تعادل فيه الروح والعقل تسبغ على العقل صفات مستمدة من المفهوم القديم دون الالتفات إلى الأسس المنطقية التي أنشئ عليها المفهوم. وإذ أنكرت الروح على الحيوان فلا يستطيع أحد انتزاع العقل منها. وهناك براهين لا يمكن انكارها على ذكاء الحيوانات. وآراء العلماء الذين تخصصوا بعلم نفس الحيوان، تجمع بل وتؤكد على أن الحيوانات تتمتع بقليل أو كثير من الذكاء. فيقول يركيز بأن الأدلة التي تشير إلى أن القردة تفكر «كثيرة ومقنعة». أما لوزر فيقول بأنه لا يستطيع أن يشك في أن ذكاء الحيوانات يشبه ويقارب ذكاء الإنسان. فالحيوانات تستطيع أن

تجمع أجزاء تجاربها لحل مشكلة آنية. وإن لم يكن هذا هو العقل فماذا يكون يا ترى (م 203، 150، 107).

وهذه اللطمة التم توجيهها هذه البحوث إلى احترامنا لذاتنا تخففها حقيقة أخرى اكتشفها الباحثون أنفسهم ألا وهي أن الشر لم يكن وقفاً على الإنسان وحده.

فلقد أتاح القول الشائع بأن العقل أقدر على الفساد من الغريزة الفرصة للإنسان أن ينحط من الناحية الخلقية عن مستوى الوحوش الكاسرة. أما يركيز فيؤكد بأن البغاء، مثلاً، شائع بين القردة العليا، ويعبر تركيز عن هذه الظاهرة بأنها تطور طبيعي بين الحيوانات ذات الذكاء العالي (م 201).

أما تأكيد البعض على أن طبيعة البشر لا تتغير فما هو إلا امتداد للأيمان القديم بخلود الروح. و «المفكر الأصيل» هتشنز مثلاً (عميد جامعة شيكاغو) يعتقد بأن «الطبيعة البشرية كانت وما زالت وستبقى كما هي في كل مكان». ولكنه لا يوضح لنا كيف استطاع الكشف عن الغيب فتنبأ بالمستقبل البعيد (م 14).

إن الزمن والظروف استطاعا أكثر من مرة أن يبدلا قيم البشر واستجاباتهم إلى حد لا يمكن وصفه بأي شيء سوى التغير في الطبيعة البشرية. وهل هناك أسس للطبيعة البشرية غير الحب والجشع والكراهية؟ لقد وجدت حضارات عديدة خالية عن الحب الرومانسي، والرغبة في التملك الفردي، والرغبة في الاعتداء على الآخرين. ويقال: إن الغبطة

الناجمة عن القسوة هي جزء من الطبيعة البشرية ولكنها نتاج بالتأكيد للعرف والعادات والتقاليد. كان التسلي بتعذيب الحيوان قبل مائة عام تقليداً شاملاً في المسيحية، ولكن المسلمين استنكروا ذلك واستهجنوه، لقد وعد إعلان مخطوط باليد يرجع تاريخه 27/ نيسان/ 1702 هؤلاء الذين يحضرون الحفلة المقامة في قاعة هو كلي في ذلك المساء بالاستمتاع بمشهد مثير «يتألف من ثور مجلل بالألعاب النارية، قد ربطت إلى ذيله ثلاث أو أربع قطط تتبعها الكلاب، وإذا فشل هذا الإعلان بحشد المتفرجين في القاعة، فما ذلك إلا لوجود مؤسسة أخرى تعرض تسلية منافسة تتألف عصفور ربط جناحيه في قبعة بينما يضع المتبارون أيديهم خلفهم ويحاولون قضم رأس العصفور بأسنانهم.

ليست التربية سوى وسيلة لتبديل الطبيعة البشرية. ومحور مقال الدكتور هتشنز الآنف الذكر؛ الذي عرض لنا فيه رجمه بالغيب هو أن الانسان يستطيع أن أكثر إنسانية كما يستطيع أن يكبت غرائزه وحيوانيته عن طريق التربية. جرى الناس على الإيمان بأن الروح الأزلية التي لا يمكن أن تتغير يمكن أن تخضع للنظام. ولذلك فقد تحمل ملايين المؤمنين شتى الإهانات لكي يصبحوا أكثر تواضعاً. كما حاولوا «تقوية» الروح بإخضاعها لتمارين أخرى متنوعة ومتعددة. ولقد استشرى هذا الاعتقاد بين هؤلاء الذين يؤمنون بالعقل أيضاً، فقالوا بترويضه بالدراسة.

وإذا أسند أفلاطون رأياً ووافقه ودرو ويلسون كالمعتقد القائل بأنه ليس ثمة عائق عقلي لا يمكن إصلاحه بالتعلم الملائم، فمن الصلافة

بمكان أن ندعو هذا المعتقد بالخطأ الشنيع لسبب بسيط ألا وهو أن الملاحظة الموضوعية تدحض ذلك. فأي تلميذ جامعي يعلم أن أساتذته ليسوا أكثر تشككاً في الأمور. ومن الواضح أنَّ المتضلعين بعلمِ البلاغة ليسوا أكثر طلاقةً من غيرهم، بل إن علماء المنطق ليسوا أكثر التزاماً بالمنطق من بقية الناس ولكن الكليات تستمر بوضع مناهجها استناداً على فرضية انتقال التدريب من الخاصِ إلى العام. أمَّا في المدارس الثانوية والابتدائية فالوضع أسوأ بكثير. ففي القرن الماضي كرس الأطفال العديد من الساعات ليحفظوا عن ظهر قلب شتى الأمور.

كل ذلك كان يعتمد على الوهم القائل بأن الحفظ عن ظهر قلب يقوي الذاكرة (م 14، 33 ص 380).

وساد اعتقاد بأن الروح، رغم طبيعتها الإلهية، تخضع أحياناً لقوى شريرة تدفع الإنسان لاقتراف أعمال مفزعة قد تؤدي به إلى الهلاك. وكذلك أصبح الاعتقاد سائداً بأن العقل يمكن أن يخضع لقوة التنويم الشريرة التي يقومها ببثها شخص آخر يستطيع إجبار ضحيته أن يفعل أي شيء بمحض إرادة المنوم. فقد اتهم محامي الآنسة جون باري المثل الشهير شارلي شابلن بممارسة هذه القوة المهلكة على موكلته. كما اتهمت الممثلة الشهيرة باربرة هاتون زوجها الكونت هو كوتز ريفنتلو بأنه ابتز منها مبلغاً قدره 6,200,000 دولاراً عن طريق التنويم المغناطيسي. وهذا مما يدعو إلى التأمل! إذ لو كان استعمال هذه القوة السحرية صحيحاً، لاستطاع ابتزاز مبالغ أخرى. يعترف «العالم النفساني» كلايد باول في نيويورك بأنه

استطاع أن يسيطر على ثلاثة آلاف شخص سيطرة تامة بحيث لم يستطيعوا تحريك حتى إبهامهم دون إذنه. وإذ التزم الخلق الحميد فلم يسيء استعمال هذه القوة الهائلة – فقد وضع أحد مساعديه وراء كل وسيط ينومه ليسنده في اللحظة التي يقول فيها هذا «العالم النفساني» (نم). كل ذلك مراعاة لشعور الآخرين – فهنالك منومون آخرون أقل تمسكاً بالقيم الخلقية يعتقد أنهم استغلوا ضحاياهم استغلالاً إجرامياً؛ بإرغامهم على خدمتهم كعبيد أو جعلهم يعرضون أنفسهم حتى لخطر الذبح باستسلام مدهش. (م 332 ص 36، 225، 222 ص 10، 19 ص 9) (م 139، 236).

ولكن التنويم كما هو معروف علمياً لا يدعم هذه الأوهام الشائعة. يبدو أنه عملية إيحائية فقط أو استجابة ارتكاسية مشروطة. والضعفاء الخانعون ليسوا أحسن من الأقوياء والأذكياء كوسطاء. ولا يمكن تنويم المرء دون وعيه فعلى الوسيط أن يلعب دوراً فعالاً في هذه العملية. من المشكوك فيه أن يمكن تنفيذ أي إيحاء على الوسيط ما لم يكن هناك دافع كامن يؤدي إلى تحطيم الذات. (م 151).

وهنالك اعتقاد بأن العقل كالروح خاضع لعدالة غيبية تتجسم بمبدأ التعويض المحبب لقلوب الناس، والقائل إن لكل عاهة ميزة خارقة تتناسب معها وتوازيها. وكل تفوق يقابله نقص ويوازيه. والصامتون مفكرون بعمق. وللعميان حاسة «سادسة» ترشدهم. كما يعتقد أن العباقرة ضعفاء العقول إذا خرجوا عن نطاق تخصصهم. وأن الأطفال ذوي النبوغ المبكر ينمون فيصبحون أغبياء أو يموتون قبل أوانهم.

إن حكمةَ قليلي الكلام لا تحتاج إلى برهان وهي مضرب للمثل في كل لغة. إن الأساس الذي تعتمد عليه هذه الفرضية تكمن في - أن أي شخص لا ينافق محدثيه يعني أنه متفق معهم وبذلك تكون حكمته لا حدود لها بالنسبة لمحدثيه.

أمَّا الخطة السماوية لرحمة ذوي العاهات والتي تمنح العميان مواهب خارقة فلا تبدو جلية لهؤلاء الذين لم يتمعنوا بهذه المسألة دون آراء مسبقة.

تبرهن التجارب المقننة بأن العميان يصيحون إلى الأصداء ويشعرون بتيارات الهواء وتغييرات درجة الحرارة المسلمة عن قرب الأشياء أو الموجودات الكبيرة الضخمة أكثر من ذوي البصر (م 197، 96، م 66).

والاعتقاد الشائع بأن هذه القوى الغيبية التي منحت لذوي العاهات والتي أطلق عليها اسم الحساسة السادسة تعكس خطأً فاحشاً آخر، وهو افتراض وجود خمسة حواس. إن عدد الحواس يعتمد على تعريف كلمة الحاسة، نستطيع أن نقول: بأن هناك حاسةً واحدة فقط هي حاسة اللمس. ولكن ما أن نبدأ بتقسيمها إلى الأبصار والسمع والذوق... إلخ حتى نواجه بأن علماء النفس المعاصرون لا يقفون عند خمس حواس فقط. ويعتقد البعض أن عدد الحواس 13، وأن هذه الحواس الإضافية قد جمعت مع بعضها كما هو الشائع في حاسة «اللمس». فهي مركب يشتمل على حواس الدفء والضغط والمقاومة والألم والبرودة.

وهناك حواس أخرى وضعية الجسم والحركة والتوازن. وكلها مهم لعمل الجسم بشكل يفوق أهميةَ حواسِ البصر والسمع وما إلى ذلك من

الحواس المعروفة. وهناك الحاسة العضلية وحواس حشوية تنقل لنا إحساسات الجوع والعطش.

إن الاعتقاد الشائع بعدم كفاءة النابغ عزاء -دون شك- لهؤلاء الذين يفتقدون النبوغ وهي طبعاً لا تعدو كونها من صنع خيالاتهم، والحقيقة أنَّ الناس الموهوبين في حقل من الحقول لهم مواهب في ميادين أخرى تفوق الاعتياديين بشكل عام. فكان آينشتاين عازفاً على الكمان أما سو مرست موم فكان رساماً بارعاً. وونستن تشرشل كاتب ناجح وبناء قدير ومن المولعين بالفنون التشكيلية وله مقام لا يمكن أن ينكر كرجل سياسي. ويمكن إضافة الكثير من الأسماء إلى هذه القائمة.

لم يستطع أحد أن يثبت وجود معاملات ارتباط سالبة بين القدرات المطلوبة في المجتمع. وهكذا فقد ثبت بطلان الاعتقاد الشائع بأن الذين يتعلمون ببطء يحتفظون بالمادة التي تعلموها لمدة أطول وقد تبين خطأ هذا الاعتقاد (م 169، 170).

ويعتقد الكثيرون أن لا جدوى من الأطفال ذوي النبوغ المبكر، ولعل سبب هذا الاعتقاد هو قلة الأطفال النابغين وكثرة الأطفال الاعتياديين علاوة على أنَّ حب الأمهات يفوق منطقهن.

هنالك «أدلة» كثيرة تدعم الاعتقاد السابق ويعتبر فشل أية معجزة بشرى عظيمة دائماً. فقد ضخم موت وليام سيدس الغامض وكان من النابغين المبكرين المشهورين. وقد كتب وهو في الرابعة من عمره عدة مقالات في الإنكليزية والفرنسية وفي الخامسة كتب رسالة في التشريح أمَّا

في التاسعة فكان متهيئاً للدخول إلى الجامعة ولكن لم يقبل حتى الحادية عشر من عمره وتخرج من جامعة هارفرد في السادسة عشر من عمره بدرجة الشرف.

ولكن لسرور من يتمسك بهذا المعتقد الشائع «لم يصبح شيئاً ذا بال»، لقد كان «غريب» الأطوار فقد تجنب الشهرة واعتنق الشيوعية ولم يحاول جمع المال بل سلى نفسه بجمع بطاقات عربات النقل (م 251، 314).

إن علماء النفس درسوا وليام سيدس بمتعة لأنه يمثل الفشل الغير اعتيادي. إن معظم الأطفال المبكري النبوغ ينجحون في حياتهم العملية بشكل ينوف الأطفال الآخرين. أمَّا درجة نجاحهم فيمكن إثباتها بعدد الرجال المشهورين الهائل الذين كانوا أعجوبة في صغرهم. بدأ جون ستيوارت مل في تعلم اليونانية وهو في الثالثة من عمره، وقد كتب شيلي وبوب شعراً ممتازاً وهما في سن المراهقة. وقد قدم كلارك ماكسويل مقالاته إلى الجمعية الملكية قبل أن يبلغ العشرين من عمره، كما قدم آينشتاين نظريته النسبية لأول مرة وهو في الثانية عشرة من عمره. أمَّا في حقل الموسيقى فقد ظهرت الكثير من القابليات المبكرة. فقد كتب وعزف موزارت الموسيقى وهو في الرابعة من عمره. ومؤلفات هاندل الموسيقية التي وضعها وهو في الحادية عشرة من عمره؛ ذات قيمة كبرى للبشرية جمعاء. قام شاينفيلد ببحث أجراه على ستة وثلاثين موسيقياً مشهوراً (لا تظهر مواهب المغنيين قبل سن البلوغ) ولقد وجدَ أنهم أبدوا تفوقاً ملحوظاً قبل أن يبلغوا الخامسة من العمر، وأن مطلعَ شهرتهم المهنية سطعتْ وهم في سن الثالثة عشرة (معدلاً) (م 328، 153).

ولا يدفع ذوو العبقرية ثمنَ موهبتهم بموتهم المبكر. لقد استدلوا دائماً بموت كيتس وشاترتون وشوبرت وموزارت المبكر وهم «نماذج» للعبقرية ولكن هؤلاء كانوا شواذا. فإن معظم العباقرة تمتعوا بصحة جيدة وعاشوا حياة طويلة تفوق حياة معاصريهم في طولها. توفي كيتس بالسل وانتحر شاترتون، وتوفي شوبرت بالتيفوئيد أو التيفوس وموزارت بالمرض نفسه أو كما اعتقد البعض بالسم، وهذه الأسباب تشير إلى أن موتهم لم يكن لضعف موروث. (م 8 ص 265).

ولعل أكثر بنود المعتقدات الشعبية قرباً من قلوب الناس بأن المرأة أضعف عقلياً من الرجل. هنا يظهر أيضاً مفهوم انعكاس العقل عن الروح، لأن أرواح النساء (حسب المعتقد القديم) تعتبر من الأصناف الضعيفة. وكان الشائع أن النساء أضعف من الرجال خلقياً وأقل حصافة ويمكن إغراؤهن بسهولة (م 327، 12).

ففي القرن الثامن عشر الذي امتاز بالحرية نسبياً ظهر في الأدب الشعبي بعض النساء النشيطات القادرات على تصريف الأمور، ولكنهن لم يظهرن كبطلات طبعاً إذ ما زلن ضعيفات وعديمات القدرة بل ظهرن كشخصيات ثانوية قوية. أمّا بعد قرن فقد ركزت الردة أسسها ووضحت «الأنوثة» المثالية فانسحبت المسترجلة وهي تجرجر أذيال الفشل لتحل محلها أنوثة جديدة انهمرت دموعها فرحاً كلما أفتر ثغر الرجل عن ابتسامة، وارتجفت رعباً كلما قطب الرجل حاجبيه كما وصفها بن بولت في كتابه «أليس العذبة».

وقد وصف الشاعر تنيسون الذي كان شاعر البلاط في عهد الملكة فكتوريا مشهداً في الفصل 97 في ديوانه للذكرى يصور فيه بلا شك فكرته عما يجري في أمسية مثالية يقضيها زوجان في البيت. فوصف الزوج كمفكرٍ عظيم غارقٍ في لجج الأفكار العميقة الغامضة، يربطُ فيها متاهات الفكر ويقرأ أسرار النجوم بينما كانت زوجته الصغيرة، التي لا تدركُ شيئاً من علمِ التنجيم والفراسة أو أي علم آخر يغوص فيه زوجها تجد سعادتها بالتأمل في بنفسجة ذابلة أهداها إياها زوجها لسنين خلت.

تعزف له وتغني

عن إيمانها المبكر وعهودها المثقلة.

تنحصر معرفتها في إدارة المنزل

وتمتد معارفه لآلاف الأمور

إيمانها ثابت لا يتزعزع

تحس بحكمته وعظمته

وتنظر إليه بعيون ملؤها الصدق

«أنا لا أفهم ولكني أحب».

وهكذا تقتصر واجباتها على الإعجاب والإيحاء والانسحاب.

أما راسكين المتحرر نسبياً فقد منح النساء مساواتهن بالرجال. ولكنه أكد على أن مجالاتهن تختلف عن مجالات الرجال. فمجالات الرجل

تطوير الذات ومجالاتها إنكار الذات. وقد ناصر تثقيف المرأة لأنه شعر بأن النساء يجب أن يفهمن أعمال الرجال، ولا يمكن الاستغناء عن الطبخ والتطريز طبعاً ولكنه أصر بأن على الفتاة أن تتعلم على الأقل لغات أجنبية كافية وعلوماً تمكنها من أن تشارك زوجها بهواياته واهتماماته وصحبة خيرة أصدقائه. لقد منح راسكين المرأة حقوقاً أكثر من ألفرد تنيسون إذ أدرك بأن الحديث عن البنفسجة الذابلة باستمرار شيءٌ ممل، ولكنه شارك في فرضية تنيسون الأساسية ألا وهي أن دور المرأة ثانوي في المجتمع.

إنَّ الثقةَ الجبارة في مفهوم نقص المرأة الفطري لم تعد قابلة للإسناد، ولكن المتعة التي أعطتها لنصف البشرية كانت أعظم من أن يسلم بنقيضها دون صراع، والتجأ الرجل المندحر إلى «العلم» واتخذه اليوم من خطوط الدفاع ويقال لنا إن أدمغة النساء أصغر حجماً ووزناً من أدمغة الرجال وأنهن لا يستطعن تحمل «أعباء الحياة» كما يفعل الرجال. ويفقدن صوابهن بسهولة ولا سيما أمام الآلات الميكانيكية إذ أن «قابلياتهن الميكانيكية» تكاد تكون معدومة، وهن لا يستطعن قيادة السيارات.

هنالك طبعاً تعويضات أخرى منحت للنساء «الحدس» واللقانة و «الطهر» ولكن هذا التعويض لا يعني شيئاً، فالحدس دون المنطق وأمَّا الطهر - بمنطق الرجال الملتوي، فهو أحد المبررات الرئيسية لعدم إعطائها حرية اتخاذ القرارات وذلك «لحمايتها».

بما أن النساء أصغر حجماً من الرجال فإن أدمغتن أصغر حجماً من أدمغة الرجال. وبالنسبة لأجسامهن يمكن اعتبار أدمغتهن أكبر حجماً من

أدمغة الرجال بالنسبة لأجسامهم. وبما أن حجم الدماغ المطلق أو النسبي لا يعـــــادل ولا يوازي الذكاء فهذه المقاييس لا تدل على أي شيء. لا يمكن إنكار إنعدام قابلياتهن الميكانيكية ولكن نجاح مئات الألوف من النساء في المعامل برهن على أن هذه القابلية وانعدامها أمران لا يتعلقان بالفطرة، وإذا أعطيت لهن الفرصة للتعلم فأنهن ينجزن الأعمال نفسها التي ينجزها الرجال ما خلا الأعمال التي لا تتطلب سوى القوة البدنية.

أما بالنسبة للاعتقاد القائل بانهيارهن تحت أعباء الحياة الثقيلة، فيبدو العكس صحيحاً. فلقد أبدت النساء ثباتاً هائلاً في الأعمالِ الرتيبة والدقيقة والتي تدفع الإنسان إلى الجنون. تشير الاحصائيات في جميع أنحاءِ العالم إلى أن عدد الرجال الذين انتحروا يبلغ ثلاثة أضعاف عدد النساء. وإنَّ الفأفأة والتأتأة والقرحة المعوية – وتعتبر كلها دلائل نفسية سيئة، أكثر انتشاراً بين الرجال منها بين النساء بنسبة أربعة إلى خمسة. وعندما ألقيت القنابل الثقيلة على لندن عام 1940 كان عدد الرجال الذين أصيبوا بصدمة الانفجار النفسية يفوق عدد النساء. (م 53، 154) وأما عدد الرجال الذين يموتون بالأمراض العصبية فيفوق عـــــدد النساء بالثلث، وعدد الرجال في المستشفيات العقلية والعصبية يفوق عدد النساء، كما يذهبون إليها بعمر مبكر أيضاً (م 267، 154، 69).

وأما فيما يتعلق بأمور اللياقة والأدب على قارعة الطريق ولا سيما في وقوف السيارات وإعطاء الإشارات فإن سياقة المرأة الأمريكية قد تكون أسوأ فعلاً من سياقة الرجل – إذا كان هذا ممكناً – أمَّا المهارة في قيادة

السيارات قياساً على حوادثها التي تنجم عنها، فيبدو أن سياقة النساء أفضل من سياقة الرجال. تبين الدراسات التي أجريت في بنسلفانيا وكونيتيكت ومقاطعة كولومبيا (واشنطن) أن الرجال يتسببون فيما يوازي ضعف عدد الحوادث المميتة التي تتسبب فيها النساء.

عين أسقف كانتربري لجنة خاصة لدراسة إمكانية تعيين النساء قساوسة في الكنيسة الإنكليكانية حيث ورد في تقرير اللجنة الذي ظهر مؤخراً العبارة التالية «ففي أفكار ورغبات ذلك الجنس (الإناث)، تخضع الأمور الدنيوية للقوى الدينية بسهولة، كما تخضع الرغبات الجسدية للقوى الروحية، بعكس الرجال». وهذا يعتبر خير تعبير عن الاعتقاد الشائع بين البشر في هذا الصدد. ولكن يصعب علينا إدراك الطريقة التي يمكن بها إثبات هذا الرأي.

فلم تشر اللجنة إلى التجارب التي استمدت منها براهينها، ولذلك فإن الأمر لم يخرج عن نطاق التأملات مطلقاً (م 336 ص 24، 198).

هناك حقيقتان تبرران شيئاً من الشك: أولاهما تكمن في أنَّ هذا الرأي حديثٌ جداً...

فقد درجت العصور الماضية على التأكيد بأن النساء أكثر تبذلاً من الرجال وأقل طُهراً. ففي معظم الولايات الامريكية يعرف البغاء قانونياً على أساس أنه عمل نسائي. أمَّا الحقيقة الأخرى، فهي أن مثل هذا الرأي يؤدي بالراحةِ لمن يأخذُ بالمقاييس المزدوجة (التي يطبق أحدها على النساء والآخر على الرجال) سواء كانت هذه المقاييس خلقية أم اقتصادية (م 198).

وهكـذا اعترض أعضاء اللجنة المذكورة سـابقاً والمؤلفة من القسـس عـلى إدخال النسـاء في سـلك الكهنوت اسـتناداً عـلى «كون النسـاء أكثر طهـراً من الرجال». ولكن الحقيقة تكمن في خشـية القسـس من منافسـة النسـاء الاقتصادية إذا تم إدخالهـن في سـلك الكهنوت. يجادل هؤلاء أن «اقتصار سلك الكهنوت على الرجال فقط لا يثير ذلك الجانب عن طبيعة المرأة الذي يجب أن يكون سـاكناً لدى عبادة الإله العظيم» بينما «يستحيل على القساوسـة الإنجليكان الذكور أن يحضروا قدّاساً تقوم به امرأة بدور القـس دون أن يشـعروا بجنسـها» ولكن نسـاء الكويكر تقلـدن مناصب القساوسـة منذ زمن بعيد جداً وبالرغم من ذلك لم تتميز طقوس عبادتهم بطابع الاسـتثارة الجنسـية. ولربما كان معنى ذلك أنَّ الكويكر أقل رجولة من نظائرهم الإنجليكان (م 336).

يعتقـد «علماء النفس» الهواة، العاملون وراء المنبر والمكرفون أن تعقيد الحيـاة في عصرنا يهدد صحتنا العقليـة، وما تحذيراتهم الصاخبة إلا صدى للاعتقـاد القديم بالروح. يقول الواعظ: إن الإله خلق الإنسـان «منتصباً عـلى قدميـــه» ولكن الإنسـان «ابتـدع اختراعات عديـدة». وقد صرّح القس ألكساندر كريدون بأن الواعظ عرف الاختراعات «بالسبل الجديدة التي تسعى لأن يكون الإنسان أسعد وأحكم مما قدر له الله» (م 41).

وتكمن الصعوبة طبعاً في وضع الحد الذي أراد منا الله أن نقفَ عنده. فالذين يرون في السـيارة وعصـارة الفواكه الكهربائية اجتيـازاً لهذا الحد، يـرون في الصحون والعربة التي تجرها الخيول هبة من الإله بالرغم من أن كليهما (الوعـاء والعربة) كان في زمن ما من المخترعات «الحديثة». يحدثنا

بيتر فلمنج عـن جولاته في بلاد التتر، فيقول: لم يثر اسـتهجان المغول من متاعـه شيء قدر مـــا أثارتهم قفازاته فقـد اعتبروها مبتكـرة ولكنها دليل التخنـث. كـما شـكوا في قيمتها كاخـتراع إذ لم تدخل أي تحسـين على اليد العارية التي خلقها الإله (م63).

ويعتبر المتنبؤون بقيام السـاعة بأن اختراع المكائن ذات الاندفاع الذاتي من دلائل قيام السـاعة. فبالنسـبة لهم كان كل شيءٍ كما يرام قبل أنْ تُخترع السـيارة والطائرة والقطـار والصاروخ. ففي مؤلـف حديث يصرح أحد الفلاسـفة «إن تعريف المدنية الحديثة يعني الفناء» ويستمر ليوضح وجهة نظـره فيقـول: «لو اسـترخى أحـد أجدادنا وهو يقـود عربتـه التي تجرها الثـيران وشرد ذهنـــه اللحظة فلن يصيبـه أي أذى، أما إذا فعل ذلك طيار اليوم، فستكون نتائج هذه اللحظة من الشرود جسيمة للغاية!» (م 59).

وبكلمـة أخرى لقد خلقنـا عالماً غير طبيعي «مليء بالخطيئة» بدأ يحطم عقولنـا «أرواحنا». لقـد ضيقت علينا هذه الاختراعـات الحديثة فكادت تخنقنا «لقد أمسـكت الخطايا بتلابيبنا وجاءت ساعـة الصفر حيث تقضي علينـا مخترعاتنا».

وتكمن نقطـة ضعف هذا المنطق في كونه يصف الماضي وصفاً لا صحة له فهو خيال محض. ونشك في أن الفيلسوف الآنف الذكر قد جرَّب امتطاء عربـــة تجرهـا الثيران. فليسـت جميـع الثيران صبـورة والكثـير منها عنيف وسريـع ومليء بالحقد وبالرغبة في القتل. وكل هـذه النوازعِ بعيد عن ذهن أيـة طائرة تحترم نفسها. إن الطائرات لا يهمها ذباب الخيل في الوقت الذي

تدفع فيه هذه الحشرات الثيران والخيول إلى عنف مدمر لا نظير له. لقد فقد الكثير من البشر أرواحهم في حوادث الطائرات والسيارات، وهـذه حقيقة لا يمكن إنكارهـا ولكن نسـبة الوفيات التي سـببتها الخيول تزيد عن نسبة الوفيات نتيجة لحوادث الطائرات إذا أخذنا المسـافة التي يقطعها الإنسـان ممتطياً كل منهما بعين الاعتبار. ففي الفترة ما بين 1921 – 1933 مثلاً زادت الوفيـات بـين سـواق العربات عـن مثيلاتها بين سـواق السـيارات نتيجة لحـوادث الطريق في إنكلترا وويلز بنسـبة 60%. أي لكل مئة سـائق عربـة بموت في حادث يقابله 40 فقط بين سواق السيارات (م 81 ص 213).

وإذا كان أجدادنا قـد قضوا وقتاً مريحاً في عرباتهم فإن أجدادهم قضوا حياتهـم متأرجحـين بين غصن وآخـر، متخذين قرارات تسـتغرق أجزاء بسيطة من الثانية مضطرين لتنسيق حركتهم بدقـة بالغة ولقد خرجوا من ذلك كله بتخريبٍ شاملٍ عام لا يصدق.

وإذا اسـتثنينا فنّاني السـيرك الذين يسـيرون على الحبـال، وهم أقلية عديمـة الأهمية احصائياً، فإننا نعيش في سـبات إذا قورنت حياتنا بحياة أجدادنا التي تشـبه حياةَ القردة، ولكنهم نجوا دون شك وإلا لما كنا هنا نفرك أيدينا.

تكمن المغالطة في منطق نُذراء السوء في الفرضيةِ القائلة بأن الآلة المعقدة تركيبـاً أصعب اسـتعمالاً. وما هـذه الفرضية إلا الخطأ بعينـه، والعكس هو الصحيـح. فالسـاعة المنبهـة بأجزائها المعقدة أسـهل اسـتعمالاً من السـاعة الشمسـية ولـجـــام الحصان أسهل صنعاً من فرامل السيارة ولكن لجم

الحصان أصعب من فرملة السيارة بكثير. كما أن إدارة البوصلة الجيروسكوبية في البواخر الحديثة أسهل بكثير من دفع ذراع دفة المركب الشراعي.

الثناء على الذات أحد مميزات الحياة المعاصرة. فنحن نرغب أن نتخيل بأننا نحمل على اكتافنا أعباء تهد أطلس الجبار والذي يحمل العالم على كتفيه في الميثولوجيا اليونانية. فيقول أحد الكتاب المعاصرين أن هناك شكاً في أن لدى الأباطرة الرومان من القدرات الإدارية ما يحتاجونه لتسيير شركة جنرال الكتريك الشهيرة (م 59 ص 232) – وهذا قول يسبغ الثناء على المدراء العامين المعاصرين – ولكن هذه العبارة تدعو إلى الشك فيها أكثر من الشك الذي تدعو إليه. ومن البديهي أن الأباطرة الرومان لم يستطيعوا استعمال العدادات الأوتوماتيكية أو الضرب على الآلة الكاتبة، ولكن معظم المدراء العامين في الشركات اليوم تنقصهم هذه القدرات أيضاً. ولربما استطاع الأباطرة استعمال الآلات الحسابية البدائية ولكننا نشك في أن المدراء العامين المعاصرين يستطيعون ذلك. والحقيقة أن عمل أي مدير يقتصر على اتخاذ القرارات وتحمل مسؤوليتها. ومما لا شك فيه أن الحرس الروماني كان أكثر حزماً من مجالس الإدارة عند مناقشة التقارير السنوية، فقلما يحصل الأباطرة الرومان على تقاعد إذا ارتكبوا خطأً فاحشاً، هذا إذا استطاعوا الحفاظ على حياتهم.

إذا نسبنا زيادة الأمراض العصبية والعقلية إلى فشلنا في مجابهة الآلات الميكانيكية المعقدة نكون قد حاولنا تجنب المشكلة بشكل خطر. فالعصاب الذي يبدو أنه يزداد انتشاراً هو نتاج للخيبة وليس نتاج التعقيد

في حياتنـــا. لذلك فان ما يحتاج إلى التصليح في عالمنا هو الحالة الانفعالية وليس الحالة الميكانيكية.

لقـد أدت التجـارب التـي أجريـت عـلى الحيوانات في المختـبرات إلى جنـون هـذه الحيوانات، ولكن جنونها لم يكن لاسـتعمال آلات ميكانيكية معقـدة ولا قيامها بالمغامرات، بل إلى تدريبها على الاسـتجابة الإشـارات معينة، ثم تغيرت هذه الإشارات بحيث أن استجابتها الصحيحة سابقاً لا تؤدي إلى الثواب بل العقاب (م 305 ص 54 – 55).

إن الانسـان يشبه الفئران في هذه الناحية، والمجتمع في الوقت الحاضر يبـدو وكأنه قـد صممه مجرب يسـتهدف دفعنا للجنون. لقد نشـأنا نتوقع الثواب لسـلوك معين ولكننا نجد أنفسـنا فجأة وسط عالم مملوء بإشارات لا تتفق مع اسـتجاباتنا، التـي تعلمناها في الماضي. لقـد تعلمنا منذ نعومة أظفارنا أن نكون مضحين رقيقي الحاشـية نساعد الآخرين ونكره الجشع والعنف. ولكنا نعيش في عالمٍ ملؤه الجشـع والتنافس على المال بشـكل لا يرحـم أحداً. تعلمنا أن نكون شرفاء ولكننا وجدنا أنفسـنا في عالم يعاقب الاستقامة، ويكافئ الزيف والنفاق والتلون بألوف الصيغ.

يدفعنـا طموحنـا ونحن متأكـدون من النجـــاح إذا شـددنا عزمنا وشمّرنا عن ساعدينا. ولكن بطبيعة الأشياء تخيب آمال تسعين بالمئة ويجد الفاشلون أن الصدف أهم وأكثر وزناً من الجدارة.

كانـت النتيجـة الفشـل واليأس الجماعـي فاحتفظ المتهكـم واللامبالي بـشيء من الثبـات، ولكن ما عدم المبـالاة إلا حكمة الجنون بنفسـها، وما التهكم إلا جنون عدم الحكمة. وهكذا ففي الحقيقة لم يستطع أحد النجاة.

الفصل الحادي عشر:

البشرة ولونها

يبدو الخطر الكامن في كل الأخطاء الفاحشة بأوضح أشكاله في الاعتقاد «بالعنصر» أو «العرق»؛ أي الاعتقاد بوجود ارتباطات محددة بين الخائص الجسمية من جهة والقدرات الفطرية والذكاء و «الأخلاق» من جهة أخرى.

وهذا الاعتقاد في الواقع حصيلة اعتقاد أشمل، يقول بانعكاس الصفات العقلية على الخصائص الجسمية، فالجبين المرتفع يدل على الذكاء، والمنخفض يدل على الغباء. ويكتب المؤلفون الذين يفتقرون إلى الخيال عن الفم «القاسي» والذقن «المتراجع» والأنف «الأرستقراطي»... الخ وكأن هذه العلاقات لا يدانيها الشك. فالذقن المتراجع إلى الوراء يشير إلى خلق متراجع. والفك البارز يشير إلى خلق بارز، بالرغم من أن عائلة ها بسبرك، المتميزة بأبرز فك في التاريخ، كانت من أغبى وأضعف العوائل الحاكمة لعدة قرون. فما هذه العلاقات، في الواقع، إلا علاقات لغوية صرفية.

إن الإصرار على انعدام الارتباطات بين المظهر والخلق لا يخلو من السخف طبعاً، ولكن هذه الارتباطات على درجة من الدقة والتعقيد والتباين بحيث لا يمكن إخضاعها لأية قاعدة. لأنها تعتمد على التقاليد والعادات والملابس - فهناك أساليب في التعبير كما توجد أزياء في الملابس.

ومن العناصر المضللة في هذه المشكلة أن البشر يمثلون الدور الذي ينسب إليهم ويحاولون جهدهم تقمص هذا الدور، فقد تقمص لنكولن دور الفلاح الخشن، وتقمص روزفلت روح المرح والدعابة، بينما تقمص

كولـدج دور الرجل الصامت – وإذا رجعنـا إلى أحاديثه المدونة وجدناها تمـلأ مجلدات – وهـذه أمثلة من الفن الذي يمارسـه السياسـيون مهما كان شـأنهم ومركزهم، وهو يتقولب في خصلة شـعر طائشة ورباط رقبة رفيع وفي قبعـة ذات أطراف عريضة، وسترة سوداء.

ولا يقتـصر تقمـص هذه الأدوار في مسرح المجانـين العظيم هـذا على رجـــال السياسـة فقط. فقبـل نشر مسرحية «مهنة السـيدة ورن» لم يكن مؤلفها السـيد جورج برناردشو قد تقمص شخصية الشيطان بعد. ولكن ما إن نشرت هذه المسرحية حتى أصبح برناردشو «تجسيداً» للشيطان. ففي صوره الأولى كان شـو يبدو بشـعره المصقول اللامع والمفروق في الوسط ووجهـه النظيف غير الملتحي يعلو عينيه حاجبان عمليان اعتياديان شـأنه شأن أي شخص اعتيادي. ولكن ما إن ساءت سمعته حتى حاول تقمص هذه السـمعة الجديدة؛ فأطال لحية مفروقة في الوسـط ومشط شعره وكأن خصلتي شعره قرنا شيطان، فبـدا في كل صورة كإبليس بعينه.

وقد اسـتجاب الرأي العـام لمحاولاته هذه، ووجـدوا الشر في مظهره ووجهـه الجديد، الذي اصطنعـه خصيصاً لكي يكون عند حسـن ظنهم، لقـد وجدوا في كل ذلك تأييداً لسـابق اعتقادهـم، وبنفس الوقت تضخم رصيده في البنك.

هنـاك مئات الألوف مـن الأمثلة المشـابهة منهم تشيسـترتون، وجون باريمور، والجنرال فيلدز وغيرهم كثير. وقد كانت سمعة كل منهم مكافأة نقدية لا يمكن إلا أن يغبطهم عليها أي محب للتمثيل. وهناك الملايين من

الناس الذين يعملون بجهد جهيد كهؤلاء المشهورين ولكن دون أن ينالوا شيئاً، إمـّا لسوء حظهم، أو لانعدام قدراتهم. فيحاول ذوو السمنة أن يكونوا هزليين، ويبالغ الأقزام في التأكيد على قصرهم، والعمالقة في إبراز طولهم. أما الزنوج التعساء فعليهم أن يمثلوا دور المغني المرح الذي لا تهمه صروف الدهر. كل ذلك لئلا تخيب آمال المشاهدين الذين يجدون اللذة في مراقبة الغناء والرقص واللامبالاة بين الزنوج (م 200).

ولقد ابتكرت عدة اختبارات لاكتشاف العلاقة بين العرق أو العنصر والذكاء. وكان الهدف من هذا البحث إثبات تفوق العرق الأبيض على بقية الأجناس البشرية، وهكذا فقد تمسك من آمن بوجود هذه العلاقة بالنتائج التي تدعم اعتقادهم بزهو؛ بينما تملكهم الغيظ للنتائج التي أثبتت عكس إيمانهم، فقد أُثيرت ضجة في الولايات المتحدة عندما تبين أن أطفال الزنوج لم يسجلوا معدلات ذكاء تساوي معدلات ذكاء اقرانهم البيض، بينما أهملت تماماً نتائج التجارب التي تشير إلى أن أطفال الزنوج في بعض المناطق سجلوا نتائج أفضل من أقرانهم البيض في مناطق أخرى. ويشير كتاب «الأجناس البشرية» إلى أن الجنود البيض في الجيش الأمريكي فاقوا الزنوج في اختبارات الذكاء. وأن الزنوج الذين يجيدون القراءة والكتابة في بعض الولايات الشمالية سجلوا نتائج أفضل من نتائج البيض الذين يجيدون القراءة والكتابة في الولايات الجنوبية. فالزنوج من مقاطعة أوهايو مثلاً سجلوا أرقاماً أعلى من البيض الذين يقطنون ثماني ولايات جنوبية. ويمكن التأكيد، طبعاً بتفوق البيض على السود، بما أن البيض في الشمال كانت نتائجهم

أفضل من الزنوج في الشمال، وكذلك البيض في الجنوب سجلوا نتائج أفضل من الزنوج في الجنوب. ولكن هؤلاء الذين يصرون على هذه النتائج يجدون أنفسهم في مأزق لا يمكن الخروج منه بسهولة. إذ إن الزنوج في الشمال حصلوا على نتائج أفضل من البيض في الجنوب وإذا كان لهذه النتائج أي نصيب من الصحة في هذا الصدد فأنها تشير إلى احتمالين لا يستطيع المؤمنون بالتمييز العنصري قبول واحد منها.

(1) تعني هذه النتائج أن الشماليين بيضاً وزنوجاً أفضل ذكاءً من الجنوبيين.

(2) المؤمنين بالتميز العنصري وهذا ما لا يستطيع هؤلاء أن يتصوروه، أو أن البيئة الملائمة ترفع مستوى الذكاء أو بكلمة أخرى الذكاء هو نتاج للبيئة، وهذا ما لا يستطيع أن يقبله هؤلاء أيضاً، إذ إن قبول ذلك يعني نسف المبرر الوحيد لديهم لإبقاء الزنجي في أحواله السيئة الحاضرة. فهم يبررون سوء ظروف حياة الزنوج استناداً على فرضية انحطاطهم الفكري.

وما تثبته الاختبارات، في الواقع، في هذه الحالة يشير بوضوح إلى انعكاس الأحوال الاقتصادية في القطر كله على معدلات الذكاء فليس ذكاء هذا العرق أفضل من ذاك أو أن هذا القطاع الجغرافي أفضل ذكاء من ذلك. والعلاقة هنا ليست علاقة بين اللون والذكاء بل علاقة بين الذكاء والتسهيلات التربوية والمسكن والوضع الاقتصادي بصورة عامة. ولدى البيض فعلاً مبررات للتذمر وكذلك الزنوج. ولكن لا يمكن

معالجة جذور هذه الشكوى إلا بالعمل الاجتماعي على تحسين أحوال الجميع دون تميز.

وتتعدى مشكلة التميز العنصري حدودها الاقليمية فهي ليست مشكلة الشمال والجنوب في الولايات المتحدة فحسب إذ يمكن اعتبار مشكلة التميز العنصري، وأسطورة التفوق العرقي من أهم أسباب انعدام السلام العالمي في هذا العصر. ومن السخف بمكان كبير أن نتوقع إسهام أربعة أخماس البشرية التي لا تنتمي للعرق الأبيض الآري في تثبيت دعائم سلطة البيض الذين يشكلون خمس البشرية فقط. وأي حكومة عالمية تنشأ على أساس أسطورة تفوق العرق الآري على بقية العروق، هي حكومة تستعيد الأكثرية لمصلحة الأقلية، وتكون لحمة عملياتها وسداها العنف والخداع. وهذا يعني حرباً مستديمة وخوفاً لا حدود له، والخوف ثمنه الظلم.

ونتساءل كيف وصلنا إلى هذا الوضع الذي نحن فيه؟ وكيف اكتسبت كلمة العرق هذه القوة المرعبة؟ ظهرت كلمة «العرق» في القرن السادس عشر، وكانت كلمة بريئة حينذاك، تطلق على الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الآباء. أو تعني الجيل كله واستعمل علماء الحيوان هذه الكلمة لتشير إلى حيوانات متعددة تنتمي إلى نفس الفصيلة ثمَّ طبق هذا المعنى الأخير على الإنسان، وفي بداية القرن التاسع عشر ظهر أن الإنسان أيضاً حيوان.

أن المعركة الفكرية التي سبقت تحرير العبيد، هي التي أعطت كلمة «العرق» مفهومها الحديث. وبالرغم من مرور 87 عاماً على

تصريح المستعمرين الأميركيين «خلق البشر جميعاً متساوين في الحقوق والواجبات» فقد استمروا في استعباد وتملك الملايين من البشر، ولم يغفل -بالطبع- عن هذا التناقض إلا القليل من البشر كما لم ينج الأميركيون من تأنيب الضمير.

وبما أن الأميركيين في الجنوب كانوا ولا زالوا يستفيدون من الرق بالرغم من تشدقهم في الحديث عن الديمقراطية والمساواة والعدالة، فقد وجدوا أنفسهم في حاجة ماسة لتبرير التناقض الواضح في تصرفهم، وكان المبرر الذي وجدوه هو نظرية العرق والأجناس.

فقد قالوا: إن التعبير «خلق البشر جميعاً متساوين» لا يشمل الزنوج والملونين. فالملونون ليسوا ببشر»، إذا التزمنا الدقة في التعبير، بل هم فصيلة دنيا، منحطة فكرياً وخلقياً، إذا قيسوا بالعرق الآري. وهم قوم ميؤوس منهم أي لا يمكن تعليمهم. ولكيلا يضيع أي مخبول وقته وجهده في تعليمهم، فقد سنت الولايات الجنوبية القوانين التي تفرض العقوبات على من تسول له نفسه تعليمهم.

أما تحويل مفهوم العرق إلى فلسفة واضحة فقد تم على يد الكونت آرثر دي جوبينو (1816 - 82) وهو كاتب رجعي ثانوي ينتمي للإمبراطورية الثانية، اضطر للطعن بالأسس الفلسفية للثورة الفرنسية لكي يثبت ادعاءاته الأرستقراطية. كما صرح بأن القول بالأخوة البشرية والعدالة حلم فارغ مستند على مغالطة المساواة بين البشر، ولكي يسند هذا الرأي ادعى بوجود فوارق فطرية في المواهب واختلاف في قيمة

البشر، تتعادل قطعاً مع لون البشرة وشكل الرأس وتضاريسه علاوة على الخصائص البدنية الأخرى. وأضاف بأن العرق الأبيض أسمى الأعراق ولا يسمو على بقية الأجناس بارتفاعه عنها بالدرجة فحسب بل باختلافه عنها نوعياً أيضاً. فهو وحده القادر على خلق الحضارة، وامتلاك هذه القدرة رهين ببقائه عرقاً نقياً، وبما أن العرق الأبيض كان عرقاً مخلوطاً عندما دفع كتابه للنشر - 1853 فلنا أن نفترض بأن عملية الخلق الفكري كانت جامدة تماماً - فيما خلا قدرات جوبينو الخلاقة طبعاً -.

فواجب العرق الأبيض لذلك أن يشرع حالاً بتطهير نفسه من السلالات الدنيا المنحطة. وإن فعل فإنَّه سيحكم العالم «طبعاً».

ولربما تأثرت فكرة التفوق العنصري بالتوازي الانفعالي بين البياض والفضيلة من جانب والسواد والرذيلة من جانب آخر بطريقة لا واعية. أمَّا إذا عدنا إلى الواقع فإن العرق الأبيض ليس أبيض حقاً ولا العرق الأسود أسود ولا الأحمر أحمر ولا الأصفر أصفر، بل إن مشهد الأبيض لو كان فعلاً أبيض مشهد قبيح. وليعتبر اليوم حتى الشحوب من الأمور المعيبة خاصة بعد أن اقترن تورد الخدود والسمرة الناجمة عن الاستحمام الشمسي بالثراء وراحة البال. ومما يجدر ذكره بأن الزنوج يطلقون اسم الحمر على البيض.

أما في ألمانيا، حيث كانت مشكلة العرق نظرية وحيث كانت مفتوحة للتأثر بالأدب، فقد وجد جوبينو الكثير من الاتباع ولا سيما بعد أن توج العرق الجرماني باعتباره «العرق السيد».

وقد استبشر «الشعب السيد» ببعد النظر هذا فأسسوا جمعيات جوبينو في جميع أرجاء وطنهم لينشروا هذا الخبر السار – خير تفوقهم. ولقد ازداد سرورهم في عام 1899 بل تحول إلى غبطة أو إلى نوع من الجنون عندما نشر كتاب «أركان القرن التاسع عشر» الذي كتبه أوستن ستيوارت تشمبرلين الذي تعدى خيالات جوبينو وخرق حدود سلامة العقل. فقد خلط تشامبرلين بين عِلم اللغات وعِلم الوارثة وعظم العرق الآري وضمَّ إلى هذا العرق كل من كان عظيماً بنظره.

وقد نال كتاب تشمبرلين شهرة واسعة. وصرح القيصر الألماني؛ وهو سيد «العرق السيد» والذي عين نفسه «أسمى الجميع» – بأن هذا الكتاب من قراءاته المفضلة. أما هتلر فلم يجد حاجة لأن يطلق مثل هذا التصريح فقد كان رأيه في الموضوع بالغ الوضوح في «كفاحي». وفي الحقيقة إذا صدقنا فريدلند فاكنر – الذي يدعي بأن هتلر كان غالباً ما يزورهم في شبابه – فلربما التقى هتلر بتشمبرلين الذي كان صهراً لفاكنر.

كان الاضطهاد الديني أو الفكري، ولا زال في الماضي هو الذي يوفر كبش الفداء. فكان المسيحيون هم كبش الفداء بالنسبة للرومان. يخبرنا ترتليان «إذا فاض التايبر وهدد أسوار روما، أو إذا عجز النيل عن إتراع الجداول والحقول، أو إذا امتنعت السماء عن إرسال المطر، أو إذا زلزلت الأرض زلزالها، أو إذا هددت المجاعة أو إذا فتك الوباء ترددت صيحة واحدة لا تتغير: «أطعموا المسيحيين للأسود»» (م 27، ص 302).

كان الاضطهاد في الماضي يتميز بتبرير ملتوٍ، فالمسيحيون كانوا كفرة عقوبتهم واجبة على المؤمنين من الرومان، وتأمر الآلهة بالانتقام منهم

دون تميز. فقد هددوا السلامة العامة وما إبادتهم إلا من دواعي الصحة العامة والنظافة.

أما تبرير اضطهاد أي فئة من الناس لأنها تختلف عن بقية الناس بيولوجياً أو لأنها تشكل فصيلة دنيا من البشر من مبتكرات الفكر الحديث. وكما يشير جون ستيوارت مل أنها نتاج لعدم التفكير عن قصد. فقد كتب يقول: «هناك وسائل عدة للتهرب من مجابهة المؤثرات الاجتماعية والأخلاقية على الفكر البشري، ولكن أبلغ هذه الوسائل فحشاً هي إرجاع الاختلافات الخلقية السلوكية إلى أسباب فطرية طبيعية».

لقد اعتبر «الباحثون» في هذه المشكلة، شأنهم شأن معظم الباحثين في المشاكل، اعتبروا الفرضية الأساسية شيئاً مفروغاً منه. فلم يدخلوا في حسابهم الشك في مفهوم العرق نفسه بل صرفوا جل جهدهم لتصنيف العروق ـ أو بشكل أدق تصنيف المراتب التي تنتمي إليها الأعراق المختلفة وهي تهبط من قمة المقياس الذي يحتله البيض – والصفة الأساسية لهذا التصنيف هو لون البشرة والذكاء حيث اعتقدوا أن الذكاء يتناسب تناسباً عكسياً مع دكنة اللون.

ويلي الذكاء أو بالأحرى يتقدمه «الخلق»، وقد شعر العرق الأبيض بأنه كان قد وهب هذه الصفة بسخاء. فوجب عليه لصالح العالم أجمع أن يحكم العالم، أو بالأحرى أن يبيد بقية البشرية. وقد حذرنا كارل بيرسون وهو رجل «جاد متزن» «إن من يتأسف على حلول العرق

الأبيض القادر والضليع محل قبيلة ملونة لا تستطيع أن تنتفع من أرضها لتنفع البشرية، ولا تضيف نصيبها إلى المعرفة البشرية، ليكشف لنا عن تصوره الخاطئ للتماسك البشري كما يكشف عن إنسانية ضعيفة وعطف إنساني كاذب». (م 140، ص 310).

قد لا يكون التعبير «حلول» مستعملاً استعمالاً حرفياً. فالبرفسور بيرسون بإدلائه بدلوه لخير المعرفة البشرية، لم يقصد من ذلك أن العرق الأبيض «القادر والضليع» يجب أن يكدح في الحقول بل عنى من ذلك أن العرق الأبيض يجب أن يجبر السود على العمل في الحقول من أجل هذه «الغاية النبيلة».

وقد يتطلب هذا الأمر اللجوء إلى العنف، فالقبائل الملونة لا تدرك دائماً «الإنسانية الحقة» عندما تراها. ولكن غالباً ما يكفي التفوق الخلقي وحده (ويجدر أن تنصب المدافع الرشاشة على أهبة الاستعداد... عسى ولعل).

وهكذا أكد سيريل روبنسون في كلية ونشستر لمنشئي الامبراطورية الشباب في عام 1928 بأن واجبه «قد غدا سهلاً بسبب الاحترام والوقار الفائق الذي يوحي به الخلق الأوروبي السامي». وأضاف بأن «العقل الشرقي بالرغم من انغماسه في الخداع وغرقه في الوحل الآسن لا زال يكن الإعجاب لاستقامة وعدالة الآخرين».

ولكنه لا يدعى بأن هذه السلالات الدنيا غير قادرة على التعلم، بل على العكس ولسوء الحظ. «فالهندي يتعلم بسرعة هائلة» ولكن «لهول المصيبة، تظهر قابلية التعلم بأبرع أشكالها لدى من لا يتمتعون بالروادع

الخلقيـة إلا بالسطحي منها». وهكذا فالهنود لا يفتقرون للذكاء... ولكن هـذا الأمر يجعـل السـيطرة عليهم أمس ضرورة، لأنهم يفتقرون «للوازع الخلقـي»، ومعارفهم السـطحية تملؤهـم بالغرور، ويزيـد من «طموحهم المسـعور ورغبتهم في ارتقاء المناصب المسـؤولة واقتبـاس بعض الكلمات الجديـدة كالقوميـة والديمقراطية». ولكن لا يستحسـن ترفيعهم بسـبب هذا النقص الخلقي البالغ ولذلك فهم يفورون في استيائهم ويغلون، حتى يصلوا مرحلة «لا يكفي فيهـا خيالهم المحموم سـوى الحرية والاسـتقلال الناجز التام». (م 333 ص، 622، 623، 632).

هـذه هي أفكار «الحكـماء»، ولكن رجل الشـارع يجد فيها لغـواً كثيراً وتعقيـداً كبيراً. فيسـتمد نقطة انطلاقه مـن الفوارق الحضاريـة الآنية بين العـروق، فهو يتسـاءل بزهو الانتصـار... إذا كان العـرق الأصفر والبني والأسـود لا يختلف عـن العرق الأبيـض، فلماذا لم تخترع تلـك الأجناس المبردة والسيارة وطعـام الكلاب المحفوظ والمعلب؟

وإذا اسـتجوبت مثـل هـذا الشـخص تراه مسـتعداً للاعـتراف بـأن الرجل الأبيض، باسـتخدامه مدفعاً رشاشـاً للسـيطرة على خمسين ملوناً، يسـتعمل تفوقـاً مكتسـباً غـير فطـري. ولكنه لا يقتنـع بأن الأفـكار التي يمتلكها والمعرفة التي يقتبسـها تكسـبه تفوقاً يشـبه التفوق الذي يكتسـبه لـدى امتـلاك المدفع الرشـاش بل وتفوقه قـوة. إن المعرفة تعطـي مالكها قـدرة على السـيطرة على من يفتقـرون إلى المعرفة سـواء كان مالك المعرفة في وطنـه أم في وطـن أجنبـي. ولكـن كائناً مـن كان... عليه أن يكتسـب

المعرفة من مناهلها أولاً ليستطيع ممارسة السيطرة فيما بعد. وهكذا فإن سياسة جامعات الغرب التي تغلق أبوابها بوجه الملونين هي في الواقع أبلغ اعتراف بأن الزنجي والهندي والصيني والياباني...الخ يستطيعون أن يتعلموا أن وجدوا الفرصة، بالرغم من ادعاءات المغالطين.

إن الحضارة الغربية الحديثة مدينة بتراثها، في الحقيقة، لليونانيين وعلومهم وفلسفتهم وفنهم. ولكن الشوفيني الذي يهنئ عرقه على اختراعاته الميكانيكية وفنونه وعلومه يعتبر اليوناني المعاصر من أوطأ أصناف العرق الأبيض. الأمر الذي ينعكس على سياسات الهجرة والمقاعد المخصصة لهم في جامعات الغرب. هذا ويجب ألّا يغرب عن بالنا أن اليونانيين في الواقع استمدوا معارفهم من البابليين والسومريين والفراعنة الذين لا يمكن اعتبارهم من العرق الآري بحال من الأحوال.

وقد عاش الرومان نفس الحياة التي نحياها اليوم يتمتعون بالمطاعم وأحواض السباحة ورحلات الاستجمام والملاعب الرياضية وأحمر الشفاه بينما كان أجداد العرق الإسكندنافي يطلون جلودهم بالصبغ الأزرق ويقطنون أكواخاً من الطين، ويقدمون القرابين لأشجار البلوط.

انه لمن المهانة مواجهة هذه الحقائق ولكن حكماء الرومان في ذلك التاريخ لم يضعوهم حتى في صنف البرابرة. فقد قال شيشيرون لاتيكوس ناصحاً «لا تأخذ عبيدك من بريطانيا لأنهم في غاية الغباء وتعوزهم القدرة على التعلم ولا يمتلكون القدرة على أن يصبحوا جزءاً من عالمنا المتحضر».

أمـا المؤمنون بالتفرقـة العنصرية فهم يرون في هذا أدلـة إضافية تدعم وجهــة نظرهـم. فهم يؤكدون بأنهـم بدأوا متأخريـن، وبالرغم من ذلك فقد سـبقوا العالم وهذا يدل «فعلاً» على تفوقهم. ولكن الجواب على هذه النقطة هو أن الزمن لا يمكن أن يعتبر مقياساً صحيحاً للتقدم الحضاري. فالتغيرات التي تسـتغرق قروناً لدى بعض الشـعوب لا تستغرق أكثر من سـنوات معدودة لدى شـعوب أخـرى. وهكذا فعندما سـافر ديكنز عام 1842 إلى غـرب الولايات المتحدة سـنحت لـه الفرصة لأن يلتقي برئيس قبيلة التشـوكتو (من الهنـود الحمر) والذي كان يرتدي بدلـة غربية ويقرأ كتاب «سيدة البحيرة» تأليف سكوت.

يعتمـد التغير الحضاري على الانفتاح على التجارب الحضارية الجديدة أكثـر مـن اعتماده على فـترة زمنية معينـة. ويصبـح التقدم بطيئـاً للغاية في غيـاب هذه التجارب كما يشـهد على ذلـك مؤرخو الحضارات السـاكنة. وأهــم عناصر هذه التجارب الجديدة هو الانفتاح على تجارب الحضارات الغربيـة. فكلما ازدادت فرصة الحضارات للتعلم من الحضارات الأجنبية أصبحـت هذه الحضارات دينامية متطـورة، وكلما ازدادت فرص الالتقاء بـين الحضـارات ازدادت معهـا فـرص التعلـم. وهكذا تصبح الشـعوب المنعزلة بدائية لانعدام الشعوب المجاورة التي تستطيع أن تتعلم منها طرق «أجنبية» في الحيـاة. وإذا كان للعرق الجرماني أي تفوق حقيقي على قبائل الهوتنتـوت يعود لأن الألمـان كانـوا على معرفة أوثق وأطول بالفرنسـيين من الهتنتوت.

الفصل الثاني عشر:

لا شي يستحق النعيق

إن مشكلة الزنوج من أهم مشاكل الولايات المتحدة. وما دام الأمريكي الأبيض لا يعترف بأن الزنجي هو ند كفوء له، فإن حديثه عن «المساواة» و«الحرية» وحتى «الاقتصاد الحر» يبقى بلا معنى له.

ولقد حدد معظم الأمريكان البيض موقفهم بهذا الشأن، وكان قرارهم واضحاً محدداً. فالزنجي برأيهم ضخم، شره جنسياً، وكسول. تميزه بوضوح عن بقية البشر شفتاه الغليظتان وذراعاه الطويلان وشعره المجعد وتضعه دون البيض بصف القردة. تتملكه الرغبة الجامحة باغتصاب النساء البيض. وقد زودته الطبيعة تزويداً سخياً بالأعضاء والانفعالات اللازمة لهذا الغرض. وفي الفترات القائمة ما بين اغتصاب وآخر، يمعن في المقامرة ويطلق صيحات خاصة معينة.

أمَّا المرأة الزنجية من الطراز القديم؛ فهي بدينة ولطيفة المعشر تعاني باستمرار من «التعاسة» وهي نوع من الأمراض الوهمية المسلية. إنَّها تشكو دائماً ولكن لا داعي لأخذ شكواها مأخذ الجد. وهي تؤنب سيدتها غالباً بطيبة قلب ولصالح سيدتها. شديدة الاخلاص؛ فإذا وقعت العائلة في مأزق مالي، كانت مستعدة دائماً للتضحية بكل ما وفرته من المال، والتنازل عنه بخشونة تخفي مشاعرها الحقيقية. وهي طباخة ماهرة ولكنها تعجز عن تنويع أشكال الطعام أو وصف مقومات طبخها. وتتسم معالجتها للأطفال البيض المرضى بالغرابة والسحر. فإذا يئس الاختصاصيون من شفاء الطفل فهي ترمي غاضبة بكل الأدوية من الشباك، ثم تقوم بتركيب

دواء بسيط سري يشفي الطفل المريض، ويعيد له صحته وابتسامته في دقائق معدودة.

وهي تختلف كثيراً عن الزنجية التي تنتمي إلى الطراز الحديث. فالزنجيةُ الحديثة برأي الأميركيين عدائية تتظاهر بالمرض، وهي خطرة تنتمي إلى منظمة هدامة أسستها السيدة روزفلت؛ تنحصر فعاليتها بمزاحمة النساء البيض فتدفعهن عن الرصيف في أيام الخميس خاصة. أمَّا في مخازن القبعات، فهي تجرب القبعات المعروضة وبذلك تتلفها فلا يستطيع الزبائن الآخرون شراءها.

هناك معتقدات أخرى شائعة عن الزنوج؛ منها أنهم يخافون الأشباح ويعبرون عن خوفهم هذا بدرجة بياض عيونهم واهتزاز ركبهم، ومنها رائحتهم الكريهة. كما يعتقد أن أدمغتهم أصغر حجماً من أدمغة الأبيض ويتوقف نموهم العقلي لدى سن البلوغ. فهم لذلك لا يجتازون مرحلة الطفولة طيلة حياتهم وكتعويض عن هذا النقص يعتقد أنهم يمتلكون حدساً أنكر على العرق الأبيض. ويقتصر غذاؤهم على الدجاج المقلي وشرائح لحم الخنزير والبطيخ (رقي).

وهم سعداء دائماً يغنون الأغاني الدينية ويرقصون طرباً بدون أي شعور بالمسؤولية. وعندما تبلغ سعادتهم حداً لا يطاق؛ يذبح كل منهم الآخر بالأمواس. قبل دراسة وتحليل هذه المعتقدات، يجب أن نوضح بأن الزنجي الأمريكي يختلف فعلاً عن الأمريكي الأبيض. فرأسه أطول وأضيق من رأس الأبيض وجمجمته أقل اتساعاً من جمجمة الأبيض. كما

يتسم بضيق الجبين وبعد المسافة بين العينين، وأنفه قصير عريض ذو جسر منخفض، أما فكّاه فهما بارزان يتميزان بشفاء غليظة. وجذعه أقصر من جذع الأبيض نسبياً، وذراعاه أطول، وصدره مسطح، وحوضه أضيق وأصغر حجماً، وساقاه أطول. ويزيد وزنه على وزن الأبيض وهو أقصر قامة منه. وتحتوي بشرته على كمية أكبر من اللون الأسود وأمّا شعره فمتموج مجعد صوفي. وهو أقل سمكاً من شعر الرجل الأبيض، كما يحتوي جسمه على غدد عرقية تفوق نسبياً غدد الرجل الأبيض. إن هذه الاختلافات بمجملها لا تسند الرأي القائل بانحطاطه عن العرق الأبيض، إذ تشير هذه الصفات أحياناً إلى تفوقه. فبروز وسعة الفك مثلاً صفة جديدة إذ أن تراجع الفك لدى البيض وصغر حجمه؛ بسبب التهابات الجيوب الأنفية ومشاكل نمو الأسنان، كما يسبب انشقاقات في سقف الحلق وانشقاقاً في الشفة. ولربما كان صغر الحوض صفة سلبية ولكن لم يتم إثبات ذلك بعد. (م 85، 130 ص 31 - 44، 129).

ولا تلعب الفائدة الوظيفية أي دور في المقاييس السوقية للسمو والانحطاط ويعبر ذلك عن نفسه في الادعاءات الشائعة بأن الزنوج «أقرب العروق إلى القردة» ويثبت ذلك بالصفات الزنجية كالشفاه الغليظة والانف المسطح والجلد الأسود والأذرع الطويلة والشعر الكثيف المجعد.

أما في الحقيقة فلا يزيد الشبه بين القرد والزنجي عن الشبه بين الأبيض وهذا الحيوان. تتصف بعض القردة بالبشرة السوداء، حقاً ومعظم أنوفها

مسطحة وأذرعها طويلة أيضاً. ولكن زيارة واحدة لحديقة الحيوان تبرهن لكل شخص ذي عقلية محايدة بأن شفاه القردة وشعرها أشبه بشفاه البيض وشعرهم، فشفاه القردة رفيعة وشعرها سبط كثيف. إن أذرع الزنجي حقاً أطول من أذرع الأبيض وهذا يشبه القردة؛ ولكن ساقيه أطول من ساقي البيض وهذا يختلف تماماً عن القردة. أما الصفة الأخيرة فتبرهن على عكس الاعتقاد الشائع. ولو استمرت المقارنة واتخذنا الشبه بالقردة كمقياس سلبي للرقي، فسنجد الرجل الأبيض أقرب إلى القردة من الزنجي. فإن سمك الشعر في أسفل الجبين لدى الأبيض يجعله أقرب شبهاً بالقردة من الزنجي مثلاً ولكن من الأفضل الكف عن المقارنة حفظاً لكرامة القردة والبشر معاً. إن طول ساقي الزنجي (وهي صفة غير متوفرة لدى القردة ــ كما سبق أن أسلفنا - قد أهملت تماماً. وهذه دلالة على فقدان الروح الرياضية بين البيض الذين لا يستطيعون تقبل فكرة تفوق الزنجي عليهم. وإذا اشترك زنجي وأبيض في سباق للركض يدعي الأبيض بأن هذا السباق لا يقوم على الانصاف والعدل.

فالزنجي بطبيعة جسمه وساقيه الطويلتين يتخذ خطوات أوسع من الأبيض. يجب ألّا يغرب عن البال أن هذا المنطق هو نفسه الذي واسى به النازيون أنفسهم عندما تفوق عليهم الأمير كان في الألعاب الأولمبية لعام 1936. فبما أن الكثير من الأمريكان الزنوج اشتركوا في هذا السباق إدعى النازيون أنه لم يكن سباق الند للند، فقد أجبروا على التسابق مع الحيوانات. ولو كان السباق مع البشر (يقصدون العرق الآري) لكانوا هم المنتصرين.

ولكن منطقهم لم يستند على شيء ذي بال. إذ هنالك الكثير من الرياضيين الزنوج الذين تغلب عليهم صفة قصر الأرجل كالبيض. (م 38 ص 7) (3، 103 ص 73).

وهذا التناقض في منطقهم، الذي يبرز في تجاهل الصفات الإيجابية والتأكيد على الصفات السلبية، ما هو إلا تناقض ظاهري. فالانسجام الحقيقي في الأخطاء الشائعة السوقية لا يكمن في التساوق المنطقي والخلو من التناقضات؛ بل يمكن في استهدافه إثبات فرضية واحدة وفي هذه الحالة إثبات تفوق العرق الآري. فهم لا يهمهم حقاً ما يفعل الزنوج وما لا يفعلون، أو ما يمتلك الزنوج ما وما لا يمتلكون – وبالنسبة لهم يدل كل شيء على انحطاط العرق الزنجي. وحتى عندما منحوا العرق الزنجي بعض الصفات الايجابية، تبين بعد التدقيق والتمحيص أنها في الواقع مزيد من الاتهامات التي يعوزها المبرر المنطقي. بل تقود في النهاية إلى التأكيد على التميز العنصري.

وهكذا فإن الاعتقاد الشائع بأن الزنجي يتمتع بقدرة أفضل على تحمل الحرارة هو في الواقع افتراء، يقصد منه إبعاد انتباهنا عن الحقيقة، لأنهم لا يتحملون الحرارة أكثر من الرجل الأبيض. يعمل الملايين من الزنوج ساعات طويلة في وهج الشمس اللاهبة وذلك لزيادة أرباح الآخرين، وهؤلاء الآخرون يجدون الاصرار على الاعتقاد بأن الزنوج «لا يكترثون طبعاً» بحرارة الجو، أسهل وأرخص من تخفيض ساعات العمل، أو تجهيزهم بالماء المثلج، أو إعطائهم وقتاً كافياً للراحة. ومما يدحض هذا

الاعتقـاد أن لـون بشرتهـم السـوداء لا يحميهم مـن الشـمس اللاهبـة أو التعرض لضربة الشـمس. وطبيعة عملهم الذي يعرضهم للشـمس، ولا سيما في جنوب الولايات المتحدة، يسبب موت الكثير منهم بتأثير الحرارة. ونسـبة الوفيات بينهم لهذه الأسباب عالية جداً تزيد من الضعفين إلى ستة أضعاف عن نسبة الوفيات بين البيض. (م 54 ص 517 – 519).

أمـا الاعتقاد القائل بـأن الزنجي يتمتع بقدرات جنسـية خارقة فيبدو أنـه أمـا معتقـد وظيفي أو مجـرد فضول. فهـو يزيد من الخـوف من وقوع الاغتصاب ويبرر «إبقاء الزنوج في مكانهم»؛ أي عزلهم عن باقي المجتمع. ولكـن يبدو أن هذه الأسـطورة هي في الواقع نتـاج لاهتمام غريب يختفي عادة وراء سـتار من الاستهجان الخلقي والرعب، تتداوله جميع الشعوب بالنسـبة للسـلوك الجنسي للشـعوب الأخرى، فينسـب الصينيـون أعمالاً جنسية خارقة للبيض (م 80 ص 287).

ولقـد هـول الخطـر الكامـن في الدافع الجنسي لـدى الزنوج بمسـلمة «عـدم نمـو عقله». وهو اسـتنتاج قائم على مقولة «صغّر دماغه» بالنسـبة للرجـل الأبيض، إذ يتوقـف نموه قبل الأوان بالتحام شـقوق الجمجمة. وقد أعطى الدكتور شيفيلد تعبيراً كاملاً عن هذا الاتهام في كتابه «الزنجي تهديـد للحضـارة الامريكيـة». يقـول شـيفيلد «إن جمجمـة الزنجي أقل سـعة والدمـاغ نفسـه أصغر حجـماً (من الرجـل الأبيض) فسـعة جمجمة الزنجي 35 أونسـاً سـائلاً بينما سـعة جمجمة الآري 45 أونسـاً، أما عظام جمجمـة الزنجي فهي سـميكة بشـكل غير اعتيادي حيـث يتحول الرأس

إلى مطرقة ضخمة. وعلاوة على ذلك فإن شقوق الجمجمة تلتحم بشدة في المراحل الأولى من حياة الزنجي. وهذا مما يوقف نمو الدماغ مبكراً، أي قبل أن يقف هذا النمو في العروق الأخرى. وتعلل هذه الحقيقة إلى حد ما توقف نمو الفكر الاثيوبي بعد سن البلوغ مباشرة، (م 155 ص 35). وقد أيد الكثيرون رأي شيفيلد. فقد كتب السيد بيبلو (وهو عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي) إلى السيدة روث ابيلادو، المدرسة الزنجية في احدى المدارس في شيكاغو، ناصحاً إياها بترك عملها والبحث «عن عمل كخادمة». وأضاف شارحاً، بأسلوب تعوزه البلاغة قدر ما تعوزه اللياقة والذوق «من الواضح أنك لم تتعلمي شيئاً قبل سن المراهقة وهناك كما تعرفين حقيقة بيولوجية هي أن جمجمة الزنجي وأقسامها المتعددة تتصلب عندما يبلغ الزنجي سن البلوغ ولا يقدر على استيعاب أي معرفة بعد ذلك». (م 225 ص 14) وادعى البعض بوجود صفات أخرى سلبية؛ فقد كتب البروفسور روبرت بين في مجلة التشريح الأمريكية، قبل جيل مدعياً بأن دراساته كشفت عن أن دماغ الزنجي ليس أصغر من دماغ الأبيض فحسب بل هناك أقسام فيه واسعة ومعينة كرست لفكرة «الاغتصاب والقتل» (م 15 ص 353 – 415). تعوز آراء شيفيلد اصالة ما كتبه «روبرت بين» وليس لكلا الرأيين أي نصيب من الصحة على الاطلاق. ان دماغ الزنجي أصغر فعلاً من دماغ الأبيض ولكن الاختلاف هو 40 سم^3 وليس 10 أونسات سائلة. وهذه الكمية في الواقع كافية، كأية كمية أخرى، إذا كانت ثمة رغبة للاعتقاد بذلك، ولكن قبل أن يسند الشوفيني الأبيض ارتقاءه عن بقية العروق

على اختلاف بسيط في الدماغ، عليه أن يعلم بأن قبائل الكافير واليابانيين والهنود الحمر والأسكيمو أو البولونيزيين يمتلكون أدمغة أكبر من أدمغة الأبيض.

وهكذا إذا استمر الأبيض في الإصرار على معادلة الذكاء مع سعة الجمجمة وحجم الدماغ فإنه سيجد نفسه في أسفل السلم الذي ارتضاه مقياساً للرقي (م 186 ص 97 – 194).

أما فيما يخص سمك جمجمة الزنجي؛ فتنعدم القياسات العلمية التي تبين اختلافها عن جمجمة الرجل الأبيض (م 129). وبالرغم من ذلك وكما يقول منكن فالاعتقاد الشائع في الولايات المتحدة أنك ــ «إذا ضربت زنجياً على الرأس بحصاة فإن الحصاة ستتفتت «وهذا جزء من الإيمان الأمريكي الوطني» (م 136، ص 142)، بقي في العقل الباطن طبعاً الاعتراف بوجود النزوع إلى ضرب الزنوج على الرأس بالحصى. ولكن التسلي برمي الكرات الصلدة على صورة رأس زنجي لعبة شائعة، فيدفع الأمريكان كل عام النقود لممارستها في المهرجانات وعلى بلاجات البحر ومناطق الاصطياف. وتدل هذه اللعبة على أن النزوع غير منفصم عن الفكرة بل يتعلق كل منهما بالآخر.. وهكذا يريحون ضمائرهم بأن الزنجي لا يهتم لأن جمجمته سميكة، أما مسألة التحام شقوق الجمجمة، فقد غدت موضوعاً للبحث العلمي وأجريت دراسات دقيقة أثبتت أنه لا توجد أية فروق في التحامها بين البيض والزنوج. ولو قرأ أي شخص أبحاث الأساتذة تود ولا يون، اللذين كلفا نفسيهما الكثير من

العناء لدحض هـذا المعتقد، لاستطاع أن يقدر سـهولة النطق بالأكاذيب وصعوبـة دحضهـا. وقـد يتسـاءل إن لم تكن شـقوق جماجم البـشر جميعاً تلتحم قبل الأوان. (م 186 ص 68 – 149).

إن الإيمان الشائع بتوقف دماغ الزنجي عن النمو من الأخطاء السوقية المحزنة، التي تثبت نفسها بنفسها.

فمـن المعروف ان الزنـوج في الولايات المتحدة ينقطعون عن المدرسـة لدى سـن البلوغ، ثم يلجؤون للأعمال اليدوية أو يتعفنون في بطالتهم منذ ذلـك الحين. كما يشـعر معظمهم لدى سـن البلوغ أنهم منبـوذون، فتنقطع علاقاتهـم وصداقاتهـم. السـابقة مـع الأطفال البيـض (وكان هـذا الأمر شائعاً في الماضي أكثر مما هو عليه اليوم). فيصبحون منذ ذلك الحين «عبيداً خطرين». ولس غريباً بعـد كل هذا ان يتقيد نموهم بالفقر والجهل وانعدام الفـرص. فيجتاحهم الحقـد بسـبب التميز العنـصري. ويتملكهم الخوف والقلـق لعـدم الطمأنينـة للمسـتقبل. مـا العجـب في أن لا يظهـروا تفوقاً فكريـاً؟ والأعجـب من ذلك أن هـؤلاء الذين يتوقعـون أن يكون الزنوج أطفالاً إلى الأبد يتملكهم الغيظ حالما يكتشفون أنَّ العكسَ صحيح.

تشـير الأحاديـث التي نسـمعها عـن (الـدم الزنجي) بـأن الزنجي – حسـب المفهـوم الشـعبي – لا يختلـف تشريحيـا عن الأبيض فحسـب بل يختلف عنه فسلجياً أيضاً.

وقد ترجم هذا القول إلى فعـل عندما وافق الصليب الأحمر على فصل دم الزنوج عن دم البيض في بنوك الدم. لا يعتقد المسؤولون الذين اتخذوا

هذا القرار بالخطأ السوقي طبعاً، ولكنهم شعروا دون شك بأن اعطاء دم مخلوط إلى بعض الجنود، قد يؤدي إلى شعورهم بالتعاسة - وهذا أمر لا شك فيه- ولذلك وجدوا أن من واجبهم مجاملة المغالطة بدلاً من نقضها، ولكنهم بعملهم هذا نجحوا في ازعاج جنود آخرين إلا وهم الزنوج.

إن الاعتراض على دم الزنجي لا يرتكز فقط على رغبة البيض في عدم الاتصال بالزنوج بتاتاً، وانما يعتمد على فكرة قديمة مفادها أن الدم هو حامل للصفات الموروثة. ولكن الدم هو في الواقع جزء من الجهازين الهضمي والتنفسي. فهو تكوين يتم بواسطة نقل الغذاء والاوكسجين إلى خلايا الفرد والتخلص من النفايات. وهكذا فليس للدم أي علاقة بالتكاثر، ولا يختلف دم الزنجي عن دم الأبيض بأي شكل من الأشكال. هناك اختلافات في نسب مجاميع الدم لدى الأجناس المختلفة. فيمتلك الزنوج نسبة أعلى من بعض المجاميع، بينما يمتلك الآريون نسبة أعلى من مجاميع أخرى. ولكن الزنوج يمتلكون جميع مجاميع الدم التي يمتلكها البيض، كما أن تركيب دم الزنجي من مجموعة معينة، لا يختلف اطلاقاً عن دم الأبيض من نفس المجموعة. هذا ما ثبت علمياً (م 128 ص 15 - 19).

ويرتعب الكثيرون من تلويث دمهم بدم الزنوج ولكنهم؛ لا يبالون لدى حقنهم ببلازما من دم الخيول (كما في حالة التلقيح ضد التيفوئيد والدفتريا) ودون أن يخافوا من أن يصهلوا يوماً ما، أو أن ينمو لهم ذيل.

ثمة نقطة أخرى يقصد منها البرهنة على أن تكوين أجسام الزنوج يختلف (أكثر انحطاطاً) عن أجسام البيض ألا وهي أن أجسام الزنوج

تطلق رائحة كريهة «بصورة طبيعية». وتؤمن الملايين بهذا الوهم، ولكن هنالك البعض الذين احتكوا بالزنوج عن قرب؛ ولم يستطيعوا أن يحسوا بأي شيء «طبيعي» سوى العرق الذي يتصبب من أجسامهم لدى العمل المرهق. وكل من يتعرق باستمرار، دون أن يستحم، يطلق رائحةً كريهة مهما كان جنسه. ويقطن الزنوج في أكواخ حقيرة تعوزها دورات المياه فلا يستطيعون الاستحمام. كما يرغمهم فقرهم على استعمال نفس السمنة للطبخ مراراً وتكراراً فتنتشر رائحة السمنة في ملابسهم التي لا يستطيعون دفع تكاليف تنظيفها. والطريف أن الطبقات الراقية تدعي نفس الشيء بالنسبة للطبقات الدنيا في بريطانيا. فيقول أرستقراطيو بريطانيا: إن العمال ينفثون رائحة كريهة وطبيعية لديهم.

والتاريخ مليء بمثل هذه الاتهامات فيقول ريتشارد رايت الكاتب الزنجي «تنبعث هذه الرائحة من الزنوج بسبب التعرق ولكن للبيض رائحة كريهة دائمة» (م 200 ص 65) وقد اقتبست مجلة التايم قول دلمار كولدن الجندي المحنك الذي «يستطيع أن يشم حامية من اليابانيين عن بعد خمس مئة باردة» (م 310 ص 65). وهذه ظاهرة غريبة لو كانت حقيقية لسهلت الكثير من العمليات الحربية. وقد اتهم اليابانيون بهذه التهمة منذ أن نشر أحد علمائهم، من المختصين بالتشريح ويدعى بتناور اداكي، تقريراً علمياً خالياً من المديح، عنوانه «رائحة الأوروبيين». ومن الصدف أن الرائحة التي لم يستطع الياباني تحملها كانت رائحة الألمان. ولقد سبب هذا التصريح إحراجاً لدول المحور (م 2 ص 14).

إن التفسيرات التي أعطيت لتدعم هذه اتهامات تبرهن على أن مثل هذه الاتهامات لا أساس لها. وهكذا فقد تم تبرير التميز العنصري الذي يمارس ضد الزنوج عند تشغيلهم بالشكل التالي «إن الرجل عندما يعرق يفرز جسمه ملحاً يساعد على تبديد الرائحة. ولكن جسم الزنجي لا يفرز مثل هذا الملح عندما يتصبب عرقه». يوجد الكثير من الناس ممن لا يتحملون الجلوس قرب الزنوج في القطارات والباصات ويؤكدون، على أنهم يفضلون عدم تناول الطعام نهائياً إذا صادف أن جلسوا قرب زنجي. ولكن ليس لديهم أي مانع من تناول الطعام في عربات القطار التي يخدم فيها الزنوج ويطبخون الطعام أيضاً.

قام البروفسور «لي»، من قسم الاجتماع في جامعة وين بدراسة التظاهرات العنصرية في ديترويت في حزيران 1943. وقد حدثه أحد الشهود أنه كاد يتقيأ، عندما أضيئت أنوار السينما فجأة في احدس دور السينما، ووجد نفسه يجلس جنب زنجي. وقد فسر اشمئزازه بأن كانت «تنبعث من الزنجي رائحة كريهة» ولكن يبدو أن حاسة شمه تتوقف عن العمل في الظلام. (م 101ص110).

يبدو أن لكل فرد رائحة خاصة. إذ تستطيع الكلاب البوليسية والكلاب الأخرى أن تتعقب أي إنسان بعد أن تشم أن تشم قطعة من ملابسه. ويشير كولد وبايل إلى «سيدة شابة تعبق منها رائحة الفانيلا القوية» ويقول بلوتارك إن ملابس الإسكندر الكبير الداخلية فاحت منها رائحة عطرية. أمّا هنري مور الأفلاطوني فقد ادعى بأن رائحة البنفسج

العطريـة انبعثـت منه وكانت هذه هبة سـماوية خاصة به (م 73، م 144، م 131).

ورغم هـذه الادعاءات تتميز بعض فصائل الحيوانات -دون شـك- بروائح خاصة. روائح تستطيع أن تميزها حتى أنوفنا الضعيفة.

ولا يحتـاج الانسـان إلى كلـب بوليـسي ذكي لكـي يفسر لـه معطيات الادعـاء باختلاف رائحة الزنوج فالأمر واضح. إذا كانت للزنوج رائحة تختلف عن البشر فهم ينتمون إلى فصيلة تختلف عن البشر!

ولكـن ليـس هناك أي شـخص اسـتطاع أن يثبت بأن الزنجـي يتمتع برائحـة خاصة. ولقد تمت تجربة وضع فيها تعرق رياضيين زنوج وبيض في أنابيب اختبار. ولكن الذين شـموا هذه القناني لم يسـتطيعوا تميز تعرق الزنـوج بالرغم من ادعـاءات بعضهم بقدراتهم هذه. لقد اسـتطاعوا تميز درجات متفاوتة من عفونة الرائحة؛ ولكن لم يستطع أحداً أن يميز بشكل صحيح تعرق الزنوج عن تعرق البيض (م 99).

ولكـن كتعويـض لهـذه النواقـص المختلفة لـدى الزنـوج، فقد جرى الاعتقاد على أنهم يمتلكون قدرات غيبية بسـيطة. فهم يسـتطيعون إدراك بعـض «العلامات» في سـلوك الطيـور والحيوانات الأخـرى. ويمتلكون الحدس وقوة الفراسة. وهكذا تقول ماركريت متشل في كتابها «ذهب مع الريح» يستطيع «الأطفال والزنوج والكلاب» إدراك رقـة جيرالد أوهارا التي تختبئ وراء سـلوكها الخشـن من «النظرة الأولى». سـطحياً يبدو هذا القـول مديحاً، ولكن للتعبـير معطيات تدل على العكس. فالزنوج ليسـوا بشراً كما أنهم ليسوا ببالغين (م 125).

هناك ادعاء آخر شائع؛ ألا وهو أن الزنوج سعداء «طبيعياً». وإذا كانوا سعداء، فهم بذلك يكذبون كل التجارب الإنسانية، إذ إنهم سعداء رغم افتقارهم للصحة والثروة والأمل.

قد يتظاهرون بالسعادة؛ وإذا كان هذا التظاهر تنكراً مفتعلاً يمكننا أن نقول إنهم تعساء. وتعاستهم تفتقر إلى الوقار. ويشهد على حالتهم الحقيقية هذه أبداؤهم، والملاحظون الأجانب الذين لا يتصفون بالتحيز، فيتحدث الكاتب الزنجي ريتشارد رأيت عن «انعدام الرقة الحقيقية بين الزنوج» فيقول: «هناك سخرية لا شعورية تفسر تفسيراً خاطئاً بالسلبية وانعدام المشاعر وفقدان الأمل وهروبهم وخوفهم وهيجانهم تحت الضغط ـ تفسر كل هذه الأمور، خطأ، بشعور عميق بالوجود» (م 200 ص 33).

وقد لاحظت هاربيت ماتينو هذه الأشياء وعلقت عليها قبل مئة عام. فقد أكدت في وصفها لأمريكا بأن «العلاقة الودية» التي تربط الأسياد والعبيد لا تتعدى التظاهر المتبادل المبني على الخوف. (م 113 ص 152).

ولقد استدعت مؤسسة كارنيجي الاقتصادي السويدي جو نار ميردال في جيلنا هذا لكي يدرس مشكلة الزنوج بشكل خاص. ومما جلب انتباهه فرضية سعادة الزنوج، فقد اعتبرها سمة من سمات «محاولة البقاء» وقال شارحاً: «إن الكثير مما يعتبر مرحاً لدى الزنوج هو في الواقع دفاع أو ضرب من ضروب الحماية.

فلا يخلو دور المهرج الهزلي من بعض الامتيازات والحصانات، فالزنجي المتجهم أخطر من أن يترك دون هجوم. فالضحكة العالية والنكتة والنشاز

(التي توجه إلى الذات دائماً عندما يكون البيض على مرمى السمع) مثل التهريج الهزلي، كل هذه وسائل دفاع عن الذات ليس إلا».

ثم لاحظ بأن مزاحهم الصاخب ذا النية الحسنة غالباً ما يقترب من العدائية وينحط إلى مستويات البذاءة. ولقد استنتج أن طباعهم ليست «مشرقة» بالشكل الذي يحاول البيض أن يقنعوا أنفسهم به. (م، 143).

وتؤكد تأملات ميردل احصائيات مستشفى نيويورك الحكومي للأمراض العقلية. فبين عام 1929 - 1931 مثلاً، كانت نسبة الزنوج أضعاف نسبة البيض الذين دخلوا هذه المؤسسات، بالرغم من أن الزنوج كان معظمهم شباباً ولذلك كان يجب أن تكون نسبة الأمراض العقلية بينهم أقل. كما يجب ألا يغرب عن البال أن الكثير من هؤلاء قد دخل هذه المؤسسات بسبب الشلل الزهري والإدمان على الكحول. ولكن التلامذة الأغبياء فقط هم الذين يعتقدون أن الإدمان على الخمور والأمراض الزهرية من دلائل السعادة. أمّا الأمراض التي يربطها الناس باليأس والتعاسة، فهي الشيزوفيرينا (الفصام) والجنون الهذياني الانقباضي. ونسبة إصابات الزنوج بهذه الأمراض تتراوح بين50 إلى 100 % من البيض. وقد لخص أحد الزنوج المسنين سعادته الشهيرة عندما سأله صاحب عمله لماذا تبدو عليه السعادة دائماً. فأجاب «إن لم أكن سعيداً فسأكون أكثر شقاء مما أنا عليه الآن» (م، 134).

ويخاف الأميركيون من سرعة تكاثر الزنوج، إنهم يتكاثرون بسرعة فائقة وهم لذلك سيقبضون على زمام الحكم في يوم قريب. ولقد هدد الراجمون بالغيب كل جيل أمريكي بهذه «اللعنة». ولقد صدق كل

جيل «نبيه» الخاص دون أن يحملوا أنفسهم عناء فحص سجلات «الأنبياء» السابقين. وتكفي ثوان معدودات لتبديد هذا الذعر بعد قراءة الإحصائيات الحياتية في الولايات المتحدة. نعم لقد ازداد عدد الزنوج منذ تكوين الجمهورية وحتى الآن؛ ولكن نسبتهم بالنسبة لمجمل السكان كانت في تناقص مستمر، فقد تضاعف عددهم 17 مرة ما بين 1790 - 1940 بينما تضاعف عدد البيض 37 مرة. وهكذا قلت نسبة الزنوج إلى مجمل السكان من 19 % إلى 9 %.

ومما لا شك فيه فقد ازدادت نسبة المواليد لديهم منها لدى البيض زيادة ضئيلة. فبين 1930 – 1940 ازدادت نسبتهم 1 % فقط. وهؤلاء الذين يخافون من تكاثر الزنوج، ربما يشرح صدورهم ازدياد نسبة الوفيات بين الزنوج، ففي عام 1930 كان معدل متوقع حياة الزنجي 48 سنة مقابل 61 سنة للأبيض. أما الأطفال الزنوج الذين يولدون ميتين فقد كانت نسبتهم عام 1940 أعلى من نسبة البيض 5 %. كما أن نسبة الوفيات بين أطفال الزنوج في السنة الأولى من حياتهم هي ضعفَ نسبة وفيات البيض.

إن الشوفيني الأبيض الذي يهلع لفكرة تحسن وارتفاع مستوى الحياة لدى الزنوج، تواسيه فكرة أخرى تتلخص بأن الارتفاع في مستوى الحياة يعني قلة نسبة المواليد. فقد حدث ذلك لدى جميع الشعوب. ولكن الغبطة الناجمة عن هذه المؤاساة لا تستمر طويلاً؛ إذ إن نسبة الموت ستنخفض أيضاً، سيقل عدد المواليد وسيقل عدد الموتى أيضاً، ولكن ما العمل؟ البركات على هذه الأرض يعوزها الكمال دائماً.

الفصل الثالث عشر:

المتدلهون والشمس

يبدو غموض المفهوم الشائع للعرق واضحاً لدى ملاحظة استعمال الناس «للصفات العنصرية» و «الخصائص القومية» كمترادفات، وكان المؤثرات البيولوجية والمؤثرات الجغرافية هي الشيء نفسه. وهكذا نسمع أن الألمان يمتلكون عقولاً «منظمة»؛ (بالرغم من أنهم كانوا آخر شعب في أوروبا وحد نفسه). ونسمع أيضاً بأن الايطاليين يتصفون بحدة المزاج، (بالرغم من أنهم تحملوا حكم موسوليني دون مبالاة لعشرين عاماً). وإن السويديين يتصفون بالبرود؛ (بالرغم من أن العالم يعتبر جريتا حاربوا وإنجريد برجمان من أعظم ممثلات المأساة وكلتاهما من السويد).

تتضح حماقة هذه التعميمات لدى الرجوع إلى الفكرة التي كونها الغربيون من الروس. فقد ورد في مجلة التايم فرضية عن «العقل الروسي، مفادها افتقاره إلى القدرة على استعمال ما توصلت إليه الحضارة من الاختراعات الآلية، (وكان ديسفورسكي عاجز عن قيادة الطائرات). كما يحدثنا البروفسور هوتن عن «القلق الانفعالي» الذي اتصف به المدافعون عن ستالين غراد. (م 119).

ومن الصور النمطية الشائعة مرح الإيرلنديين، والتزام اليابانيين بالتقليد دون فهم واستقامة الصينيين، وميل «اللاتينيين» للغرام. إننا «نعلم» بأن الألمان يشربون كميات هائلة من البيرة، وأن الصينيين يقتاتون على الرز وأن الفتيات في الهند يتزوجن، قبل أن يبلغن الثانية عشرة من العمر.

يتصف بعض الإيرلنديين بالمرح ولكن جورج برنارد شو (من أكثر الشخصيات مرحاً) يؤكد بأن الروح المرحة وسرعة البديهة والخيال هي من الصفات النادرة لدى الإيرلنديين، ولكنها أكثر ندرة عند الانكليز. إن المفهوم الشائع عن الرجل الإيرلندي كما يقول شو ما هو ألا وهم ابتدعه الإنكليز لتجسم فيه صفات الإنجليز الضعيفة أنفسهم (م 26).

أما تقليد اليابانيين فيثبت لنا بقصة الجاسوس الياباني الذي سمحَ له بسرقة تصاميم السفن الحربية الأمريكية. وقد اعتقد الجاسوس أنه سرق التصاميم الأصلية، ولكنه في الواقع حصل على تصاميم مزيفة تحتوي على تبديل بسيط وحيوي للغاية. وقد نقل اليابانيون التصاميم المزيفة بحذافيرها ولكنهم فوجئوا بأن السفينة الحربية التي بنوها انقلبت رأساً على عقب حالما نزلت إلى الماء. ولم يتهم أحد الامريكيين بسرقة تصاميم مزيفة من اليابانيين المخادعين عندما وجدوا أن بعض السفن الحربية التي بنوها ناقصة أو عندما انشقت السفن التي انشئت في أثناء الحرب لتعبر الأطلسي مرة واحدة حالما لمست الماء.

كما لم يفترض أحد أن أمراء الاساطيل الأمريكان يفتقرون إلى القدرة على اتخاذ القرارات المستقلة عندما تحطمت سبع مدمرات على شواطئ كاليفورنيا نتيجة لاقتباس ربابنة المدمرات الست الخلفية، قرارات ربان المدمرة الأولى.

وإذا قارنا اليابانيين بالصينيين لوجدنا الاعتقاد الشائع بأن الصينيين يتصفون بالاستقامة حتى أن اليابانيين المشهورين بخداعهم وعدم ثقتهم

بكل منهم الآخر، استخدموا الصينيين في بنوكهم ومصارفهم. ولعل استخدام الصينيين بالبنوك اليابانية يفسر لنا ندرة النزيهين في الصين، إذ أن الفساد والابتزاز منتشران بصورة لا تصدق بحيث تكاد تخنق الحياة العامة. بل ويعتبر نظام العصابات أمراً شائعاً ومقبولاً في تسيير الأعمال التجارية.[1]

وإذا كانت هناك فروق بين الصينيين واليابانيين فهي فروق غير مفروغ منها ولا تزال موضع الجدل. ولكن قبل أن تنطفئ نيران بيرل هاربور قدمت مجلة لايف لقرائها صفحتين تبين فيهما كيفية التميز بين «الصينيين المخلصين واليابانيين المعادين». وقد علقت النيويوركر على مجلة لايف بتصوير جنديين يابانيين أخذهما العجب حول نشرة يستطاع عن طريقها التمييز بين الألمان المخلصين والأمريكان والانكليز المعادين (م 243، ص 81).

هنالك وهم شائع، يبين أن للشرقيين صفاتٍ أخرى علاوة على بشرتهم الصفراء وعيونهم «المنحرفة». فهم يتصفون بالحكمة والغموض وبالخداع الشيطاني. كما تتصف نساؤهم بصدور مسطحة (م 188، ص 136). ويبدو أن هذا الوهم محاولة للتعويض عن الأساطير الشائعة عن نساء بولونيزيا.

تكفي الملاحظة السطحية لتثبت أن عيون العرق الأصفر ليست منحرفة فعلاً، إن موضع عيونهم في رؤوسهم كموضع عيون أي عرق

(1) هذا الحديث مستمد من مقالات لرئيس تحرير جريدة مستقلة في الصين هو تاكونك باو نشرها عام 1944 واختصرت بالإنكليزية في مجلة التايم الأميركية في عددها الصادر في تشرين الأول 1944..

آخـر. إن مظهر عيونهم الغريب (غريب طبعًا بالنسـبة لنا بالرغم من أنهم يفوقوننـا عددًا، فنحن إذن غير الطبيعيين) يعـود إلى وجود طية جلدية في الطرف الداخلي من كل جفن.

وبـما أن العيون «المنحرفة» تنذر بالشـؤم والغموض - كما ظهر حديثًا في آخـر الأزياء في الولايات المتحدة بارتداء نظارات «منحرفة إلى الأعلى» وقـد اقتبـس هذا الزي طالبـات الجامعات لتضفي على وجوههن الشـابة الغضة البسـيطة لمسـة سـحرية - والاعتقاد بأن الشرقيين يتصفون بهاتين الصفتين شـائع ولا تكفي الملاحظة الموضوعيـة لتبديد هذا الاعتقاد. وبما أن عيـون الشرقيين تعبر عـن الغموض فمن «المعروف» إذن أن الشرقيين مخادعـون. وقـد كتـب ادموند شافتسـبري عـام 1897 فقال إن دراسـته الدقيقـة للصينيـين تمخضـت عن إثبات حقيقـة كونهم عِرق مخـادع قاسٍ ومجـرم غريزيًـا بالغريـزة، ولكن الخوف يردعهم لحسـن الحـظ. ولم تنس ذاكرتهـم الموروثة التعذيـب الذي ابتكره حكامهم لمعاقبـة المجرمين. هذا الرعب من وسائل التعذيب الوحشية هو الذي يلوي عنان هـذه الصفات الشريرة. (م، 161، ص 41).

وعند كتابة هذا التحليل كان الأمير كان قد استوردوا ألوف الصينيين للعمـل في شـق الطـرق وإنشـاء السـكك الحديديـة في غـرب الولايـات المتحـدة. وبالرغـم مـن موت عـدد هائل منهم نتيجـة للمعاملـة البربرية التي عوملوا بها فقد سـن قانون عزل الصينيين، وتوقفت هجرة الصينيين إلى الولايـات المتحـدة. لأن الأقليـة الباقية كانت تهديدًا لتـوازن العرض

والطلب في العمل. ولقد كان رفع أجورهم أحد الحلول المعقولة؛ ولكن استثارة العداء العنصري، للتغطية على المشكلة الحقيقية، كان أرخص بكثير. وبما أن هؤلاء العمال غير الماهرين من المخلوقات المسالمة التي لا ينجم عنها أي ضرر فقد كان من الضروري خلق صورة جديدة عنهم تناقض ما هم عليه في الواقع. هكذا أصبحت وجوههم المسالمة «أقنعة غامضة». أما مرحهم فوراءه «خداع شيطاني» كما يدعو سلوكهم الرقيق «المريبة» فأيديهم المكتفة على صدورهم بأدب تخفي الخناجر المسمومة. وما صبرهم الهائل إلا نتيجة «لفقدان الوعي الناشئ عن تناول المخدرات». إنهم يقضون وقتهم بأحلام اليقظة التي تتألف من اجترار التعذيب الذي قاسوه على أيدي أباطرتهم، بالرغم من أن بعض الأحداث التي كانت تجري في كاليفورنيا حينذاك تجعل من تعذيب أباطرة الصين أمرًا هينًا بالمقارنة.

أما بالنسبة للصدور المسطحة فإن النساء الصفر أو السمر لا يختلفن عن اخواتهن البيض لا وظيفيًا ولا جسميًا. كل ما يعوزهن -طبعًا- حمالات الصدور والبلوزات الضيقة. ولسوف يجد محبي الاستطلاع قناعة حول هذه النقطة الحساسة، في الصور الفوتوغرافية العديدة التي نشرت في كتاب «المرأة» تأليف بلوس وبارتلز. (م، 143).

ولقد أكدت كاترين مايو في كتابها «الهند الأم» الاعتقاد القائل بأن الفتيات في الهند يتزوجن ويلدن وهن ما زلن في سن الطفولة. (م، 115) حيث ادعت أنه من المألوف والشائع أن تصبح الهنديات أمهات «بعد

تسعة أشهر من سن البلوغ» وهو حدث، كما أشارت السيدة مايو، يحصل في الهند بين السن السابعة والثالثة عشرة. وقد اعترفت أن سن السابعة هو حالة شاذة، ولكنها عادت فأنقذت قراءها من خيبة الأمل بلجوئها للتأكيد على أن السن الثانية عشرة «فوق المعدل» (م، 115)

وبالرغم من الاستياء الخلقي المشوب بطابع الاستطلاع الشهواني الذي كتابها، فإن نصيب «حقائقها» من الصحة كان ضئيلاً. فقد قام الدكتور بالفور بدراسة في بومبي شملت 6580 حالة. ووجد أن معدل أعمار الأمهات عندما يلدن أطفالهن البكر ثمانية عشر عامًا وسبعة أشهر. أمَّا في مدراس فقد كان المعدل 19 سنة وأربعة أشهر. ولم تكن بين الحالات هذه أم واحدة يقل عمرها عن 13 سنة بل كان هنالك 42 فقط تقل أعمارهن عن 15 سنة. (م، 325 ص 8).

وقد بين التقرير الإحصائي الهندي لعام 1931 أن معدل سن الفتيات عند الزواج كان 33 و13. يبدو هذا السن صغيرًا بالنسبة لنا وبالنسبة لمقاييسنا ولكن الملحوظ أن الطفل البكر لا يولد إلا بعد مرور ثلاث سنوات على الأقل. ويشير نور من دوجلاس إلى أن الزيجات في سن الطفولة هي شكل من أشكال الخطوبة (حسب التقاليد الهندية) التي يرمي إلى حفظ البراءة لا إلى تحطيمها (م، 51 ص 51).

ومهما كانت غرابة العادات والتقاليد في الهند فإن الولايات المتحدة ليست بموضع يسمح لها بأطلاق الأحكام الخلقية في هذا الموضوع. إذ توجد ست ولايات تسمح للفتيات بالزواج قانونيًا في سن 12، وولاية

واحدة تحدد العمر القانوني بثلاثة عشر عامًا، وعشر ولايات تحدده بسن الرابعة عشر. وهذا أمر استغله 125,000 عروس كما ظهر في الإحصاء الذي جرى عام 1930. هذا في الوقت الذي يحدد الأتراك العمر الأدنى للزواج بالخامسة عشرة.

أما أن سجلات الولايات المتحدة، في هذا الصدد، أسوأ (أو أفضل) حتى من سجلات إيطاليا فهو أمر يستحق التأمل، إذ يعرف كل من يذهب للسينما أو يصغي للمذياع بأن اللاتينيين محبون مدلهون ويميلون بشكل خاص للفتيات الصغيرات السن.

وهذا جزء صميم من المعتقدات القومية الأميركية، بل إن تعبير «رومانس» نفسه ليس إلا تعبيرًا سوقيًا للمقدمات الجنسية بمعنى على «الطراز الروماني».

ولقد اكتسب هذا التعبير معطياته الحديثة بطرق ملتوية ولكن القوى التي توجهه ما زال مفعولها ساريًا.

إذا التزمنا الدقة في التعبير فإن اللاتينيين هم الشعوب التي تتحدث بلغات مستمدة من اللغة اللاتينية، ومن بين هذه الشعوب شعب رومانيا مثلاً. ولكن بما أن الرأي العام يجهل هذه الحقيقة اللغوية فإن رعايا الملك كارل السابق (ولقد اشتهر جلالته بسوء السيرة) لا يعتقد أنهم «مغرمون متدلهون». إن هذه الصفة مقصورة على الطليان والفرنسيين والإسبان (منذ أن مثل رودولف فالنتينو قصة فرسان الدمار الأربعة في السينما) ثم ضمَّ أبناء أمريكا الجنوبية إليهم بصورة خاصة.

إن الهنود الذين يشكلون أغلبية السكان في أمريكا الجنوبية لا تنطبق عليهم هذه الصفة. ففي عالم «الرومانس» يشير تعبير «الامريكي اللاتيني» إلى الشباب ذوي المظهر الصقيل الذين يرتدون الكمربند ويرقصون السامبا والرومبا في هافانا وريو وبوينس إيرس، كما يضيف ذوو المعرفة أهالي الفلبين إلى هذه القائمة لأنهم يتكلمون الإسبانية أيضًا.

ولقد لاحظ الذين زاروا البلدان اللاتينية إن الحياة العائلية اللاتينية تتمسك بالخلق تمسكًا شديدًا، وتبدو حياتهم للباحث عن المغامرات الغرامية مملة حقًا إذا قورنت بالحياة المتحررة في الولايات المتحدة. إن الفتاة الاسبانية، أو الايطالية، أو الفرنسية ذات خلق عالٍ فهي لا تحلم أو لا تفكر مطلقًا في الذهاب إلى السينما مثلاً بصحبة الشبان. هذا مع العلم إن الإسباني أو الإيطالي أو الفرنسي، الذي يتمسك بنفس هذه القيم الخلقية، لا يقبل مطلقًا بالزواج من فتاة تبدي رغبة في أن يصطحبها شاب إلى السينما مثلاً. إن النفاق هذه الشعب أقل منه لدى مجتمع الولايات المتحدة، فالمقاييس المزدوجة شيء بديهي لديهم وهم لا ينكرون وجود البغاء. ففي ايطاليا مثلاً كانت دور البغاء - تحت حكم موسليني - تخضع لمراقبة الدولة، وتتميز بلوحات الإعلان المضاءة واستعراض الموديلات مع البطاقات الموسمية والتنزيلات لمن يتعامل بالجملة وما إلى ذلك من صيغ وصفات المعاملات التجارية الصرفة. يتصف الطليان بالواقعية والصراحة، ولعل ذلك أكثر براءة من النفاق واللف والدوران.

إنَّ أفكار الأمريكيين عن تدله اللاتينيين أصيل في القدم، ويرتكز على عوامل عديدة. ومن هذه العوامل الاعتقاد القديم بأن الشمس مثيرة

جنسيًا، مما يسوق إلى الاعتقاد بأن الشهوانية الجنسية تزداد كلما اقترب الإنسان من خط الاستواء. فالزنوج بالنسبة لهذه الفلسفة «مغرمون متدلهون» - وهكذا فإن التوندليو يعتبر جزء من التراث العظيم هذا - ويلي الزنوج، الطليان والاسبان لأن أوطانهم في الجنوب ومعرضة للشمس المثيرة وهي جزء من خطوط العرض المثيرة.

ولقد حور سلوك الشعوب ليتناسب مع هذه النظرية. فطلاقة الطليان المرحة والسهولة التي يعبرون بها عن عواطفهم، أثبتت للجميع دون لبس وإبهام النوع الذي ينتمون إليه. بينما ينم تعالي الإسبان وتحفظهم وبرودهم عن الطاقة الهائلة التي يبذلونها لكي يكبحوا جماح عواطفهم ونزواتهم.

وإذا ربطنا هذه النظرية بنتائجها المنطقية فلا بد أن التلقيح الذاتي هو السبب لعدم انقراض الأسكيمو. ولكن زار عدد من الباحثين الأسكيمو في أكواخهم الثلجية، وقدموا أبحاثًا مستفيضة منهم منهم روكويل كنت، وتبير فرويخن، وجونتران دي بونسنس وغيرهم آخرون وكانت تقاريرهم تجمع على نفي هذا المضمون.

ولا تسمح المجال كما تسمح اللياقة بإعطاء حتى ملخص لهذه البحوث ولكنها جميعًا تبين بوضوح أن الليالي في المنطقة القطبية الشمالية ليست بطويلة بالنسبة للأسكيمو. فاعتبر كنت (وهو أمريكي وبالنسبة لهذه النظرية بارد نسبيًا) عاداتهم وتقاليدهم مسلية، واعترف أنه شاركهم في بعض فعالياتهم. بينما خجل بونسنس الفرنسي منها فأكد لقرائه إنه كان متفرجًا فحسب.

إن ما ينسب من الطاقات الجنسية الخارقة «للعرق» اللاتيني هو في الواقع أمنية تعكس انطوائية السكسون على أنفسهم جنسيًا. وموقفهم نحو هذا أدى بالإنجليز لقرون عدة أن يطلقوا على السفلس «المرض الفرنسي». ويشيرون إلى طرق منع الحمل وكأنها تصنع في فرنسا فقط. ولكن كازانوفا يؤكد بأن الانحلال الخلقي في انكلترا يفوق أي بلد آخر زاره وافتخر دائمًا، بأنه استعمل وسائل منع الحمل الانكليزية لأنها أفضل ما يوجد في العالم. وحتى في الوقت الحاضر تأخذ الزوار الفرنسيين الدهشة عندما يشاهدون البضائع المعروضة في واجهات المخازن في ساحة ليستر والفتيات المنتشرات بين هذه الساحة وبيكادلي اللواتي يجعلن مثل هذا العرض مربحًا ومفيدًا.

ولربما حمل الأمير كان معهم هذا التحيز كمستوطنين عندما هاجروا من انكلترة. أما في عصر مارك توين فقد كانت جذور هذا التحيز قد رسخت. وازدادت رسوخًا خلال الحرب العالمية الأولى؛ وفي العشرينات في أوج موجة السياحة عندما زار الأمير كان باريس فشاهدوا فيها أمورًا جهلوا مخلصين وجودها في بيوريا وبادوكا في أمريكا. أما النساء فقد اندهشن حقًا عندما تسكعن وحدهن بوجوه مطلية بالمساحيق وقد علتها ابتسامات سخية ووجدن الأوروبيين يتقدمون إليهن بشوق.

ويعتبر العقل السوقي الخلاسين «عرقًا» منفصلاً تقريبًا وهم بالنسبة لهذا العقل عرق أدنى من كلا العرقين الذين انحدر منهما. أمَّا بالنسبة لبقية المخلوقات فقد استعمل التهجين كوسيلة فعالة لتقوية وتعزيز

السلالة لا اضعافها. وليس هنالك سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن الانسان يختلف عن المخلوقات الأخرى في هذا السبيل.

بل على العكس فهنالك أدلة تشير إلى أن السلالات المنحدرة عن اختلاط القوميات المختلفة تمتلك صفات تتفوق عن عناصرها النقية الأصلية.

فقد تميز مواليد اختلاط العرقين الأبيض والماوري في زيلندة الجديدة بأحسن صفات العرقين. كما تشير الدراسات إلى أن السلالات الناتجة عن الزواج المختلط بين البولونيزيين واليابيـــانيين والفلبينيين والكوريين والبورتوريكيين والأوروبيين في جزائر هاواي تمتاز بنسبة خصوبة مرتفعة وصحة أمنع من القوميات الأخرى الموجودة هناك (م 4).

والولايات المتحدة نفسها مسرح لاختلاط الاجناس والعروق في الوقت الحاضر. ولقد أخفيت هذه الحقيقة، التي حاول البعض إبرازها، عن الرأي العام بخدعة تعتبر جميع البشر زنوجًا إذا وجد دم زنجي فيهم. بينما يمتلك ما يزيد عن 80 % من الزنوج الأمريكان دمًا من العرق الأبيض أو الهندي الأحمر أو كليهما (80).

أما جمال وجاذبية الخلاسين فنتركه للملايين من البشر ليقرروا ذلك وهم الذين أنفقوا أموالاً طائلة ليشاهدوا «لياهو» الممثلة الشهيرة وكاترين دنيم. أو نتركه للملايين الذين ينفقون الأموال الطائلة على شراء المساحيق والمركبات التي تضفي سمرة على بشرتهن أو بشرتهم؛ أو يعرضون أجسامهم للشمس أو يغمى عليهم فرحًا إذا شاهدوا ممثلي السينما الذين لا يعتبرهم أجداد الأمريكيين منتمين إلى العرق الأبيض.

ربما كان الكثير من الخلاسيين دون آبائهم فعلاً، ففي المجتمعات التي تحرم اختلاط العروق لا يخرق التحريم إلا من كان مصابًا بالقلق أو كان مصابًا بالقلق أو عدم الاستقرار أو اليأس أو الشهوانية المفرطة.

هناك مئات الأسباب التي تعتبرها الجماعات المختلفة أسبابًا مستهجنة للتزاوج بين العروق المختلفة، وهكذا فإن احتمال ظهور «سلالة» دونية تتناسب مع عدد هذه الأسباب. ولكن دونية السلالة لا تعود للأسس البيولوجية للاختلاط العنصري. فلو تزوج مثل هذا الفرد من امرأة من عرقه لما اختلفت الحال.

وعلاوة على ذلك فإن الخلاسيين في معظم أنحاء العالم منبوذون وموضع احتقار. وهذا بدوره يجعلهم عدائيين مخادعين ثائرين ضد المجتمع مهما كانت الظروف. فالخلاسي يجابه وراثة سيئة وبيئة غير مناسبة ولكن الاختلاط العنصري لم يثبت ضرره بعد.

الفصل الرابع عشر:

إليك الهندي المسكين

لقد اكتشف هؤلاء الذين قبضوا على فتاة سونجي المتوحشة أنها بيضاء بعد أن غسلوها ثلاث مرات. ولقد دخلت المخلوقة الغريبة قرية سونجي التي تبعد اربعة أو خمسة فراسخ من مدينة شالون في مساء يوم من أيام تشرين عام 1831، فقضت على كلب يتبعها بنباحه بحركة صغيرة من خنصرها ثم التهمت أرنبًا نيئًا، ثم تملكها السبات في أعلى شجرة في القرية. (م 147)

ويعود حبور مكتشفيها لدى اكتشافهم لونها إلى عثورهم على مبتغاهم. إنهم أرادوها أن تكون فتاة بيضاء توحشت. ولقد أشارت إلى ذلك قذارتها المفرطة وتذبذبها بين القسوة والرقة، كما أشارت إلى ذلك بساطة غذائها ولباسها وقدراتها البدائية على الحديث. ولو لم يتلاش لونها الأسود لكي يظهر لونها الحقيقي لاعتبرت زنجية ضلّت طريقها، او فتاة من الأسكيمو تاهت عن موطنها أو حتى عفريتًا صغيرًا. وإذا كان القبض على أي شيء من هذه الأشياء يضفي على القرية قدرًا، فان الإمساك بمتوحش حقيقي في بدايةِ القرن الثامن عشر كان مدعاة للفخر حقًا.

كانت الحاجة ماسة لأطفال الطبيعة حينذاك. فكان الفلاسفة يدفعون أثمانًا باهظة لهم بالأمس كما هو الأمر اليوم، ولذلك فقد فتحت معظم القرى أعينها بحثًا عنهم. وقبل هذه الحادثة بجيل اكتشف طفل ربته الدببة في لتوانيا، كما اكتشف اثنان آخران في بولندا، ولمح أطفال عنز «بشر» في البرنيز وهي تقفز من صخرة إلى أخرى. وفي كانبرج في كانون 1715 أمسكت فتاة متوحشة «بشعة للغاية» وعارية تمامًا إلا «من فوطة صغيرة

صنعتهـا من القش». وكان جلدها قويًا خشـنًا أسـمر لا يتأثـر بالماء، ولكن سقط جلدها تمامًا بعد القبض عليها «ونما لها جلدًا جديدًا». (م 208).

كانت هذه الكائنات، وعشرات غيرها ممـا ألقي القبض عليه في العقود التالية من السنين، تتمتع بعدد من الخواص المشتركة: كانت قويـة، قذرة، قاسـية انفعالية، لا تلتـزم بالقواعد الخلقية، تأكل طعامهـا نيئًـا، احتقرت كماليـات الحضارة، وتتكلم بجمـل قصيرة لاهثة تتألف كلمات ذات مقطع واحـد (هـذا إلى أن قـام مديـر وإعلاناتهـم بتعليمهـم إعطـاء تصريحات للصحـف). كانـت تميـل إلى المـرح بطريقة طفوليـة، وإذا منعـت عن أي شيء تملكها الغضب والعبوس. كانت تعشق الحرية وتخلص لهـا. وكانت تناضـل ضد أي عـائق يعوق مـن حريتها الفردية كالثياب والجدران. وما إن تذكـر المسـيحية أمامها حتى تبدو لها صحتها بوضوح فتعتنقها بشـوق وإيمان. فما إن ذكر اسـم الله أمام طفل لتوانيا الدب حتى رفع يديه وعينيه إلى السـماء في عبـادة خرسـاء بينما خلعت فتاة سـونجي فوطتهـا وارتدت مسوح الراهبات.

هكـذا كان المتوحـش قبـل قرنين مضيـا. إن حيـاة الانسـان في حالته الطبيعيـة حيـاة وحدة وقسـوة وشراسـة، وهي لذلك كلـه قصيرة الأمد، هكذا الفيلسـوف هوبز الذي سـادت آراؤه في القـرن الثامن عشر. ولكن هذا الرأي لم يسـد تمامًا عـلى الرأي المنافس له، والذي يسـاويه في صعوبة الإثبـات؛ وذلك هـو الـرأي القائل بأن حيـاة الإنسـان في الطبيعة الأولى بقـايا من عصر ذهبي تسوده البراءة والسحر واليسر.

وعندما تقدم العصر أخذ مد النظرة الرومانسية بالارتفاع، وكسف الوحش النبيل توأمه الوحش القذر. والوحش النبيل كان يقتات على فواكه الطبيعة ويشرب من حليب جوز الهند باسترخاء لذيذ، ويجمع قواه لغايتين هما الحب والفكر العميق. ولكن هذه الصورة لم تدم طويلاً بعدما ظهر الفكر الاشتراكي وتهددت الملكية الفردية، وقد أدرك الأثرياء أصحاب المزارع الشاسعة في البلاد المستعمرة، حيث يعمل هؤلاء المتوحشون أو حيث يؤخذ عمال السخرة من قبائلهم، الخطر الجاثم في هذه الاسطورة فقرروا أن المتوحشين أدنى مستوى من البيض، وإن حالة العبودية التي يرسفون بظلها في هذه المزارع هي في الواقع مكسب للمتوحشين.

أمّا مفهوم المتوحش في الفكر المعاصر فيستمد جذوره من هاتين الصورتين معًا (من الجدير بالذكر أن أية مناقشة حول قضايا التميز العنصري تتلون بمفهوم المتوحش). وهكذا فإن صورة المتوحش خليط من الصورتين، بل وتميل إلى الجانب المظلم نوعًا ما. فالمتوحش حسب المعتقد المعاصر قذر بدنيًا وأخلاقيًا يكسوه الشعر، ينقصه التدين، غبي تعوزه القدرة على التفكير، كما يتضمن اسمه المتوحش قاس وكاسر وتتصاعد قسوته ووحشيته حتى تصل مرتبة أكل لحم البشر والتي تتعدى صيغة البشاعة إلى صيغة الفكاهة.

ولكنه يظن بأنه ذو صحة ممتازة وله غرائز لا توجد عند أخيه المتمدن، وإذا كان يقطن (أو تقطن) في جزر المحيط الهادي، فله (أو لها) جمال

جنسي أخاذ. له عضلات كاملة وأسنان بيض بديعة، ويتحمل الألم دون أن يرف له جفن كما تلد زوجاته الأطفال، بالسهولة التي تعصر فيها النواة من زيتونة ناضجة. وهو يعرف الكثير من الأدوية الطبيعية العجيبة التي يجهل كل شيء عنها أخوه المتحضر، وهو يتنبأ بالطقس ويتمتع بمعجزة إيجاد طرقه وسيله.

إذا حققنا في صحة هذه الأوصاف، وجدنا إن العكس هو الأقرب للصحة سواء أكان الوصف مدحًا أو قدحًا في حق هؤلاء المتوحشين. أمَّا من حيث جسمه فهو على العموم أخف وزنًا من الإنسان المتمدن حيث أن علماء الانثروبولوجي يأخذون أي دلائل على وجود عضلات ضخمة في أي هيكل عضمي يعثرون عليه كإثبات بأن الهيكل العظمي لا يعود إلى مجموعة من البشر البدائي، وهذا لا يعني أن الانسان البدائي مترهل البدن؛ بل أن طبيعة حياة البدائي لا تؤدي إلى ظهور العضلات المتضخمة. فالبدائيون لا يقومون بالأعمال اليدوية المتعبة، ولا يأخذون من الرياضة ما يضخم العضلات. وعلاوة على كل ذلك، فإن الانسان البدائي ينوء بأمراض سوء التغذية، كما يصاب بالأمراض التي تضعف طاقاته. (م 92 ص 189).

ولقد ظهر في مجلة التايم هذا المفهوم بشكل واضح عندما ناقشت مشكلة جنود الحلفاء في المحيط الهادي، فأشارت «أن الرجل الأبيض بمعدته المتحضرة وانعدام مقاومته للديدان الحلقية والملاريا ومختلف الأمراض المشابهة، كان في وضع لا يحسد عليه بالمقارنة لأهل البلاد

الأصليين الذين تعلموا عبر القرون أن خير لباس هو العري، وخير حذاء هو الحفاء، وخير الأرزاق ما ينمو في الغابة». ولكن سرعان ما رد عليهم أحد الضباط المحنكين الذين صادفهم سوء الحظ فقضوا سنين في تلك الربوع فقال «بالمقارنة إلى جيوش الحلفاء غير المتأقلمة يصاب السكان الأصليون بالملاريا بنسبة أكبر لعدم اكتسائهم بعد الغروب، ويصابون بالديدان الحلقية بنسبة أكبر لأنهم يسيرون حفاة الأقدام وتنقصهم المناعة ضد السل وذات الرئة والأمراض الأخرى لسوء تغذيتهم» (م 319 ص 9).

إن تحمل المتوحش سوء حظه بصبر، قد يكون حقيقة، إذ يفعل ذلك معظم البشر. ولقد أشار ثورو إلى أن حياة الانسان العادي في كل مكان تتميز «باستكانة اليأس». فإذا كان للمتوحش قدرات تفوق تلك التي يمتلكها بقية البشر، فإنه أمر يدعو إلى الشك حقًا. إن البشر أصلب مما كان يظن في الماضي. فما كان يعتقد من الأعجاز في الصلابة في الماضي، يبدو اليوم بالنسبة للفكر المعاصر شيئًا اعتياديًا. يقول لنا الدكتور دفيز في عام 1938 أنه لا يتوقع أن يصدقه أحد عندما يروي ما حدث: أجرى عملية على مريض في الكونغو وإذا به ينهض ويترك المستشفى ليسير بضعة أميال إلى قريته دون أن يصاحب ذلك أي آثار سيئة (م 44، ص 15). ولكن ذلك لا يثير الاستغراب اليوم. ففي المستشفيات الحديثة، يطلب من المرضى القيام والسير قليلاً؛ إذ إن الدلائل المجتمعة تشير إلى أن ذلك أفضل من أن يبقى المريض في سريره.

أما أن البدائيين لا يصابون بتسوس الأسنان فأمر يصر عليه الكثيرون، ويعللون ذلك على أساس انهم ليسوا مدللين بالأطعمة اللينة. وهكذا قيل قبل مائتي عام، حينما لم تكن طبخات اليوم الرخوة شائعة، قيل لنا إن فتاة سونجي الآنفة الذكر فقدت كل أسنانها عندما كفت عن تناول الضفادع النيئة طعامها المعتاد. (م 208 ص 255).

إن هذا الأمر لم يبحث علميًا؛ ولكن هنالك دلائل تشير بأن الاقوام بعيد البدائية المعاصرة تعاني من تسوس الأسنان. يقول لنا الدكتور دفيز إن الأسنان السليمة في الكونغو كانت هي الشذوذ بعينه (م 44 ص 140). أما جمجمة انسان روديسيا الغامض والتي تعود للعصر الحجري القديم فقد تميزت بعشر أسنان متسوسة. هذا وقد وجد من الحيوانات المتوحشة كثير مما عانى من تسوس الأسنان. يقول بولنجر: إن تسوس الأسنان بين الحيوانات الكاسرة من أشيع أسباب الوفاة (م 20 ص 85). كما يشير برادلي إلى هيكل عظمي عثر عليه لأحد الخيول ذوات الثلاثة أظلاف، والتي انقرضت منذ زمن بعيد، فقد وجدت أدلة تشير إلى أنها كانت مصابة بمرض البيوريا (أحد أمراض الأسنان) (م 21)

أما الرأي القائل بأن النساء البدائيات يلدن بأسهل مما تلد المتمدنات فليس أفضل حظًا من المعتقدات الأخرى المارة الذكر. فعندما يقول لنا ريتشارد ليكون في كتابه «تاريخ جزر باربودوس الحقيقي والصحيح» 1657 – لربما كان ذلك كتعنيف لأمهات أوربا الرقيقات – إن عبدته الهندية يريكو عندما جاءها المخاض استأذنت بأدب لبضعة دقائق،

ولـدت طفـلاً صحيح البدن، غسـلته في جـدول قريب ثم اسـتمرت في عملهـا في البيـت كخادمـة كأن شـيئا لم يحـدث. ولكـن نسـاء اليوم لسـن بحاجة للحسرة على عبيـد الأمس إذ قد لا يوجدن إلا في مخيلات مؤرخي «الحقيقة والدقة». أن تجارب اليوم وبحث العلم المعاصر لم يجد مثل هذه الحالات بكثرة وقد سـجل ستفنسـن: إن أهم أسباب الوفـاة بين نسـاء الأسـكيمو هـو الـولادة. ووجـد هركوفتس أن الـولادة من الأمـور التي تثير الرعب بين نسـاء داهومي. كـما صرح ديفز بأنه لم يجد ولادة نساء الكونغو أسهل من مثيلاتهن في العالم المتحضر. وهكذا يتفق معهم شـاينفلد ومردوخ وبلوس وبارتلز وكثيرون غيرهم. (م 173، م 44، م 86، م 154، م 143).

أما حاسـة الاتجاه «السادسـة» التـي يعتقد بأن المتوحشـين يمتلكونهـا فقـد أسـندها الكثير مـن «المتضلعين» فيشـير كاورد في كتابه حول هجرة الطيور إلى أن هذه الحاسـة تبدو بوضوح لدى هـؤلاء الذين نطلق عليهم اسم المتوحشـين. أولاء الذين يعيشون بتماس مع الطبيعة بينما تختفي لدى هؤلاء «المنحطين» الذين يسافرون بالقطار والسيارة. (م 40).

مـن الواضـح أن السـيد كاورد لم يحـاول أن يقود عربتـه في مدن اليوم المكتظة وطرقاتها المعقدة ولكن لا بأس فهو يعبر عن رأي شائع جدًا.

شـائع ولكنه خاطئ، فنحن إذا اعتمدنا على تقارير هؤلاء الذين قضوا زمنًـا طويلاً بين البدائيين في غاباتهم وبراريهم؛ لوجدنا بأن المتوحش كأي شـخص آخر يعتمد على الملاحظة والعلائـم والأدلة. والفرق الوحيد هو

أنـه على معرفة أفضل بالمنطقة التي يقطنهـا إذا قورن بالزائر الغريب. فهو يسـتفيد من إشـارات ومعـالم معينة كالصخور والأشـجار وقمـم التلال والسـواحل بنفـس الطريقة التي يتعـرف فيها زائره عـلى منطقته بالبيوت المختلفـة والدكاكـين والتي قد تبـدو متشـابهة تمامًا للمتوحـش إذا تملكه الجنـون يومًـا ما وجاء ليكتشـف مجاهل المدن. ولكن مـا إن تأخذه بعيدًا عن منطقته التي ألفها، كما يقول ستفنسـن، حتى تجد بأنه ليس أفضل من قرينه الأبيض، بل بالحقيقة أسـوأ بكثير، لأنه لا يمتلك مفاهيم كالمثلثات والأقواس التي تسهل معرفة الأماكن وتقدير المواقف (م 173).

وبنفـس الطريقـة فان قـدرة المتوحش الغامضـة على التنبـؤ بالفصول وتقدير الحصاد عندما تكون أفضل من الحذر فهي تستند على استنتاجات مسـتمدة من ملاحظات معينة، فالفلاح في أي مكان في العالم يسـتطيع أن يتنبـأ بأنه سـيفقد أرضه المرهونة بعد ثلاثة أعـوام من الجفاف. وليس هذا بالتنبؤ السـحري، فعندما كان درايبرك يعيش مـع قبائل الددنكا وتنبأ بأن الحصاد سـيكون وفيرًا بسـبب الأمطار الكثيرة دهش عندما تنبأ القبليون بالعكس. وكان دهشـته أعظم عندما ثبت له إنهم كانوا على حق، ولكنهم طمأنـوه بأنهم يعلمون بأن الأمطار الغزيرة تغـرق النحل الذي يعتمدون عليه لتلقيح انتاجهم (م 52).

إن هـذه القوة الغيبية التي تنسـب للمتوحش – وهـذا من نافلة القول – تنسـب لغرض إثبات دونية المتوحشـين وانحطاطهم بالنسـبة للرجل الأبيـض. فهذه القـوة الغيبية قد تـؤدي إلى امتياز مؤقـت ولكن في المدى

البعيد تكـون الغلبة للمنطق والعقل والتخطيط. وهكذا فإن دونية العقل البدائي نتيجة لا مناص منها.

لقـد تمت محاولات عدة لقياس الذكاء المقارن بين الشـعوب المختلفة، ولكن لم تؤخذ النتائج بنظر الاعتبار لاسـتحالة إنشاء مقياس عقلي يمكن إن يعتـبر أساسًـا عادلاً في المقارنـة. فالذكاء مفهوم حضـاري وهو لذلك يرتبـط بالعوامل الحضارية المعقدة، ولم يتوصل علمـاء النفس إلى ابتكار مقيـاس عقـلي خالٍ مـن العوامل الحضاريـة. ولكن النتائـج العلمية التي يشـير إليها علماء الأنثروبولوجـي تدل على انعدام الفـروق في الذكاء بين الشعوب المختلفة.

وتتعقد المشكلة، أو على الأصح تصبح دون جدوى، عندمـا نعلم بأن تعريف الحضارة والتوحش ليسا إلا مفاهيم مدح وقدح، وليس هنـالك قيـاس موضوعي يحـدد معطياتهما. وهكذا يشـير مينـل «إن كل الأجانب أغبياء» وهذه الملاحظة قد تثير ابتسـامتنا ولكنها تقترب من شـعور شامل يحس بـه الكل إن لم يقولوه.

إنه لما يدعو إلى الأسف حقًا أن نجد عقولاً مدربة يغلفها التحيز. يسرد لنـا المؤرخ برسـكوت في فصله الرابـع عن غزو المكسـيك عن «منجزات الأزتيـك البرابـرة» فقد ابتكروا تقويمًا سـنويًا أفضل مـن التقويم الاوربي وأدق بأحـد عـشر يومًـا. كما يعـترف في الفصل التـالي إن نظـام الأزتيك الغذائي أفضل من غـذاء غزاتهم الإسـبان، كما أن معرفتهم الطبية تفوق تلك التـي توصل إليها الإسـبان. أما مصنوعاتهم الفضيـة والذهبية فهي

تحف فنية رائعة ولكن لا يدور بخلده ولو للحظة واحدة إن الإسبان كانوا هم البرابرة والأزتيك هم المتحضرون، وإن تفوق الإسبان الوحيد كان في شراستهم وبارودهم.

وهؤلاء المحدثون الذين يشاركون برسكوت في وجهة نظره والذين يرون ان المشكلة تحتمل النقاش، يسندون وجهة نظرهم بالقول بأن المتوحشين تعوزهم القدرة على النطق فيتكلمون مقاطع بسيطة خالية من القواعد. إنهم قذرون، كفار، وقساة. وكتتويج لكل هذه الاتهامات... إنهم يأكلون المبشرين.

لقد كان الاعتقاد سائدًا أن المتوحشين لا يملكون أية لغة إطلاقًا. فعندما يتحدث الناس عن الهنود الحمر يشيرون إلى لغتهم بأنها ليست سوى مجموعة أفعال كلها في الحاضر ومجموعة من التنحنحات والسعال المتقطع. ولقد اعتبر الاغريق إن كل من لا يتكلم اليونانية لا يفعل سوى الترديد بشكل غبي أصوات «بار – بار» وهكذا أطلقوا عليهم اسم البرابرة. وكلمة الهوتنتوت تعني في اللغة الهولندية الفأفأة والتأتأة. وهذا يعكس الاعتقاد السائد بين الرحالة الهولنديين الأوائل في جنوب أفريقيا بأن الزنوج في تلك المنطقة (جنوب إفريقيا) لا يتكلمون بل يحاولون الكلام. ولقد غمر المرح مختلف المجتمعات وهي تسرد القصص المضحكة عن المتوحشين الذين يحاولون التفاهم مع المتمدنين. ولكن لم يدر بخلد أي واحد من ساردي هذه القصص ان المتوحش هو اللغوي إذ إنه يحاول، مهما كانت درجة سوء محاولته، أن يتكلم بلغة المتمدن وأنه

- أي المتوحش - هو الذي يمتلك الدافع والذكاء لأن يحاول تعلم لغة أجنبيـة. قد يبدو الأمر لـه مضحكا حقـًا ولكن ماذا يفعل إذا كان المتمدن لا يفهم إلا هـذا الكلام؟

أما بين قومه فيتحدث المتوحش بلغة بالغة التعقيد بأفعال متباينة ذات صبـغ متباينة وتصريفات وقواعد وتأنيثات وتذكيرات. يقول ستفنسـن: إنـه مـن الممكن أن يصرف فعل واحد في لغة الأسـكيمو إلى عشرة آلاف صيغـة (م 172 ص 357).

ويعتقد درايبرج ان لغة الددينكا تحتوي على مفردات تفوق في عددهـا مفـردات اللغـة الانكليزيـة. كـما ينفـي القول الشـائع بأن المتوحشـين لا يسـتطيعون اسـتعمال التجريدات. ففـي كل لغات البانتـو، ويعطي أمثلة موضحـة على ذلك، هناك أصناف متعددة مـن الكلمات تعالج التجريـد. (م 52، ص 66 - 71).

ويميـل البدائيـون إلى الدقـة في التعبير. فـإذا قال الرجـل الأبيض إنه يسـمع كلبًا ينبح، يقول الهندي الأحمر من قبيلة داكوتا انه يسـمع كلبًا بنيًا يبعـد حـوالي المئتي ياردة، يركض في اتجاه شـمالي شرقي وهو ينبح بصوت عـالٍ. إن الرجل الأبيض ليعتقد في مثل هذه الحالة إن الهندي الأحمر يبالغ في دقته ولكن الهندي الأحمر يعتقد بأن الرجل الأبيض يتكلم بغموض.

أمـا قـذارة الشـعوب البدائية فيحدثنـا عنها السـواح الذين سـنحت لهـم الفرصة لأن يـزوروا هؤلاء الذيـن أخرجوا من مواطنهـم فأصبحوا متسـولين في مخيمات يناصبهم فيها أهل المنطقة العداء. إن هؤلاء يسكنون

الأكـواخ Slums وإذا حكمنا على الحضارة الأمريكية من مناطق السـكن المتدهورة حيث يعيش عشرون شخصًا في غرفة واحدة مثل الجهة الشرقية من نيويورك وغربي شارع ماديسون في شيكاغو، وعلى الحضارة البريطانية مـن قطـاع بثنال كرين في لنـدن حيث يقيم مئات الملايين مـن «المتمدنين» الذيـن يعيشـون في ظروف أقـذر بكثير مـن أي متوحش معروف، أدركنا أن أولئك البدائيين أنظف من المتمدنين.

والذين أتيحت لهم الفرصة في العيش مع أقوام بدائيـة ذات حضارات لم يمسسها الغرب يجمعون على الحكم عليهم بالنظافة. يشير مالينوفسكي إلى أن أهل ملانيزيا حساسون جدًا لروائح أجسامهم. ووجد أن الاختلاط بمجموعـة منهم أطيب إلى النفس من الاختلاط بمجموعة من الأوربيين في هـذا الصـدد (م 108). أمـا أليـك وغ (م 189 ص 224) فيقـول عـن جـزر الهبرديـز الجديدة «إن مسـتوطني هذه الجزر كانوا يعيشـون في حالة التوحـش، وكانت حياتهم عملية ونظيفة شـأنها شـأن أحوال المتوحشـين دائمًا، كما أعتقد».

هـذا ويحتقر الرجل الأبيض البشر الذين يكسـوهم الشـعر، ويرى في ذلـك دليلاً على انخفاض مسـتواهم في سـلم التطور. ولكـن ذلك يدعو إلى الأسـف إذ يكسو الشعر جسـم الرجل الأبيض كما لا يكسو أي عرق آخر. وليس بين ما يطلق عليهم اسـم الأقوام المتوحشة سوى قوم آينوس في اليابان الذين يكسوهم الشعر والذين يعجبون بالشعر إلى درجـة تدعو نسـائهم أن يرسمن بالوشم شاربًا على شفاههن العليا. هذا وللعلم فقط،

ينتمي الآينوس إلى العرق الأبيض أكثر من انتمائهم إلى العرق الأصفر. وبدلاً من أن يكون المتوحشون كفارًا غير متدينين، كانوا في الواقع على العكس يبالغون في التدين ويتطرفون في العبادة. وإن عدنا إلى الحقيقة فإن «أفضلية» التمدن هو أن الفرد المتمدن أقل التزامًا بالخلق من المتوحش!!

لا يعتبر المتوحشون طبعًا دون دين فيعترف الناس بشكل غامض أنهم يسجدون لبعض الأصنام الخشبية والحجرية بطريقة بربرية ولكنهم لا يتدينون «حقًا» كما يفعل رواد الكنائس المتمدنين. يقول الشاعر كبلنج «لم تعد تهتم بأصنامها، عندما قبلتها حيث كانت واقفة، على الطريق إلى مندلي». وهكذا يخبرنا السيد كبلنج أن آلهة هذه الفتاة لا تستطيع أن تنافس قبلة الجندي البريطاني في قلب عذراء المتوحشين!!

ولكن بالرغم من أن البحوث العلمية لم تجر في هذا الصدد نستطيع أن نفترض أنها تستطيع فعلاً أن تتنافس مع قبلته، إذ أن المتوحشين متدينون بإيمان شديد ولهم الكثير من الخرافات والمحرمات، كما يعطون هذه المحرمات الكثير من الأهمية. ويشير ستفنسن إلى الأمر كبديهية فيقول «كلما هبطت في سلم التمدن وجدت التدين أشد صرامة».

ولكي ينور هؤلاء الذين يؤمنون ايمانًا عابرًا بالدين يسرد لنا عددًا ضئيلاً من المحرمات الدينية بين قبائل الأسكيمو التي تتعلق بأكل أضلاع الغنم فقط فيقول «تستطيع الفتاة الصغيرة أن تأكل أضلاعًا معينة. وعندما تكبر قليلاً تستطيع أن تأكل أضلاعًا أخرى. وعندما تصبح امرأة فيجب عليها أن تمتنع عن أكل الاضلاع التي سمح لها أن تأكلها حتى

ذلـك الحين. وبعد أن تلد طفلهـا الأول تسـتطيع أن تأكل اضلاعًا اخرى وبعد طفلها الثاني تستطيع أن تـأكل اضلاعًا أخرى. ولا تستطيع أن تأكل كل الأضـلاع إلا بعـد أن تلد طفلهـا الخامس. ولكن حتى في ذلك الحين يجب أن لا تمس الأغشية التي بين الأضلاع. وإذا مرض ابن أخيها فيجب أن تمتنـع عن أجزاء معينـة، وإذا مات زوج أخيها يجب أن تمتنع عن أجزاء أخـرى. وهنـاك محرمات أخـرى تتعلق بأضـلاع الغنم مـن حيث صحة أطفالهـا وصحـة اقربائها، كـما تعتمد هذه المحرمات على الشـخص الذي قـام بذبح الشـاة. فإن كانت هي التي قامـت بذبحها، فالمحرمات تختلف عـما إذا قـام بذبحها شـخص آخر. كما تعتمد عـلى كون الذبيحـة ذكرًا أو أنثى» (م 172 ص 410 – 411).

وإذا كانت هذه المحرمات مما لا يسـتطيع الرضوخ إليه الرجل المتمدن فيعتبرها مزعجات مثقلات، فإن الأسـكيمو كانوا على العكس يعتبرونها فرصـة لإثبـات فضيلتهـم. كما يعتـبرون هـؤلاء الذين يعرفـون محرمات أخرى أناسًا يتمتعون بقدسية خاصة.

إن وحشية، المتوحش مثل خنزة الخنزير، جلية لكل من يقبل الكلمات كحقائق. ولقد أشـار أسـتبروك مثلاً إلى أن المتوحشـين يستسـلمون بيسر للضوضاء والفوضى (م 59 ص 51)، ولكنه تجاهل سلوك المتمدنين لدى توقف حركة المرور لازدحام الشـوارع، كما تجاهل سلوك الزوجات وهن يتدافعن أمـام المخازن التي تعلن التزيلات في الأسعار. ويشير البرفسور هوتن بغموض إلى ان «المتوحشين هم الذين يدل عليهم اسمهم» (م 89).

ولكـن الكثير من العلـماء لا يتفقون مع هذا الرأي، فقد وجد ستفنسـن قبائل الأسـكيمو في مضايق يونين الذين يعيشون في العصر الحجري القديم المعاصر، وجدهم طيبين رقيقين وهو يقول «من الصعب ان تجد من يساويهم في الرقـة والعطـف في أي درجة من درجات مجتمعنـا» (م 172). كما وجد مالينوفسـكي في الجانب الآخر من العـــالم قبائـل التروبرياند في درجة من المسـالمة تبعث على السرور حقًا. فلم يشـاهد مطلقًا أي شجار فيما بينهم كما لم يسـمع كلمة نابيـة. أما العراك بالأيدي بين الزوجات والأزواج فكان شيئًا لا يخطر على بالهم مطلقًا. ولذلك استنتج بأن ضرب الزوجات هو نتاج للحضارة الحديثة وليس بجزء من تصرف البدائيين (م 108).

وقد يسـتمد مثل هـذا الاسـتنتاج من تجربة محدودة في الحقل والبيت، فهنالـك أدلة بأن أكواخ البدائيين لا تنجو مـن الخلاف العائلي كما لا تخلو منهـا القصور. ولكن النسـاء البدائيات في كل مكان تقريبًا يتمتعن بمركز اجتماعـي مرموق ذي حصانـات وامتيازات لا تـزال اخواتهن المتمدنات يناضلـن مـن أجلهـا بالرغـم مـن ادعـاءات الرجـل المتحـضر الفارغة بالفروسـية. ويسـتمر اخوة النسـاء البدائيات وآباؤهـن في دورهم بمثابة الحماة لهن حتى بعد الزواج. وما «سعر الزوجة» عمليـًا سوى رهن مادي يضعـه الزوج كتأمين يضمن سـلامة سـلوكه بعـد الزواج. فـإذا غضبت الزوجـة وعـادت إلى أهلها يبقـى ثمنها ولن يعـاد إلا إذا أثبت الزوج بأن الشـقاق كان مـن صنعهـا. هـذا وقد لا تحتـاج الزوجـة التـي أسيء إليها أن تذهـب إلى دار اهلهـا. يقول شـاينفيلد عن زوجة مـن قبيلة الايبو من نيجيريـا إنها قامـت بإقنـاع كافة زوجات القرية بـالإضراب لأن زوجها

انتقد طبخها، وهكذا اضطر الزوج المدقق في طعامه إلى الانصياع لضغط أصدقائه ومنذ ذلك الحين استمر في ابتلاع وجبات طعامه بصمت صبور متقزز (م 154 ص 340).

أما فيما يخص ضرب الأطفال فيبدو أن الانسان المتمدن يفوق قرينه المتوحش بكثير. يقول دفيس أن شعب الكونغو يميل إلى «تدليل اطفاله ولا أذكر أني رأيت منغوليًا يضرب طفلاً بالعصا» (م 44 ص 224). ولقد اسند هذا الرأي العديد من المستكشفين والمبشرين في كل أصقاع العالم. وهذا لا يعني أن أطفال المتوحشين لا ينالون عقابًا، بل يعني أن القسوة المتناهية التي تنتهي احيانًا بالقتل والتي يفرضها المتمدنون على أطفالهم التعساء، تقل كثيرًا عن ذلك بين المتوحشين. ولقد قال المدافعون عن طريقة حياتنا بأن أطفال المتوحشين أكثر قيمة بالنسبة لهم من أطفالنا بالنسبة لنا. ولكن هذا الدفاع أقبح من الذنب الذي وضع لتبريره وما هو إلا لعنة على حضارتنا.

ولقد أرعبت المبشرين «بذاءة» المتوحشين. ولكن تسعة أعشار هذه «البذاءة» هي في الواقع صراحة. تلك الصراحة التي كانت غريبة عن مجتمع المبشرين إلى درجة انهم لم يستطيعوا التعرف عليها عندما التقوا بها. فلقد انفصمت التسلية في الفكر المعاصر عن فكرة إنجاب الأطفال وهكذا فعندما شاهد المبشرون اللذة الواضحة في رقصات الخصب البدائية صدمهم هذا الاقتران بين إنجاب النسل واللذة فعمموا الأمر تعميمًا خاطئًا.

ولكـن الملاحظات الموضوعية التي تلت هذه الأحكام السريعـة دلت على أن المتوحش لا يفكر في الجنس دائمًا، بل يأخذ الصيد والغزو والتجارة والعبـــادة الكثـير مـن وقته. وإذا كانـت رقصات خصوبتـه دليلاً على شيء، فلربما تكون دليلاً على الصعوبة التي يجابهها في تهيج نفسـه جنسـيًا. وإذا كان المتوحـش يرقـص رقصـات الخصوبـة الجنسـية الطابـع فما هذه الرقصات إلا جزء من مجمل رقصاتـه التي تتعلق بالصيد والدين والقتال والشـجاعة... إلخ.. أما في المجتمع الغربي، كما أشـارت لجنة الكونغرس الأمريكية عام 1943 في قضية جون بوفنكدون، فليس ثمة رقصة أمريكية سـوى الرقص الخـد بالخد. وأي رقصة أخرى تشـكل جزءًا من النشـاط الغـير أمريكي. فإن يرقص الأمريكي، حسـب تعريف هـــذه اللجنة، أية رقصـة لا يلتقـي فيها الخدان يمنع حالاً من تسـنم المناصب الحكومية. (م 308 ص 18، م 309 ص 19، م 250 ص 213، م 269)، (م 270، م 271، م 272).

ولكن حتى الجنس بين المتوحشين لا ينتج من الإثارة ما تنتجه مشكلة أكل لحـوم البـشر. ففـي الذهنية الشـعبية كل متوحش هو مـن أكلة لحوم البـشر، وهـذا بالنسـبة لهم دليل ناصـع على انعدام الدين بين المتوحشـين عـلاوة على قذارتهم وشراستهم.

ويعتـبر أكل لحوم البشر اليوم محصورًا بالزنوج. ولكن كانوا يظنون في الماضي أن هناك شـعوبًا أخـرى تقوم بهذه الفعالية نفسـها فيقول القديس جـروم: كانـت هنـاك فصيلة من الجيـش الأسـكتلندي الملحقـة بالجيش

الروماني رآها رؤية العين لم تكن لتأكل شيئًا سوى لحم البشر. كما يقول بأن هؤلاء الأسكتلنديين يمتازون بأربعة صفوف من الأسنان صفين في الفك الأعلى وصفين في الفك الأسفل. وذلك ليستطيعوا مضغ لحم البشر. (73 ص 407).

ويرسم لنا «أوجلبي» صورة حية للهنود وهم يبيعون نساء الأزتيك كوارع البشر وأضلاعهم وشرائح من لحم أفخاذهم وأحشائهم (م 137 ص 87)، يحرص الملك «رابا» أحد ملوك الددنجا في أفريقيا لدرايبرج بأنه من المعروف جيدًا لكل الناس أن الأوربين يأكلون لحوم البشر (م 52).

ولقد أدخل القرن التاسع عشر ما يمكن أن يدعى بالعصر الذهبي لأكل لحوم البشر. إذ كان أكلة لحوم البشر حتى ذلك الحين من النوادر التي لا يصادفها إلا من كان رحالة ضليعًا. ولكنهم الآن أصبحوا فرجة لكل صحفي يأخذ عطلة في نهاية الأسبوع ليتمتع بمشاهدتهم فيخبرنا ستانلي إن حوض الكونغو وحده يحتوي ثلاثين مليونًا من أكلة لحوم البشر. ولكن الاحصائيات الأخيرة تشير إلى أن نفوس أهل الكونغو هم خمسة عشر مليونًا فقط، ولا بد أن نصفهم قد أكل النصف الآخر، كما أشار شونفورث إلى أن الهدف الأساسي من تجارة الرقيق في الكونغو، تجهيز لحم البشر للمستهلكين؛ وأضاف بأن المقترين منهم كانوا يستعملون الشحم للإضاءة، ولم تكن القارة المظلمة وحيدة بقصص الرعب هذه فيشير كارل لمبهولتز إلى أن قبيلة الماوري في زيلندا الجديدة كانت تذبح ألف ضحية بشرية لكل حفلة تطبخ فيها الجثث في أفران تحت الأرض. (م 73 ص 407).

ولقد أثار المرحوم سيبروك الالوف بقصصه الممتعة عن «أكلة لحوم البشر الذين يحترمون أنفسهم... ويتمتعون بشهية طيبة، وضمائر مستريحة». والذين يجلسون حول مائدة تحمل أصنافًا من لحوم البشر «لأنهم يعتقدون أنه لحم لذيذ». ولقد قام هو نفسه كما يخبرنا بالجلوس إلى مائدة من هذا القبيل توفرت فيها شرائح الروست البشري علاوة على المقليات والمشويات. ولكي ينورنا أكثر يقول: إن طعمه يشبه لحم البقر الناضج. ولسوء حظ العلم لم يستطع أن يخبرنا عن موعد ومكان حفلة العشاء هذه خوفًا من الشرطة. كما غمره الكرم وحسن الضيافة فلم ينشر اسم مضيفه. إنه لا يخبرنا بأنه رأى الشرائح تقتطع من جثة رجل مقتول، وقد يكون امتناعه عن ذكر ذلك أدبًا ولياقة. أو لربما قدم إليه جزء من شريحة مقددة أو محفوظة لأنه يخبرنا أنهم يقومون بحفظ اللحم الفائض بالملح والدخان لأيام الجوع لدى السلام (م 156).

ليس هنالك ما يقف أمام هذه القصص سوى تجارب المسافرين الآخرين الذين قنعوا بقصص اقل إثارة وتجارب مملة. إنَّ أكل لحوم البشر موجود فعلاً كما يبدو. فكل الحيوانات تأكل لحوم بعضها أحيانًا والانسان لا يختلف عن بقية الحيوانات في هذه السبيل. وقد توجد بعض القبائل التي تحب لحم البشر لطعمه ولكن هذه المجاميع أندر من النادر وظهورها شاذ في التطور الاجتماعي. على ان أكل لحوم البشر هو في الواقع طقوس ومراسيم تشبه التناول في المسيحية. فعندما يؤكل العدو أو الصديق أو الإله يؤكل الجزء منه الذي يعتقد أنه يحتوي فضائله فيؤكل قلب الشجاع وعين الحكيم لاكتساب فضائلهم. وهناك جذور المثل هذه المعتقدات في

عالمنـا اليوم. فينصح المرء بأكل المخ ليصبح أكثر ذكاء وبأكل لسـان الطير ليصبح أطلق لسانًا... إلخ..

ولكـن هذه السفسـطة التي يشـير إليها سـيبروك - طباخـون ممتازون ووصفات طبخ خاصة وبهارات ومشهيات - لم يجدها كل من بحثوا هذه المواضيـع. لربمـا كان الباحثون الآخرون منطوين على أنفسـهم، أو لربما اعتبرهم المتوحشـون مختلفين عنهم. ولكن الحالة التي تبدو محتملة في هذا الشأن أن الخاصرة التي رأى سيبروك المتوحشين يلمزونها كانت خاصرته هو، فالمعروف أن الشعوب البدائية تتمتع بالكثير من روح النكتة.

الفصل الخامس عشر:

أقصوصة مغطي الحمام

صدر في جريدة بريد المساء النيويوركية في 28 كانون الثاني 1918 مقال كتبه السيد «منكن» يسلي فيه نفسه بإحياء عيد مهمل. فقبل خمسة وسبعين عامًا من نشر هذا المقل -كما ادعى- قام رجل يدعى آدم ثومبسن، وهو مضارب قطن مغامر في مدينة سنسناتي، بوضع جسده العاري في أول مغطس صنع في أمريكا. ولقد أثار فعله هذا عاصفة هوجاء من الاحتجاج، فلقد اعتبر الاستحمام تفننًا، وتهديدًا للصحة العامة والأخلاق. فعبرت الجمعيات الطبية عن استيائها، كما فرضت المجالس التشريعية ضرائبَ باهظة لكي تمنعَ هذه العادة من الانتشار. ثم قوبل وضع الرئيس «فلمور» حوض استحمام، في البيت الأبيض، باستياء عام وشامل ولكن بالتدريج حذا الناس حذو الرئيس «فلمور»؛ وإن لم يصبح الاستحمام مزاولاً ولكنه اعتبر أمرًا اعتياديًا.

ولقد أضاف هذا الكاتب بأن هذه القصة كلها نسيج خطط له من السخافات ومعظمها ظاهر للعيان. ولكن الناس تلقفوا هذه القصة بشوق هائل وسرعان ما أصبحت قصة مقدسة من قصص التاريخ الأمريكي. فاستعملها الدجَّالون كدليل على غباء الأطباء. واستعملها الأطباء كدليل على التقدم العلمي، واستعملها صانعو المغاطس كدليل على بعد نظرهم. واستعملها المصلحون كدليل على قصر نظر الشعوب. واستفاد منها رؤساء التحرير كوسيلة لبيان سعة اطلاعهم. وظهرت القصة كجزء من تقارير الحكومة على إنجازاتها من أجل المصلحة العامة. وغدت جزءًا من المصادر الهامة في المكتبات العامة. كما رددها المفكرون

الكبـار، وظهرت في المجلات الطبية العلمية، وأذيعت من مختلف محطات الإذاعة (م 121 ص 194، م 175 الفصل 8، م 106 ص 302 ــ 309).

ولما جاء عام 1926 كتب «منكن» مرة ثانية بأنه استيقظ ضميره وأحب أن يُكفِّـر عن خطاياه، وإن النكتة التـي ألفها ذهبت إلى أبعد مما كان يرمي لهـا؛ واعـترف بأن القصـة كانت تلفيقًـا اختلقه لكي ينـذرَ الناس حتى لا يقبلـوا ما يقرأون كحقائق دون مناقشـة. ولقد نشرت اعترافه هذا ثلاثون جريدة يبلغ مجموع توزيعها أكثر من مئتين وخمسـين مليون نسـخة. ولكن نسيج هذه القصة الأصلي لم يمتْ. ففي خلال شهر من كشفِ زيفها أعيدَ نشرهـا في نفـس الجرائد التي حملت تكذيب مؤلفهـا. فلجأ منكن إلى نشر اعتراف ثانٍ حولها، ولكن ذلك لم يجد فتيلاً. فقد أصبحت أسطورةَ حوضِ الغسـيل مثلا عاميًا لا يمكن أن تقف أمامه عقبة تافهة كالحقيقة. فإذا كان النواب قد أقسـموا بأنها حقيقة واقعة، ونسـجها الواعظون في مواعظهم، وأعـاد أسـاتذة العلوم الاجتماعية كتابة مؤلفاتهـم حتى تتضمنها، فما هي الفرصة التي يجدها مهرج هزلي أمام كل هذه القوى؟

وهكذا اسـتمرت اسـطورة المغطس، فلا يمر أسبوع دون أن نسمعهـا عـلى المنبر أو نقرأها في الصحف. لقد حاول منكن مرتين آخرتين أن يزيل الضرر الذي أحدثه، فهو جم بأنه كاذب دجال يتدخل فيما لا يعنيه. وهكذا انسـحب من هذا الصراع غـير المتكافئ. واحتلت هـذه القصة مكانها إلى جنب أسـاطير واشـنطن ولنكولـن، بالرغم من أنَّ أي بحثٍ لا يسـتغرق أكثـر من خمـس دقائق في أية مكتبة محترمة، يكفـي لنقضها. ولكن القضية

تعدت حدودها فلم تعد المسألة قضية حقائق بل مسألة إيمان. إن أسباب هذه الظاهرة واضحةً نوعًا ما. فهذه القصة، مثل قصة كون «بيكون» قد كتب روايات شكسبير، تظهر سارد القصة بمظهر العارف ببواطن الأمور دون الحاجة إلى الجهد اللازم لاكتساب المعرفة. كما أنها كسبت للكثير نقدًا سهلاً، إذ وضعت كمادة جديدة في الكتب المدرسية، وفي التعليقات الصحفية والإذاعية فلا سبيل لزوالها.

ولكن مثل هذه الفوائد لا تعلل حيوية هذه القصة بشكل وافٍ. فقد عاشت قصص أفضل حياة أقصر. ولا بد أنَّ قصة المغطس تمس شيئًا عميقًا في التركيب الاجتماعي الحديث. فإذا فهمنا مسببات سرعة انتشارها، استطعنا أن نفهم الكثير من الأمور عن الأخطاء الفاحشة.

يكمن أحد العوامل الأساسية لنجاحها في أنها تسند الفرضية القائلة بأن للتقدم مقياسًا، ألا وهو ازدياد وسائل الراحة المادية. فقد ساد الاعتقاد بأن كافة المبتكرات الميكانيكية تتحسن تلقائيًا كل عام، ولذلك فقد ابتاع الملايين من البشر مئات الملايين من السيارات الحديثة كل عام كما جددوا ثلاجاتهم وراديواتهم.. إلخ، دون حاجة فعلية إلى تغييرها. كل ذلك لكي يكتنز هؤلاء الذين ابتكروا هذا الوهم المزيد من المال.

وتتعدى هذه المغالطة حدود الدوائر التجارية والصناعية، فتصرف الملايين على «تحسين» المدارس والجرائد والإذاعات. وهذا جزء لا يتجزأ عملية رفع المعنويات البشرية، التي صنعت منا ما نحن عليه الآن بسوآتنا وحسناتنا.

ولأسباب لربما استطاع المؤرخ الاجتماعي توضيحها، أصبح المغطس رمزًا خاصًا لا للتقدم المادي فحسب، بل للتقدم الروحي أيضًا. فإذا كانت النظافة من الإيمان سابقًا، فقد أصبحت النظافة أفضل من الإيمان لاحقًا. وهكذا فما أن تتهم أي شخص بانه يسيء إلى مغطس حمامه أمام المترفين المتنعمين حتى تضعه دون مستوى الاعتبار. ولقد استعملت هذه النقطة ضد مشاريع الإسكان الحكومية باستمرار. فقد قيل: إنك إذا أنشأت دارًا للفقراء وبنيت فيها حمامًا حديثًا، فلن يستعملوا هذا الحمام للاستحمام بل ليضعوا فيه النفايات. أما إذا أشرت بأن هؤلاء لا يمتلكون من المواد ما يمكن أن يعتبر نفايات، اعتبرك هؤلاء تافهًا لا تعرف عما تتحدث. فمن المعروف، بشكل قاطع وجازم، أن كل من يسكن في الدور الحكومية يضع النفايات في الحمام، وهم بفعلهم هذا يثبتون بأنهم لا يستحقون ما تنفقه الدولة عليهم. بل إذا أنشأت الدولة الدور لهم، فهي تشجعهم على الانحراف الخلقي. فقد وزن الفقراء في ميزان مغطس الحمام فوجدوا ناقصين.

وهكذا تتضح لنا نوعًا ما أسباب استمرار مزحة «منكين». إن في هذه القصة مديحًا للمترفين، فمن معطياتها إن المترفين لم يحصلوا على وسائل ترفهم باليسر، بل ناضلوا من أجلها، ولذلك فهم يستحقون ما حصلوا عليه. فهم وحدهم دون غيرهم رواد الماء الساخن الجاري. إنهم أبطال السجاد السميك الفاخر والمناشف الثقيلة. ولم يحصلوا على صابونهم المعطر إلا عن طريق تحمل المشاق وبعد النظر.

وهناك أسطورة مشابهة أقل انتشارًا، بالرغم من أنها ناجحة نوعًا ما، ويتوقع لها مستقبل زاهر، تلك هي أسطورة المظلة واختراعها. تدعي هذه الأسطورة أن الذين اخترعوا المظلة واستعملوها، قاسوا الأمرين من استهزاء الجمهور بهم ومضايقاتهم لهم، إلى أن اقتنع الجمهور بفائدتها أخيرًا. فتخبرنا إحدى شركات التأمين على الحياة في إعلان لها: كانت المظلة دليل تخنث أول ظهورها حتى انتشرت بعد أن نصح الأطباء باستعمالها «للتخلص من الحميات ودمامل الأعين والخوف من السقوط من الأماكن الشاهقة». وتضيف دائرة المعارف البريطانية، والتي يبدو أنها استمدت معلوماتها من «قاموس تاريخ الحياة القومي»، كان أول من اعتاد استعمال المظلة هو السيد «جوناس هانوي» الذي عاش ليرى نصره على كل سائقي العربات الذين ضايقوه وأطلقوا صيحات الاستهزاء به (م 244 ص 2).

وهنا أيضًا، تظهر فكرة تمجيد الرفاهية -حيث يوحى لنا- بأن البحث عن الرفاهية والراحة يتطلب شجاعة لا تتوفر لدى الجميع. فإذا تملك الذين أمنوا على حياتهم شعور بالخوف أو الجبن أمام الحياة، فلهم أن يستمدوا الراحة وهي من تقاليدهم البطولية. فهم من الرواد... رواد التأمين على الحياة.

ولكن الخطأ في هذا التشبيه يكمن في أنَّه قائم أصلاً على الخطأ. فقد كانت المظلات شائعة لما ينوف عن قرن ونصف من الزمن الذي عاش فيه «جوناس هانوي» هذا (م 330، م 328). حيث كان ينظر إلى حاملي

المظلات نفس النظرة التي تلقى عليهم الآن، ألا الحسد لدى سقوط المطر، والاستخفاف لدى الصحو.

ولكن الأخطاء وحدها لا تصنع الأخطاء الفاحشة. إنها نقطة الانطلاق فحسب. فالمغالطات دائمًا نتاج لعمليات معينة في تفكير الناس. انهم يعبدون المصادفات، ويأخذون البلاغة كحقيقة واقعة دون الشك في الفرضيات الأساسية التي تصنع التحيز. وهناك قبل كل شيء؛ الإعجاب بالرومانسي لغرض الاعجاب بالرومانسي. وما أن يخلق الخطأ حتى يعيش وينمو بفضل التأثيرات الفكرية الراهنة، والقوى الاجتماعية؛ التي إذا أخذت بشكل سطحي، تبدو وكأنها ليست على علاقة بالموضوع.

إن المنطق الشعبي منطق غريب. فإذا كان العقل المدرب لا يضع ثقته إلا بالأدلة المقبولة، ولا يطلق الاستنتاجات والاحتمالات إلا من الحقائق المثبتة، فإن العقل غير المدرب يؤكد على أن الفرضية صحيحة حتى يتم إثبات عكسها، فالقول: «إنك لا تستطيع إثبات خطأ فرضيتي» يشكل خاتمة الجدل المنطقي حول أي مشكلة بفوز قائلها. كأنما عليك أن تقدم قطعة من القمر للتحليل الكيميائي لتثبت بأنَّ القمرَ ليس مصنوعًا من الجبن الأخضر.

يعتبر الجدل عن طريق التشبيهات – أي الاستنتاج إلى درجةٍ أعلى من التشابه الملحوظ – أخطر الهفوات في التفكير. ولقد قاد هذا التفكير في الماضي، (في الطب مثلاً) إلى نظرية التشبيهات. فوصف لب الجوز لأمراض الدماغ، لأن لب الجوز يشبه شكلاً مصغرًا للدماغ. كما وصفت

رئات الثعالب للذين يعانون من صعوبات التنفس، لأن الثعالب حسب اعتقادهم تتمتع بقوى تنفسية متفوقة. كما وصف شحم الدببة لمعالجة الصلع لأن الدببة تتميز بفرو سميك. بكلمة أخرى، استعمل الكثير من الوصفات العلاجية العقيمة، المستمدة من التشبيهات السطحية. والأدهى، أن هذه الأدوية لم تنفض حتى الآن من رفوف الصيادلة بالرغم من أن ما تبقى منها الآن يحضر بطرق «علمية» ويعلب بأغلفة جذابة. ولم يقتصر هذا الضرب من التفكير على الطب فقط، فقد غزا كل مجالات الحياة، فلبس أجدادنا ملابس داخلية حمراء طلبا للدفء لأن الأحمر يشبه لهيب النار. كما أعطى اختراع الراديو واكتشاف الذبذبات اللاسلكية مبررات للإصرار على إمكانية تحضير الأرواح وتوارد الخواطر.

وتستمد هذه المغالطات جذورها من الاختلاطات اللغوية أيضًا. فيصرف الكثير من الناس الأدلة التي تناقض آراءهم بقولهم إن الشذوذ يثبت القاعدة وهم لا يدركون معنى ما يقولون. فالشذوذ لا يثبت القاعدة تلقائيًا بل يعطي الفرصة لامتحانها. هناك في الواقع، حاجة ماسة إلى لغة جديدة بسبب عمق جذور الخطأ في اللغة الحالية. ولكي نتخلص من جذور هذه الأخطاء الآن يتطلب الأمر مئة قرن لكي يدرك الناس ما يقولون. ولكن بما أن معظم هذا الغموض وهذه الفوضى موجود في الكلمات نفسها، وبما أن هذه الكلمات في الواقع تجريدات، فإن اللغة الجديدة لن تحلَّ المشكلة إلا إذا ترك البشر اللغة نهائيًا وحملوا الأشياء التي يتحدثون عنها. وحل هذه المشكلة المنطقية بهذا الشكل يخلق مشكلة نقليات لا أول لها ولا آخر، وهكذا يفشل الاقتراح لانعدام إمكانية تطبيقه.

إن العقل البشري حرفي للغاية ويغرم البشر بالبلاغة. ولذلك فإن البشر يأخذ البلاغة كحقيقة مطلقة، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج مؤلمة وبعيدة المدى. فمن المستحيل مثلاً أن نقدر الألم الذي سببه مفهوم «الدم» والتعاسة البشرية التي أدى إليها باعتباره ناقلاً للوراثة. ولكن تعبير الدم كناقل للوراثة «تعبير» فحسب، ولا علاقة له بالواقع.

إن طاقة هذا الاتجاه لخلق الأساطير تمثلت مؤخرًا في التأكيد الشهير القائل «لا ملحدين في الخنادق». وإذا عدنا إلى أصل هذه القاعدة وجدنا أن أول من فاه بها هو المقدم «ورن كلير» في قصته عن أسابيع «باتان» الأخيرة، والتي قدمها في برنامج الجيش في شركة الإذاعة القومية في الولايات المتحدة عام 1942. فقد قال المقدم كلير بأنه سمع هذه الملاحظة الخالدة، لأول مرة، من عريف شاركه في خندق خلال إحدى الغارات اليابانية. هذا ولم يشر المقدم إلى اسم العريف، كما لم ينوه عما إذا كان عالمًا دينيًا مدربًا، أو أن هذا القول هو بيان رسمي من قيادة الجيش الأميركي. ولكن الذي قصده من هذا القول ببساطة، هو أن البشر يبحثون عن الله في ساعة الضيق.

أما أن يفعل البشر ذلك أو لا يفعلوه فمشكلة لا تنتهي بمجرد إطلاق قول بليغ. هذا علاوة على المشكلة القيمية التي تتركز في السؤال التالي: هل يعتبر هذا القول مدحًا في الدين كما يعتبره بعض رجال الدين؟ ولكن هاتان المشكلتان لم يجر بحثهما. فبالقدر الذي يخص الجمهور، كانت هذه الصياغة البليغة حقيقة عسكرية لا يدانيها الشك. وأما بالنسبة للصحف

اليوميـة، فقـد كانت خـبرًا مثيرًا مهـما أعيد وكُـرر. ولقـد كان الأمر أولاً محصـورًا في خنادق «باتان»؛ فهـي وحدها التي كانت تتمتـع بهذه القدرة عـلى إرسـال الإيمان إلى قلوب المنبطحين في أعـماق الخنادق. ولكن مـا إن انتشرت الحرب حتى اكتسـبت كل الخنادق مثـل هذه القدرة الجبارة، من خنـادق المحيط الهادي، وحتى خنادق نور مندي وإيطاليا. وبما أنَّه لم يكن هنالك سبب يجعل العدل السماوي يرسل عنايته للمشاة فقط، فقد ظهرت هـذه البركـة في كافة فروغ الخدمة العسـكرية. ففي كانـون الأول 1943، بنـاء على مقالة في مجلة المختار، كان قد تم تطهير كل مقاعـد الطيارين من الملحدين.. كما دخل نور الإيمان قلوب القابعين في زوارق النجاة، ولم يبق سوى بعض الملحدين في البحرية التجارية، ولكن كان يكفي أول طوربيد يتجه نحو سفنهم، لأن ينسف إلحادهم مع سفنهم (م 283 ص 26 – 28، م 104).

كان هنـاك، طبعًـا، مـن خالـف هـذه القاعدة، فقـد قضى «بـون ليم» الصيني مائة وثلاثة وثلاثين يومًا على طوف في جنوب الأطلسي. وصرّح عندمـا أنقـذ بأنه لم يحدث خلال تلـك التجربة ما يقـوده للاعتقاد بوجود عناية إلهية رحيمة. وقد كان كافرًا في الأساس (م 267، ص 12).

أمَّـا جمعية نشر الإلحاد الأمريكية فقد شـعرت بأن هـذا نيلاً من وطنية أعضائهـا، فعملـت ما في وسـعها لدحضهـا، وبعد جهـد جهيد وجدت متشـككًا في وجود الإله في صف المشـاة، هاجمته دبابة مرة، ولكنه أقر بأنه لم يدخـل خندقًـا في حياتـه. وبـما أنه ليس ملحـدًا حقًا، وبما أنـه لم يكن في

خندق، فلا تنطبق عليه الشروط، ولذلك لا يمكن الأخذ بأقواله (م 325 ص 13).

ولكن هذه الجمعية أهملت مرشحًا أفضل من ذلك هو السيد «كان» الذي كتب في مجلة نيويورك بأنه لم يكن متدينًا، كما أعترف في مقال آخر بأنه ألقى بنفسه في المراحيض مرة حينما هاجمته الطائرات اليابانية (م 252 ص 53، م 253 ص 34). ولكن يمكن القول: بأن غير مؤمن في مرحاض لا يساوي ملحدًا في خندق، بالرغم من أن المؤمنين يقبلون هذا التشبيه. ولم يكن هذا لينفع الجمعية شيئًا. حتى ولو وجدت فرقة كاملة من الملحدين تمركزت في ألف من الخنادق - وكان هذا ما سيجدونه لو أنهم التفتوا إلى حلفائهم الروس حينذاك ـ فقد كان المفروض في هذا التعبير تثبيت إيمان راسخ لا وصف حالة حربية والإيمان لا يقبل الجدل.

أمَّا من الجهة الثانية فالموضوع غير مقنع تمامًا لحسن الحظ. إذ لا يزيح التحيز، تحيز مضاد؛ وذلك لأن الإنسان لا يرى في معتقداته تحيزًا بل يعتبرها، عادة، نتائج منطقية أو حقائق ناصعة. ولعل أخطر التحيزات هي تلك التي تؤثر في طريقة تفكيرنا نفسها، والتي تكمن دون مستويات الشعور. إننا نفكر ضمن إطار من المفاهيم، نجهل وجوده. ولذلك تكون أكثر أفكارنا إخلاصًا، مجموعة أسخف الأوهام (إننا نرى ما نريد أن نراه). وتؤكد ملاحظاتنا بدورها افتراضاتنا. وهكذا فقد قيل بأن نظرية دارون في الاختيار الجنسي لم تنبع من ملاحظاته كعالم طبيعة، بل من معتقداته كسيدٍ مهذب. فهو بصفته الأخيرة يعتقد بأن للسيدات امتيازات خاصة

لـدى الذكـور، بالرغم من أن ملاحظة الدجاج لخمـس دقائق فقط تكفي لدحض هذه الفرضية.

إن الطريقـة التي تصير فيهـا مواقفنا اللاشـعورية، ومفاهيمنا طريقـة تفكيرنا، تتضح بشكل جلي عندما ننظر إلى الطريقة التي يعبر عنها مختلف الشـعوب عـن موقعهـم الجغـرافي. فنجـد بـأن اليابانيين يعتقـدون بأنهم شرقيـون. ولقـد كان هذا المفهـوم نتيجة للإطـار الإدراكي الـذي فرضه الأوربيـون. فالـشرق، شرق بالنسـبة لأوربـا والغرب هو غرب بالنسـبة لأوربـا أيضًـا. الأوربيـين يطلقـون عـلى أمريكا اسـم الغرب بينـما يطلق الأمريكيـون عـلى الصين واليـــابان اسـم الـشرق أيضًا. أمـا إذا نظرنا إلى الخارطـة فنجـد بأن الصين واليابان في الواقع همـا غرب أمريكا وليس شرقهـا. وبنـاء على منطـق الأمريكيـين، إذا كان ثمة منطق بهذا التفسـير، فكاليفورنيا في الواقع يجب أن تقع شرق نيويورك لا غربها.

إن الفكـر الشـعبي بالرغـم مـن تحيـزه ولا عقلانيته يحـاول جهده أن يدرس الأدلة ويمحصها ولكنه لا يمتلك المعرفة عن طبيعة ما يبحث عنه ولا القوى العاملة لتشويشه وتضليله في بحثه هذا. فهو يعمم من الشذوذ وهـو ينتقي مـن مجمل الأدلـة التي تجابهه تلـك التي تتوافق مـع فرضياته القبليـة دون أن يعـي فعلـه هـذا، ويطلـق على معظـم هذا اسـم التفكير. ومعظـم ما ينضـوي تحت هذا الاسـم خـلال العمليات التدريسـية، منذ الابتدائـي وحتى الجامعي، لم يكن إلا بحثًا عـن أدلة تثبت هذه المقتنعات المسبقة. أما الطريقة العلمية فتقود البشر لكي يصبحوا أكثر تشككًا في كل

الأمـور. وهذا ما لا يسـتطيع إدراكـه معظم البشر. فيقول لنا توبسـل «لا بد من وجود عدو سري، في طبيعة الإنسـان المنحطة، يقوده إلى الشـك في وجود الحصان ذي القرن الوحيد». وهكذا يتضح لنا من قول توبسل، أن الشك شذوذ سلوكي مؤذ لا غير.

ويغلـف البحـث الأزلي لإثبـات الغيبيـة معظـم «الفلسـفة الشـعبية» حيـث تعتـبر المصادفة أهـم دليل ممكن. إن الدهشـة لحـدوث المصادفات هي من خصائص الفكر السـوقي. ولا تحتوي معظم الصدف، في الحقيقة عـلى عنـاصر الغرابـة، فهـؤلاء الذيـن يفتقـرون إلى المعرفـة أو الخيال لا يتوقعـون شـيئًا من الأحـداث الاعتياديـة، ولذلك يجدون المسـتغرب في الاعتيادي. يقول البرفسـور جاسترو «من أشـيـع الصدف في العالم اليوم أن تلتقـي رسـالتان في البريـد. ويحدث هـذا ألوف المـرات كل يوم ولكن البشر يسـتثيرون أنفسهم بالدهشة والاسـتغراب كلما حدث هـذا الأمر. إذ يشـكل ذلك بالنسـبة لهم دليـل قاطع ونهائي على وجـود القوى الغيبية وتوارد الخواطـر ونداء الأرواح. ولكن إذا تمعنا في الموضوع نجد أنـه من الطبيعـي جدًا أن يفكـر الأحبة والأقـارب بالكتابـة إلى بعضهم البعض، فيكتبون في نفس الوقت».

مـن إن الدهشـة التي تصاحـب الصدفة هي في الواقـع فعل ذاتي. فإذا أخذنـا بقوانين الاحتمال فوصول إعلان عـن مادة تجارية في البريد، هو في الواقع أغرب من أن يكتب لك شخص يميل إليك وتربطك به علاقة ما. ولكن بما أن الانسـان لا يتمتع بأية علاقة انفعالية مع الإعلان المرسـل في

البريـد، فهو لا يتأمل في معجزة وصوله إليه. وحتى إذا حدث شيء يفوق العـادة، بدرجة تـبرر التعليق على الموضوع، فإن اهتمامنا بذاتنـا وشـؤوننا وتركيزنا الأناني على أنفسنا يمنعنا من التدقيق في طبيعته الحقيقية.

أمـا إذا حـاول أحدهـم أن يشـير إلى هـذه الحقائق فسـتجابه محاولاته بالكراهية والنفور. إذ أنها تنتقص من قيمة هذا الفرد وأهميته. فهو يفضل أن يسـتمر في الاعتقـاد بأن نظام العـالم ومجريات أموره، غالبًـا ما تتوقف بسـببه هـو. وهكذا فـإن التعلق بالمعجز، في الأسـاس هو أنانيـة خالصة. ولهذا السـبب يسـهل تشـجيع الإيمان به. وغالبًا ما تفعل الصحافة ذلك، فهـي تنفخ في كل حـدث عادي فتجعل منه معجزة، (كما تختلق المعجزات اختلاقًـا) إن نصـف المعجـزات على الأقل في عصرنا هذا ليسـت سـوى اختـلاق صحفـي. ويتضح النجاح الذي. يسـتطيعون الوصـول إليه فيما حـدث في تشرين الثاني عام 1929 حيث كتبت جريـدة «الكرة الأرضية» في بوسطن، عن المعجزات التي تحدث في مقبرة مالدن في ماساتشوستس؛ حيث أرسـلت ما يزيـد عن ربع مليـون من البشر، عندما وصفت شـفاء الناس من أمراضهم وعللهم فيها، وهكذا فإن امرأة مصابة بالهستريا كان قد تم فحصها في أحد المستشفيات ولم يوجد سبب عضوي لشللها قامت مـن كرسـيها في المقبرة وسـارت فيـما حواليها وهي تهزج تحـت ومضات عدسـات التصويـر التـي وجههـا إليها مصـورو الصحف. ولكـن طفلاً أعمى أصر على أنَّه لم يشف من عماه، بالرغم من أن الصحافة أصرت على أنه شـفي. ولقـد حاول أبو الطفل المسـتاء من كذب الصحيفة أن يجعلها تسـحب أقوالها حول الموضوع ولكن محاولاتـه قمعت حالاً. كما انتزعت

العكازات من أطفال مصابين بالشلل والكساح ثم صوروا حالاً قبل أن يتهاووا إلى الأرض بشكل مؤلم ويتمرغوا في الوحل والطين، وقبل أن يعلو بكاؤهم وعويلهم. أما الصحف التي نشرت هذه الأكاذيب فقد بيعت بشكل منقطع النظير، بينما ركع عمدة المدينة بخشوع أمام مصوري الصحف (م 249، م 246، م 215، م 121، م 96، م 298).

وتقوم الصحف عبر العالم بتشويه الأحداث أو اختلاقها بشكل متعمد مقصود. فقد كتبت الصحف والمجلات عن لعنة «توت عنخ آمون» وأعيدت القصة وتليت مرارًا وتكرارًا وقيل لنا بأن لعنة الفراعنة تبعت كل من كانت له علاقة بأي شكل من الأشكال باكتشاف قبر توت عنخ آمون. فيقول: إدكار والاس في مجلة «مكال» إن حية كوبرا افترست ببغاء رئيس المنقبين، ومنذ ذلك اليوم لاحقت لعنة الفراعنة كل من شارك في فتح القب. لقد تبعتهم اللعنة في الصحف فقط. إذ يبدو إن أعضاء البعثة التنقيبية تمتعوا بصحة ممتازة؛ كما إن معدل أعمارهم فاق معدل أعمار البشر بكثير.

ولكن ترديد هذه القصة جلب المال الوفير والشهرة الشاسعة لكثير من الرواة إذ يغرم البشر بالأكاذيب القديمة. بينما الحقيقة كما قال ملتن «تولد في هذا العالم كالنغل فتسيء إلى سمعة من ولدها». إن اللاعقلانية في الواقع هي من أكثر الأشياء ارتباطًا بالمصالح، المشروع منها وغير المشروع. وهناك عشرات المراكز في كل مدينة من مدن العالم تشجع اللاعقلانية وتغذيها. ففي الولايات المتحدة وحدها، يزيد عدد المنجمين

الذين يمارسون تنجيمهم عن خمس عشرة مجلة شهرية متفرغة للتنجيم ودوريتان سنويتان ضخمتان. وهذا لا يشمل الرسائل الشخصية التي يرسلها المنجمون إلى من يكاتبهم من مدراء الشركات وكبار الموظفين. كما ظهرت في الولايات المتحدة عام 1945 موجة تطالب بتعيين منجم خاص لرئيس الجمهورية (م 215، م 256، م 191).

ولكن المنجمين وقراء البخت ليسوا وحيدين في هذا المجال المفتوح. فهنالك الملايين ممن يعيشون على الآمال والانفعالات البشرية غير المعقولة، من صحفيين إلى مضاربين بالأسهم والسندات إلى دلالي الأراضي ومدراء شركات الإعلان والمحامين وأساتذة الجامعات والأطباء والصيادلة والسياسين، الذين يستمدون جزأ من دخلهم من هذه الخرافات إن لم يستمدوه كله. وهؤلاء هم أما طفيليون على هذه الخرافات عن قصد وعمد وإما أنهم يعيشون عليها من خلال جهلهم ومن خلال جهل الآخرين وأوهامهم.

ويتصف الكثير من هذا الاستغلال بكونه مكشوفًا لا خجل فيه ولا حياء. فلقد بيعت خلال الحرب العالمية الثانية ملايين من الايقونات، التي ادعى بائعوها بأنها تحرف رصاص الأعداء عن أبناء من يشتريها. فكان الجنود يعلقونها في اعناقهم، حتى قدمت لجنة التجارة الفدرالية تقريرًا يقول بأن بيع هذه الايقونات يشكل خداعًا للجمهور. حيث اكتشف بأن المادة التي صنعت منها الايقونات تتفتت إلى عشرات الشظايا المميتة إذا اصطدمت بها طلقة من طلقات الأعداء.

هنـاك الكثير مما يجري على هذه الشـاكلة في هـذا العالم فإن كان الخداع صغـيرًا تافهًـا فغالبًا ما ينتهي صاحبة في سـجلات السـجن. أمَّـا إذا كان الخداع ضخمًا وكبيرًا وذكيًا فغالبًا ما ينتهي صاحبه إلى سجل المشاهير أو في سـجل الدعوات الاجتماعية. فهذا الصنف الأخير هم مديرو الإعلانات والدعاية الأنبياء الجدد. إنهم لا يسرقون مباشرة ولكنهم يفسحون المجال أمام اللصوص الكبار. إنهم لا يدافعون عن التفرقة العنصرية بل يسندون الفوارق الموروثة بين العروق. إنهم لا يحاولون أنْ يثبتوا أنَّ هذا الاصلاح أو ذاك خاطـئ بل كل ما يحتاجون لأن يفعلوه هو أطلاق شـعار أو فبركة كل شيء.

ولقـد أصبح العلم مرتكزًا للكثير من الخطأ المتعمد. فما يجب أن تقول لكـي تثبت صحة منطقـك هو «قال العلماء» أو «يجمـع العلماء» أو «أثبت العـلم الحديث». حتى أصبحت هذه المقولات تعويذات سـحرية ورقي، تضـع أي جملـة تطلقهـا فوق مسـتوى الشـكوك، وفـوق مسـتوى النقـد العلمـي والتمحيـص أنهـم يسردون لـك مختلف الأقاصيص عن الشـك والهزء والسـخرية الذي جابـه العلماء منذ سـنين خلت. إنهم لا يوجهون التعنيف لمن يبدي الشك؛ بل يوجهون التعنيف للشك نفسه.

فـما يدافعـون عنـه في الواقع ليس هـذا المعتقـد أو ذاك، ولكن سرعـة التصديـق. وهم يخلقـون ضربًا من الغيبية الغامضة لهـذا الغرض. فهم لا يمتلكـون إيمانًـا دينيًا عميقًا، بـل إذا قدمت لهم معتقداتهم نفسـها بصيغة جديـدة، فإنهـم سـوف يعملـون فيهـا نقـدًا وتجريحًـا. ولكنهـم يؤمنـون

بشكل قاطع، إن هذه في «صالح البشر». وإذا حاولت استجوابهم في الخصوصيات، اعتبروا ذلك «قلة ذوق». فهم يفترضون وجود تجريد اسمه «الدين» ينفصل عن أي معتقد ديني خاص، ولكنه بنفس الوقت على درجة من القدسية بحيث يشكل أي حديث حوله خطيئة لا تغتفر. فهم يقولون: إن الإنسان لا يجادل في الدين، بالرغم من أن الرجال المتدينين حقًا لا يوافقون على هذه المقولة.

ليس هنالك خطأ بريئًا، إن البشر لا يستندون إلى فرضيات خاطئة دون أن يستمدوا منها استنتاجات هامة وبالغة الخطر. قد يكون ثمة استنتاجات لا تبدو عليها الأهمية كأن تؤمن بأن الشعر يشيب للهول والرعب أو أن الطيور تعيش حياة هانئة سعيدة أو أن عيون الصينيين منحرفة. ولكن هنالك الكثير من الأذى في الجهل في الفسلجة وعلم الحيوان وعلم الإنسان. والخطر الأكبر يكمن في تكوين اعتقاد دون أدلة. أو في تشويه الأدلة لتسند رأيًا معينًا يتلازم الغموض والاستبداد كما يتلازم الشك والديمقراطية. إنه لمن المريح حقًا لكل من ينتفع من خنوع الجماهير أن يجعلهم يعتقدون بأنهم ليسوا أسياد مصائرهم، وأنهم يجب خضوعهم لما هو فوق طاقة البشر. إن ضباب الغيبية كان دائمًا ستارًا بديعًا لهؤلاء الذين لا يودون أن يتفحص أحد ما يفعلون.

لقد دمغت كافة الثورات الديمقراطية، منذ ثورة الفلاحين، بأنها ثورات مناوئة للدين. ولقد كان هدف هذا الاتهام جزئيًا الإساءة لسمعة هذه الثورات. كما أنها كانت نتيجة لإدراك التسلطيين بأن الدكتاتورية

نقيـض للديمقراطيـة. فالديمقراطيـة لا تطلـب الحـق في حريـة التفكـير فحسـب، بـل تلقى مسؤولية التفكير على عواتق البشر. والإيمان الأعمى نقيض الفكر، ويمكن اعتبار رفض أي إنسان شريف قبول أي نتيجة غير مسـندة عنـصرًا هامًا من دينـه. فمثل هذا الإنسـان يعتبر الدعـوة للإيمان الأعمـى دعـوة إلى البربريـة والعبوديـة، إذ تتضمن الدعـوة للإيمان دون إثبـات، دعوة للتنازل عن الكرامة. ليس هنالك معنى مطلقًا لحرية العمل وحريـة القـول دون حريـة التفكير. وليـس ثمة حرية تفكـير دون عنصر الشـك، إن الرجل المتمدن ملزم خلقيًا بالشك، إنه ملزم خلقيًا بأن يطلب البيانات اللازمة لكل جملة تدعى بأنها حقيقة. إن الرجل الشريف يرفض أن تضطهـده فرضيـة. إذ أن كل اسـتبداد يرتكز في جوهـره على الخديعة، يرتكز في جوهره على إجبار الناس على قبول فرضيات خاطئة وبذلك فإن أي إنسـان يتنازل عن الشـك في أية لحظة ويمتنع عن التسـاؤل في أية ثانية يكون قد خان البشرية في تلك اللحظة نفسها.

المراجع

هذه هي مراجع الكتاب، وقد اشير إليها في النص حسب ارقامها، ويدل حرف م على المصدر، و ص على الصفحة.

Books and Journals

1. Ackermann, A.S.E.: Popular Fallacies Explained and Corrected (London: Old West Minister Press: 3de. edition, 1924).
2. Adachi, Buntaro: "Der Geruch der Europäer", Globus, vol. 83, 1903,
3. Adams, John - The Dictionary of National Biography.
4. Adams, Romanzo: Interracial Marriage in Howaii (New York: The Macmillan Company; 1937).
5. Alverdes, F.: Social Life in the Animal World (London: Kegan Paul).
6. Akeley, Carl E.: Brightest Africa (London: William Heine - mann).
7. Aldrich, C. A. and Aldrich M.M. Babies Are Human Beings (New York: The Macmillan Company; 1943),
8. Alexander, Chester: School and Society, April 15, 1944,
9. Allee, W.C. The Social Life of Animals (New York: W.W. Norton & Co., Inc.; 1938).
10. Allen, L.M. «Preqnancy at the age of eleven years terminating in a natural delivery", Maryland Medical Journal, Baltimore, 1901. Xliv.
11. Alvarez, Walter C.: Nervousness, Indigestion, and Pain (New York: Hoeber; 1943).
12. St. Aquinas, Thomas: Summa Theologica, Question Xcii, Article I, Reply Obj. 1.
13. Aviation Training Division "Shark Sense" Navy Bulletin, March 1944.
14. Bagley, W.C. The Educative Process (New York: The Macmillan Company; 1910),

15. Bean, Robert Bennett: "Some Racial Peculiarities of the Negro Brain," The American Journal of Anatomy, vol. 5, 1906.

16. Bemelmans, Ludwig: My War with the United States (London: Victor Gollancz; 1938).

17. Bernstein, R. Hospital Tidings Oct. 1936.

18. Borchard, Edwin M. Convicting the Innocent (New Haven: Pale University Press; 1932).

19. Boulenger, E.G. The Aquarium Book (London, Duckmorth; 1925).

20. Boulenger, E.G.: Searchlight on Animals (London: Robert Hale and Company; 1936).

21. Bradley, John Hodgdon: Patterns of Survival (London: G. Rout - ledge and Sons; 1939).

22. Brogan, D.W. The American Character (New York: Alfred A. Knopf, Inc.; 1944).

23. Brown, Alan: "Animals Don't Like Music", in the Etude, Febru- ary 1943.

24. Browne, Sir Thomans: Works (Edinburgh: John Grant; 1927).

25. Buck, Frank: Animals Are Like That! (London: Robert Hale; 1941).

26. Shaw, G.B. John Bull's Other Island.

27, Butler, Samuel: Further Extracts from the Notebooks of Samuel Butler (London: Jonathan Cape; 1934).

28. Byron: "The Prisoner of Chillon"

29. Caldwell, Otis W. and Lundeen Gerherd E.: Do you Believe it? (New York: Double - day, Doran & Co.; 1934).

30. Cannon, Walter B. The Wisdom of the Body (London: Kegan Paul).

31. Carver, R.H. "A case of early maternity", Providence Medical Journal, 1909, X.,

32. Cather, Willa: My Antonia (London: William Heinemann; 1914).

33. Cattell, R.B. General Psychology (Cambridge: Sci - Art Publi shers: 1941).

34. Chapple, E.D. and Coon C.S.: Principles of Anthropology (New Anthropology (New Pork: Henry Holt and Company; 1942).

35. Chaucer: Prologue of the Pardoner's Tale, Line 27, Revelation ix. 10.

36. Boswell's, Johnson (Oxford: The Clarendon Press (Powell's revision of the Hill ed.), vol. iv.,

37. Coates, W.P. and Zelda: The Soviet - Finnish Campaign, 1939-40 (London: Eldon Press; 1941).

. 38. Cobb, Montague: "Race and Runners", Journal of Health and Physical Education, val. 7, 1936.

39. Cook, Albert S., (ed.): The Old English Elene, Phoenix, and Phy - siologus, (New Haven: Yale University Press: 1919).

40. Coward, T.A.: The Migration of Birds (Cambridge: The University Press; 1929).

41. Cruden, Alexander: A Complete Concordance to the Holy Scriptu res (London: F.C. and J. Rivington; 1810 6th. edition), "Inven – tions". Ecclesiastes, vii, 29.

42. Curwood, James Oliver: "The Lasting Bond", reprinted in Ernest Thompson Seton: Famous Animal Stories (London: John Lane; 1933),

43. Daglish, Eric Fitch: Life Story of Beasts (New Pork: William Morrow and Company; 1931).

44. Davis W.E. Ten Pears in the Congo (New York: Reynal and Hi - tchcock; 1938),

45. Dickens, Charles: American Notes, Chapter 3.

46. Dickens, Charles: Bleak House, Chapter XXXII.

47. Dickens, Charles: David Copperfield, Chap. XXX.

48. Ditmars, Raymond L.: Confessions of a Scientist (New York: The Macmillan Company; 1936),

49. Ditmars Raymond L.: Reptiles of the World (London: Sir Issac Pitman and Sous).

50. Dockeray, F.C. Psychology (New York: Prentice Hall; 1942). 51. Douglas, Norman: Goodhye to Western Culture (New York: Har - per and Brothers; 1930).

52. Driberg, J.H. The Savage as He Really Is (London: Routledge; 1929).

53. Dublin Louis I.: To be or Not to Be, A Study of Suicide (New York: Harrison, Smith and Robert Hass; 1933).

54. Dublin, Dr. Louis I and Lotka, Dr. Alfred J.: Twenty-five years of Health Progress (New York: Metropolitan Life Insurance Com - pany; 1937).

55. Dugdale, R.L. The Jukes (New Pork: Putman's; 1888).

56. Elton, Charles: Voles, Mice and Lemmings (Oxford: The Claren don ress; 1942).

57. Ellis, Havelock: Studies in the Psychology of Sex (Philadelphia: F.A. Davis Company; 1914). Vol. V.

58. Escomel, Edmundo: "La plus jeune mére du monde", La presse Mé - dicale, Paris Vol. 47, May 31, 1939.

59. Estabrooks, G. H, Man the Mechanical Misfit (New York: Mac- mil - lan Company; 1941).

60. Fabre, J. H.: Social Life in the Insect World (London: T. Fisher Unwin; 1932).

61. Fabricant, Noah D.: The Common Cold (Chicago, New Pork: The Ziff Davis Company; 1945).

62. Fishbein, Morris: Shattering Health Superstitions (New York: Horace Liveright; 1930).

63. Fleming, Peter: News from Tartary (London: Jonathan Cape).

64. Foly, J.P. "The Baboon Bay of South Africa" American Journal of Psychology. Jan. 1940.

65. Fox, Charles: Educational Psychology (New Pork: Harcourt, Brace and Company; 1927).

66. Galton, Francis: Inquiries into Human Faculty (Everyman's Lib rar; 1919).

67. Gesell, Arnold: Wolf Child and Human Child, (London: Methuen and Company).

68. Gesell, Arnold: "The Biography of a Wolf Child", Harper's Maga - zine, January 1941.

69. Gillespie, R.D. Psychological Effects of War on Citizens and Sol - diers (London: Chapman and Hall).

70. Goddard, Henry H. The Kallikak Family (New York: Macmillan Company; 1912. Reissued, 1939).

71. Goddard, Henry H. Feeble - Mindedness: Its Causes and Conse - quences (New York: The Macmillan Company; 1914). 72. Goddard, Henry H.: "In Defence of the Khallikak Study", Science, June 5 1942.

73. Gould, M. and Pyle Walter L.: Anomalies and Curiosities of Me - dicine (Philadelphia: Saunders & Co.; 1897).

74. Gunn, D. L. and Jenkin, P, M. and Gunn A.L. "Menstrual perio – dicity", the Journal of Obstetrics and Gynaecology of the British Empire (Manchester), vol. 44. 1937.

75. Gerson, A.: "Die Menstruation, ihre Entstehung Und Bedeu- tung," Zeitschrift für Sexual-wissenschaft, 1920. Band

76. Guttmacher, Alan Frank: Life in the Making (London: Jarrolds; 1934).

77. Haggard, and Jellinek: Alcohol Explored.

78. Haggard, and Jellinek: "Of the Common foods, milk seems to have the greatest influence in slowing absorption". Article 408, Alcohol Explored.

79. Haggard, Howard W. and Jellinek, E.M. Alcohol Explored (New York: Doubleday, Doran Company, Inc.; 1942).

80. Hahn, Emily: China to Me (New York: Doubleday, Doran and Company; 1944).

81. Haldane, J.B.S. Science and Human Life (New York: Harper and Brothers; 1933).

. 82. Haldane, J.B.S.: Heredity and Politics (London: Georg Allen and Unwin).

83. Hamilton, Dr. James B. of the Yale University School of Medicine, Science News Letter, April 11, 1942.

84. Harris, Frank: Oscar Wilde: His Life and Confessions (New York: The Author; 1916).

85. Herskovits, Melville J.: The Anthropology of the American Negro (New York: Columbia University Press; 1930).

86. Herskovits, Melville J.: Dahomey (New York: J.J. Augustin; 1938).

87. Holbrook Stewart: Murder Out Yonder (New York: The Mac - millan Company; 1941).

88. Holland, Philemon (trans.): The Natural Historie of C. Plinius - Se cundus (London: 1601).

89. Hooton, Earnest Albert: Apes, Men, and Morons (London: Allen & Unwin; 1938).

90. Hooton, Earnest Albert: Twilight of Man (New Pork: G.P. Put - nam's Sons; 1939).

91. Hooton, Professor: Why Men Behave Like Apes and Vice Versa (Princeton: Princeton University Press: 1940).

92. Howells, William: Mankind So Far (New Pork: Doubleday, Dor - man and Company, Inc,; 1944).

93. Hull, C.L. "The Influence of Tobacco Smoking on Mental and Motor Efficiency", in Psychological Monographs, 1924.

94. Hutchinson's Dog Encyclopaedia. "Telegony".

95. Jackson, Gardner: "Miracles' at Malden", The Nation, December 4 1929.

96. Jastrow, Joseph: Fact and Fable in Psychology (London: Mac - millan and Company; 1901).

97. Kellogg E. C. "New Evidence (?) for 'Extra-Sensory Perception'," Scientific Monthly, vol. 45, 1937.

98. Kerns W.W. "A very young Mother", Medical World, Philadelphia, 1905, XXiii.,

99. Klineberg, Otto: Race Differences (London: Harper and Brothers).

100, Kruger E. T. and Reckless W. C. Social Psychology (New Pork: Longmans, Green and Co., 1931.

101. Lee, Alfred Mc. Clung: Race Riot (New Pork: The Dryden Press; 1943).

102. Levine, Maurice Psychotherapy in Medical Practice (New York: The Macmillan Compary; 1942).

103. Lewis, Julian H.: The Biology of the Negro (Chicago: The -Uni versity of Chicago Press; 1942).

104. Lewis, Lloyd Myths after Lincoln (New York: Harcourt, Brace and Company; 1940).

105. Loeser, Johann A.: Animal Behaviour (London Macmillan and Co., Ltd; 1940).

106. MacDougal, Curtis D. Hoexes (New York: The Macmillan Com - pany; 1941).

107. Maier, N.R.F. and Schneirla T. C. Principles of Animal Psycholo - gy (London: MacGraw Hill).

108. Malinowski, Bronislaw: The Sexual Life of Savages in North - Western Melanesia (London: G. Routledge and Sons; 1932). val. i.

109. Maloney, J. "The Shark is a Sissy". Collier's, Oct. 7. 1944. 110. Mann, A.J. "Another case of Precocious Motherhood", American Journal of Clinical Medicine, Chicago 1910, XVii.

111. St. Mars, Frank: On Nature's Tail: (New Pork: George H. Doran Co.; 1914).

112. Marten, M. Edward: The Doctor Looks at Murder (New York: Doubleday, Doran & Company, Inc.; 1937).

113. Martineau, Harriet: Society in America (London: Slunders and Ottley; 1837). Vol. 2.

114. Mayer, Edgar (ed): Radiation and Climatic Therapy of Chronic Pulmonary Diseases (Baltimore: The Williams and Wilkins Com - pany; 1944).

115. Mayo, Katherine: Mother India (London: Jonathan Cape). 116. MacLean Dr. American Journal of Obstetrics, Vol. 22.

117. The Mayor's Committee on Manihuana: The Marihuana Problem in the City of New York (Lauceşter, Pa.: The Jaques Cattell Press; 1945.

118. McNeil C. The Edinburgh Medical Journal. Vol. 1. 50, 1943. 119. Mc Roberts, Robert: New Republic, May 19, 1937.

120. Mencken, H. L.: "Journalism in America" Prejudices, Sixth Series (New York: Alfred A. Knopf; Inc.; 1927),

121. Menchen, H.L.: "Hymn to the Truth", Prejudice Sixth Series (New York: Alfred A. Knopf. Inc.; 1927).

122. Mendehall, W. L.: Tobacco (Cambridge: Harvard University Press; 1940).

123. Menninger Karl A. Man Against Himself (New York: Harcourt, Brace and Company; 1938).

124. Milton, J.: Samson Agonistes.

125. Mitchell, Margret: Gone With the Wind (London: Macmillan and Company).

126. Mitchell, P. Charlmers: The Childhood of Animals (New York: Frederick A. Stockes Company; n.d. CC. 1912).

127. Montague M. F. Ashley: "Physiology and the Origins of the Mens - trual Prohibitions", The Quarterly Review of Biology, June 1940.

128. Montague, M.F. Ashley: "The Myth of Blood", Psychiatry, Vol. 6, 1943.

129. Montague, M. F. Ashley: "The Physical Anthropology of the Ame - rican Negro", Psychiatry, February 1944.

130. Montague, M. F. Ashley: "Physical Characters of the American Negro", Scientific Monthly. July 1944.

131. More, Henry: A Collection of Several Philosophical Writings (Lon - don: Joseph Downing; 1712), Scholia on Enthusiasmus Triumpha - tus, section 58.

132. Morris, Percy A.: They Hop and Crawl (Lancaster, Pa.: The Jaques catteil Press; 1944.

133. Myerson Abraham: The Interitance of Mental Disease (Baltimore: The Williams and Wilkins Company; 1925).

134. Myrdal: An American Dilemma.

135, Mytton: The Dictionary of National Biography, Vol. XIV. 136. Nathan George Jean and Mencken H.L.: The American Credo (New York: Alfred A. Knopf, Inc.; 1921).

137. Ogilby John: America (London: Printed for the Author; 1671).

138, Pearson, Edmund: Studies in Murder (New Pork: Modern Library - Random House Inc.; 1938).

139. Pearson, Edmund: Murder at Smutty Noze (London: Heinemann).

140. Pearson, Karl Grammar of Science (London: 2nd. ed., 1900; Re - vised reprint: Everyman's Library; (New York; E.P. Dutton; 1937).

150. Rowan, William: The Riddle of Migration (Baltimore: Williams (Spring field, Illinois; Charles S. Thomas; 1943).

142. Pittman, V.I.: 'Child birth at the age of nine' American Journal of Clinical Medicine, 1908.

143. Ploss, Herman: Heinrich and Bartels, Max and Bartels, Paul: (London: William Heine Mann, Ltd.; 1935).

144. Plutarch: Lives (London: Loeb Classical Library; W. Heinemann; 1919) vol. 7.

145. Poe, El, 'A Descent into the Maelstrom'

146. Potter and Adeir: Foetal and Neonatal Death (Chicago: The Uni - versity of Chicago Press: 1940).

147. Rauber, August: Homo Sapiens Ferus, oder Die zustande der Ver - wildertem und ihre Bedeutung fur Wissenschalf Politi und Schule. Zweite Auflage, Leipzig, 1888.

148. Rawley John: "Life History of the Sea Lions on the California Coast", February 1929.

149, Romanes George J.: Animal Intelligence (London K. Paul, Trench R. Co.; 2nd. ed., 1882)

150. Rowan, William: The Riddle of Migration (Baltimore: Williams and Wilkins; 1931).

151. Salter, Andrew: What is Hypnosis? (New York: Richard R. Smith: (1944).

152. Scheinfeld Amram: "The Kallikaks After Thrity Years", Journal of Heredity, September 1944.

153. Scheinfeld Amram: You and Heredity (London: Chatto and Win - dus).

154. Scheinfeld, Amram: Women and Men (New York: Harcourt, Brace and Company; 1944).

155. Schufeldt, Robert W. The Negro a Menace to American Civiliza - thion (Boston: The Badger Press; 1907).

156. Seabrook, William Jungle Ways (London: G.G. Harrap). 157. Seton, Ernest Thompson: The Natural History of the Ten Com - mandments (New York: Charles Scribner's Sons; 1907). 158. Seton, Ernest Thompson: Wild Animals I Have Known (London: Hodder and Stoughton; 1914).

159. Seton, Ernest Thompson: Wild Animal Ways (London: Hodder and Stoughton; 1916).

160. Seton, Ernest Thompson: (ed.) Famous Animal Stories (London: John Lane; 1933).

161. Shaftesbury, Edmund Child Life (Washington, D.C.: The Rals - ton Press; 1897).

162. Shakespeare, Henry V, II, iii.

163. Shakespeare, W.: The Merchant of Venice, IV, i. Richard II, III, ii. A Midsummer Night's Dream, III, ii. Macbeth, III, iv, Antony and Cleopatra, V, ii, Henry VI (2), III, i. and ii. Henry VI (3), I, iv.

164. Shandy, Walter: The Life and Opinions of Tristram Shandy.

165. Shapiro, H.L.: Descendants of the Mutineers of the Bounty (Ho – nololu: The Berenice P. Bishop Museum; 1929).

166. Shapiro, H.L. The Heritage of the Bounty (New York: Simon and Schuster; 1936).

167. Simon, Dr. C. ("Blanchement Rapide des Cheveux" in Nouvelle Pratique Dermatologique, Paris Masson & Cie; 1936; Vol. 5.).

168. Snyder, Le Moyne Homicide Investigation (Spring-field, Illinois: Charles C. Thomas; 1944).

169. Spearman, C.: The Abilities of Man (London: Macmillan and Company; 1932).

170. Spearman, C. Human Nature and the Social Order (New York: The Macmillan Company; 1940).

171. Stanley, Henry M.: In Darkest Africa (New York: Charles Scrib - ner's Sons; 1890). Vol. 1.

172. Stefansson, Vilhjalmur: My Life with the Eskimo (London: G. G. Harrap).

173. Stefansson Vilhjalmur: The Friendly Arctic (London: G.G. Har-

174. Stein Gertrude: Wars I have Seen (London: B.T. Batsford).

175. Stefansson Vilhjalmur: Adventures in Error (New York: Robert M. McBride and Company; 1936).

176. Steinhaus, A. H. and Grunderman, F.M. Tobacco and Health (New York: Association Press; 1941).

177. Strouse, S. The Modern Home Medical Adviser, 1942.

178. Sotton, Richard L. and Sutton Richard L., Jr, Diseases of the Skin (London: Henry Kimpton).

179. Swan, John: Speculum Mundi (Cambridge: Printed by Roger Da - niel, Printer to the University of Cambridge; second edition; 1643).

180. Tennyson, A, Enoih Arden, Lives,

181. Tennyeson, A. Locksley Hall Stanza 34.

182. Thomen, Dr. Augusŧ A, Doctors Don't Believe It, Why Should you? (New York: Simon & Schuŧer; 1941).

183. Thoreau, Henry David: Writings (Boŧon: Houghton Mifflin Com - pany: 1906). Vol. XV.

184. Timbs John: English Elcentrics and Eccentricities (London: Chatto and Windus; 1875).

185. Tinker C. B.: Nature's Simple Plan (Princeton: Princeton Univer sity Press; 1922).

186. Todd, T. Wingate: "Cranial Capacity and Linear Dimensions in White and Negro". American Journal of Physical Anthropology; Vol. 6, 1923.

187. Torre, Lillian de la: Elizabeth is Missing (London: Michael Jo. seph; 1947).

188. Trollope, M. Mrs. Domeŧic Manners of the Americans (London: Whittaker Treacher & Co.; 1832), Vol. 2.

189. Waugh, Alec: Hot Countries (New Pork: Farrar and Rinehart; 1930).

190. Webŧer John: The Duchess of Malfi, Act 2, Scene 1.

191, Wecter, Dixon: "How Much News in a News Letter?", The Atlan - tic Monthly, March, 1945.

192. Wheeler, William Morton: Social Life Amon the Insects (London: Conŧable and Company).

193. Wiggam, Albert Edward: Sorry But you 're wrong About It (India – napolis: The Bobbs Merriel Company; 1931)

194. Wigmore, John Henry: Code of the Rules of Evidence in Trials at Law (Boŧon: Little, Brown & Co.; 2nd edition, 1935). 195. Williams, U.V.: "Another Precocious Mother", American Journal Clinical Medicine, 1911, XViii.

196. Windle W. F. Physiology of the Foetus Philadelphia: Saundus & Co.; 1940).

197. Woodworth, R.S. Psychology (London: Methuen and Co.).

198 Woolf. Virginia: Three Guineas (London: The Hogarth Press; 1938.

199. Wordsworth, W. Lament of Mary Queen of Scots.

200 Wright, Richard: Black Boy (London: Victor Gollancz).

201. Yerkes. Robert M. "Conjugal Contrasts Among Chimpanzees", Journal of Abnormal and Social Psychology, April 1941.

202. Yerkes Robert M. and Yerkes Ada W.: The Great Apes (New Ha - ven: Yale University Press; 1929).

203. Yerkes, Robert M.: Almost Human (London: Jonathan Cape).

204. Young Hugh Hampton: Genital Abnormalities, Hermaphroditism, and Related Adrenal Diseases (London: Bailliere and Company).

205. Young, Kimball: Sociology (New York: American Book Company; 1942).

206. Young, W. E. Shark! Shark! (New York, Gotham House: 1933.)

207. Zingg R. M. American Journal of Psychology, July, 1940.

208. Zingg Robert M.: Wolf Children and Feral Man (New York: Har - per & Brothers; 1941).

209. Zuckerman S: The Social Life of Monkeys and Apes (London: Kegan Paul, Trench, Trübner & Co.; 1932).

210. Zuckerman S.: Functional Affinities of Man, Monkeys and Apes London: Kegan Paul, Trench, Trübner & Co.; 1933).

Magazines & Newspapers:

211. American Mercury: "Menace of Marihuana", December 1935.

212. American Weekly May 18 1941.

213. American Weekly Dec. 10 1944.

214 American Weekly April 1 1945.

215. The Atlantic Monthly, April 1930.

216. The Medical Journal, Feb. 19, 1944.

217. Chicago Daily News May 17 1943.

218. Chicago Daily News March 31 1944.

219. Chicago Daily News Jan 13 1945.

220, Chicago Daily News Jan 19 1945.

221. Chicago Daily News Jan 26 1945.

222. Chicago Daily News Jan. 31 1945.

223. Chicago Sun Sept. 2 1943.

224. Chicago Sun June 14 1944.

225. Chicago Sun July 20 1944.

226. Chicago Sunday July 28 1943.

227. Chicago Sunday Sept. 2 1943.

228. Chicago Sunday Sept. 14 1944.

229. Chicago Sunday July 19 1944.

230. Chicago Sunday July 20 1944.

231. Chicago Sunday July 25 1944.

232. Chicago Sunday July 29 1945.

233. The Chicago Tribun: "Please, Folks, Don't Blame Me!" January 20, 1945.

234. Consumer's Guide, Vol 10, No. 9. August 1944, (A Publication of the War Food Administration, Washington, D.C.J. 235. Coronet, May 1943.

236. Good House Keeping July 1944.

237. Harper, Jan 1941.

238. Journal of the American Medical Assoc. Jan. 18 1941.

239. Journal of the American Medical Assoc. April 28 1945.

240. Lancet, London, 1889, ii., and October 15, 1910.

241. Life Jan. 29 1940.

242. Life Feb. 12 1940.

243. Life Dec. 22 1941.

244. Life Jan. 29 1935.
245. Litrary Digest Dec. 18 1927.
246. Litrary Digest Dec. 7 1929.
247. Litrary Digest Oct. 24 1936.
248. National Geographic Magazine, November 1926
249. The New Republic Dec. 4 1929.
250. The New Republic, Aug. 16 1943.
251. New Yorker Aug. 14 1937.
252. New Yorker May 8 1943.
253. New Yorker May 27 1944.
254. New Yorker June 3 1944.
255. New Yorker Aug. 26 1944.
256. New Yorker May 12 1945.
257. New York Times Oct. 22 1926.
258. New York Times Oct. 23 1926.
259. New York Times Dec. 26 1926.
260. New York Times Jan. 30 1927.
261. New York Times April 6 1927.
262. New York Times April 27 1927.
263. New York Times May 2 1927.
264. New York Times July 17 1927.
265. New York Times Jan. 8 1940.
266. New York Times July 22 1940.
267. New York Times April 23 1942.
268. New York Times May 25 1943.
269. New York Times Aug. 1 1943.
270. New York Times Aug. 3 1943.
271. New York Times Aug. 4 1943.
272. New York Times Aug. 5 1943.

273. New York Times Magazine, April 27, 1941.
274. Notes and Querries Jan. 29 1916.
275. Notes and Querries Feb 26 1916.
276. Notes and Querries March 25 1916.
277. Notes and Querries March 29 1941.
278. Readers' Digest Feb. 1938.
279. Readers' Digest March 1940.
280. Readers' Digest Aug. 1940.
281. Readers' Digest Nov. 1941.
282. Readers' Digest Jan. 1942.
283. Readers' Digest Dec, 1943.
284. Readers' Digest Dec. 1944.
285. Saturday Evening Post August 5 1944.
286. Saturday Home Magazine: August 30, 1941.
287. Science, March 22, 1940.
288. Science Digest, September 1944.
289. Science News Letter: July 13, 1940.
290. Scientific American March 1936.
291. Scientific American March 1941.
202. Speed of Edinburgh, J.G. Science Digest, March 1942.
293. Thoreau's Journal, June 28 1857.
294. Time June 28 1926.
295. Time Aug. 16 1926.
296. Time Nov. 1 1926.
297. Time Feb. 14 1927.
298. Time Nov. 25 1929.
299. Time Jan. 9 1933.
300. Time Jan. 21 1935.
301. Time Jan. 22 1940.

302. Time March 3 1941.

303. Time Nov. 3 1941.

304. Time March 2 1942.

305. Time June 8 1942.

306. Time May 31 1943.

307. Time Aug. 2 1943.

308. Time Aug. 9 1943.

309. Time Aug. 16 1943.

310. Time Feb. 21 1944.

311. Time April 10 1944.

312. Time April 24 1944.

343. Time July 17 1944.

314. Time July 31 1944.

315. Time Aug. 14 1944.

316. Time Sept. 4 1944.

317. Time Oct, 2 194.

318. Time Oct. 16 1944.

319. Time Nov. 27 1944.

320. Time Dec.4 1944.

321. Time Dec, 25 1944.

322. Time Jan. 8 1945.

323. Time April 16 1945.

324. The Times, London, February 1, 1943, and February 2, 1943.

325. Times of India: "Mother India, Conditions of Child-birth", (Cal - cutta), October 10, 1927.

325. The Truth Seeker, January 1945.

Encyclopaedias and Basic References

377. The Catholic Encyclopaedia.

328. Encyclopaedia Britannica.

329. Dictionary of National Biography.

330, The Oxford English Dictionary.

331. Talmud.

Books with no Auther Listed

332. The American Character 'Alfred Knopf inc. New York 1944.

333. England, A History of British Progress, Crowell, New York 1928.

334. The First Aid Textbook of the American Red Cross, 1944.

335. On Natures Trail: New York George H. Doran Co, 1914.

336, Women and the Ministry, Some Considerations on the Report of the Archbishop's Commission on the Ministry of Women. (1936).

حتى وإن ألغينا الماضي من حياتنا إلا أنهُ لم ينتهِ منّا بعد، فلا تزال أفكار العصر الحجري تعيشُ جنبًا إلى جنب مع أحدث الاكتشافات العلمية المعاصرة. ولم يخرجْ من ظلمات القرون الوسطى إلا جزء ضئيل مـن البشـرية. ولا زالت الخرافـات والأوهام والأسـاطير تعششُ حتى في العقول النيرة المثقفة.

فهناك بشر يبدون أسـوياء العقول ولكنهم يضعون مستقبلهم بين أيدي سـحرة ومنجمين. تشـق عنان الفضاء طائرات عملاقة جبارة، يحمل قسـم من ركابها التعاويذ السحرية لتقيهم المخاطر والأهـوال. وهنالك مـن الفنادق الفخمة التـي تفخر بمصاعدها الكهربائية السريعة، وبتقنياتها في كل غرفة، فإنها تأبى أن تضع الرقم (13) على أبواب غرفها كي لا يشـعر سـاكنوها بالقلق وعدم الارتياح.

لا زالتْ تقاليدُ الشعوبِ تزخر بمخلفات الماضي الوثنية، فمن ذلك احتفالُ المسيحيين بتزيين أشجار الصنوبر في عيد الميلاد وهم لا يعلمون بأن ذلك من مخلفات عبادة الشـجر فـي العصر الحجري الحديث.

في سبيل المعرفة



فردريك سانغر (1918 - 2013) عالم كيمياء حيوية بريطاني حصل مرتين على جائزة نوبل في الكيمياء وذلك عامي 1958 و1980.

حاز سانغر على جائزة نوبل في الكيمياء في سنة 1958 لعمله على هيكلية البروتين وخاصة الإنسولين، وتقاسم سانغر الجائزة في عام 1980 مع العالم الأمريكي والتر جيلبرت لاختراعه تقنية تسلسل الحمض النووي الأول على الإطلاق والتي لا تزال قيد الاستخدام على نطاق واسع حتى يومنا هذا.

ISBN: 978-9922-8551-5-8
9789922855158
نصوص منشورات